صالح مرسي

هؤلاء

نجيب محفوظ ▪ يحيى حقي
يوسف إدريس ▪ يوسف السباعي
توفيق الحكيم

الأعمال الكاملة

دار الشروق

Bibliotheca Alexandrina
0160232

هم وأنا

الناشر : **مكتبة مدبولي الصغير**
٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز
تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

هم .. وأنا
رقم الإيداع : ٩٣٣٠ / ٩٥
الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

المدير الفني : محمد الصباغ

هم وأنا

نجيب محفوظ
يوسف إدريس
يوسف السباعى
يحيى حقى
توفيق الحكيم

صالح مرسى

الناشر: مدبولى الصغير

الإهداء

إلى فوزية سلامة
صديقتي الوفية
صالح

الافتتاحية

كان من حظى،كما كان من قدرى، أن أجوب شواطئ العالم الشهيرة ، وبعضا من تلك التى يسمع بها الكثيرون... فى اليونان حيث الشواطئ خشنة الملمس، صخرية التكوين ، وفى جزرها العديدة التى تحمل عبق التاريخ والمعارك والبطولات والأبطال والأساطير والفلسفات وبقايا حضارة سادت زمنا ، تلك الجزر المتناثرة فى البحر ، والتى تستقبلك مرحبة وأنت على ظهر سفينة تمخر العباب فى طريقها إلى ميناء بيريوس، أو بيريه كما ننطقها بالعربية ، هناك حيث الشواطئ ضحلة، والمياه كابية اللون، والموج غاضب مزمجر وكأنه يريد أن يعلن عن سطوة كانت ، وحضارة قامت ، وحروب استعرت ... وفى إيطاليا ، من تريستا وفينيسيا فى الشرق الايطالى ، إلى الشاطئ الغربى حيث نابولى وكابرى ولوفورنو وجنوا ثم بورتوفينو التى تغنت داليدا بجمالها فى الستينات ، والتى تقع على خليج صغير تحيطه المرتفعات الصخرية، ترسو تحت أقدامها يخوت نجوم السينما وأصحاب الملايين ،فإذا المتعة - إن وجدت - فى بعزقة المال... متعة إنك تدفع فى فنجان القهوة أو زجاجة المياه الغازية عشرة أضعاف ماتدفعه فى أغلى مدن العالم !

ومن الريفييرا الايطالية إلى الريفييرا الفرنسية بكل شهرتها

العالمية ، فإذا جمال الطبيعة فيها من صنع الإنسان الذى تفنن فى الإبداع، فيؤخذ المرء لساعة أو ساعات ، ثم يفيق فإذا به يطالع قناعا زاهيا لشاطئ عادى ... أما ماتحت القناع المصنوع فشئ آخر..ثم نتجه غربا إلى اسبانيا والبرتغال وجزيرة ماديرا وشواطئ الأطلنطى المريدة فى جزر الأزورس ... حتى إذا ماعبرت المحيط إلى كندا ، طالعتك شواطئ نهر سان لورانس ، حيث الجزر الصغيرة متناثرة فى مياهه كقطع الجاتوه المزدانة بالورود، والأكواخ الملونة... فإذا ما أبحرت فى النهر جنوبا حيث البحيرات العظمى وشلالات نياجرا ، استقبلتك بحيرة اونتاريو بمياهها المكفهرة دائما أبدا، العابسة صيفا وشتاء ... بعض هذه الشواطئ حملتنى إليها السفينة ، وبعضها سعيت وراء شهرتها منفقا مافوق طاقتى، راغبا فى التعرف على بعض كوكبنا هنا وهناك !

غير أنى - أبدا - لم أقف على شاطئ بحر أو محيط يعادل فى جماله ذلك الجمال الساجى الأخاذ الذى تتمتع به الشواطئ المصرية شرقا أو غربا، من الغردقة والقصير والحمراوين على البحر الأحمر إلى شرم الشيخ فى سيناء ، ثم تلك البقعة التى اكتشفناها أخيرا - وكأنها من آثارنا المدفونة فى قلب الرمال - والتى اشتهرت فى السنوات الأخيرة ، وعرفت باسم الساحل الشمالى.!!

هناك ، عندما يجلس الإنسان إلى شاطئ المتوسط ، متأملا لون المياه المتدرج فى زرقته... وفوق تلك الرمال الجانبية - ولا أقول الناعمة - تشعر وكأن الدنيا تبتسم لك بعد طول عناء ... حتى

To: www.al-mostafa.com

ولو كان البحر ثائرا غاضبا ،فلسوف تجد فى قلب ثورته وغضبه بعضا من حنان ينتمى إلى أصحاب الأرض !!

هنالك... فى بقعة ما على هذا الشاطئ ، ولدت فكرة هذا الكتاب !

... ...

... ...

كانت صديقتى الكاتبة اللامعة فوزية سلامة ، رئيسة تحرير مجلة سيدتى السابقة ، والمشرفة على مجلة الشرق الأوسط اللندنية ، تجلس إلى جوارى... وفوزية من ذلك النوع من السيدات اللاتى يعرفن كيف يدرن حديثا مفيدا ، حتى ولو كان حول قزقزة اللب الذى تعشقه ... وهى بارعة فى الإمساك بزمام الحديث ، تقوده فى يسر وبلا قسر ، قادرة على توليد النكتة أو الطرفة أو المفارقة أو حتى السخرية من نفسها لو تأزم الحوار واختنق فى عنق زجاجة فكرية... فإذا زورق الحديث يتهادى بك إلى أغوار فياضة بالثقافة والعلم والكون ومشاكل البنات أيضا ... تبدو لك كأنها طفلة تنصاع إلى اللحظة أو الفكرة أو المتحدث إليها أو معها ... لكنها فى حقيقة الأمر ، تجلس فى مقعد القيادة ، تحكم قبضتها على اللجام ، توجه خيول الكلمات حيثما تريد ، فى ابتسامتها ذلك السوط الخفى الذى يفرقع فى الهواء ، فلا يصيب أو يؤلم ، لكنه يدفع الخيل إلى حيث تبغى وترغب !وكانت لحظة قد جمعتنا معاً: هى، وزوجتى، وأنا!!

كنا نتأمل الطبيعة، والشمس تميل نحو الغروب وقد استدار قرصها واتسع وازداد احمرارا ، يصبغ بلونه المتهدج مياة البحر اللازوردية ... فإذا المزيج الناتج عن اختلاط الألوان ، لونا فريدا يخلع القلب لفرط جماله،ويعقد اللسان احتراما لجلاله...

الأولاد أمامنا في المياة البللورية يمرحون ، فتأتينا ضحكاتهم مثل شقشقة عصافير تمرح فوق أغصان خفية ، ويختلفون أو يتشاجرون فإذا الاختلاف أو الشجار نوع من الألفة والتآلف نسيناها مع تراكم الأحداث وسنوات الزمن فوق الذاكرة !... وإذا السلام يرفرف على الدنيا بعيداً عن المشاكل والهم ، حتى إذا كانت لحظة ، التفتت فوزية فيها نحوي وكأنها تقتنص صيداً ، هتفت على غير انتظار أو توقع :

«إيه أول كتاب أثر فيك !!»

كان السؤال يبدو بريئاً لولا معرفتي الحميمة بها ... التفت نحوها وابتسمت، رحت أستعد لحوار قد يطول وقد يقصر، قد يمتد وقد ينقطع، لكنه في النهاية سوف يثمر ، سوف يكون اقتلاعاً لمخزون في أعماق الصدر، يحتاج المرء كي ينتزعه من مكمنه إلى جهد ، وشجاعة ، ووضوح وصراحة ... يحتاج باختصار، إلى استقامة!

قلت وكانت إجابتي في البداية عفوية :

" بداية ونهاية ! "

في استفزاز من يوجه اتهاماً قالت :

" إنت اللى بتحب نجيب محفوظ قوى ! "

" وأرخص ليالي !! "

دون أن تذكر اسم يوسف أدريس قالت:

" الله يرحمه ! "

ولقد لذت بالصمت بعدها ... صعب على من عاشر يوسف ادريس ولو أياماً ، أن يدرك بوعي أنه لم يعد معنا، لم يعد هناك، مهما طال البعد ، وكأنك إذا ما ناديت فلسوف يلبي ... انبثقت الذكريات في طوفان هادر...

ولابد أنها لمحت فى نظرتى شيئا ، فعادت تسأل وكأنها تنتزعنى مما استغرقت فيه:

"لكن قول لى إزاى!! "

بدا السؤال غريبا ، لكنه كان موحيا فابتسمت ، ولم يكن هناك بد من الانصياع ... كنت موقنا أنها لن تكف ، ولن تتوقف ، وأنه لا مفر من الاستسلام ... هكذا انساب بيننا الحوار ، وهكذا تشعب بنا فى دروب الماضى ... فإذا أمواجه تحملنا إلى بعيد ، إلى حيث البداية ، هنالك... عند نقطة بعينها قبل ما يزيد على نصف قرن من الزمان ، وكأنى أشاهد فيلما وثائقيا ... ذلك الصبى الذى تعدى العاشرة بقليل وهو يرقب أباه قارئا فى كتاب ضخم تتعدى صفحاته المائتين ، ذا غلاف أسود مقوى ... الوالد مستغرق فى القراءة عابس الوجه أحيانا ، منفرج الأسارير فى أحيان أخرى ... بعد أيام ينتهى الأب من الكتاب كى يحمل كتابا آخر له نفس السمات ونفس الحجم ونفس الغلاف ... وسؤال يتأرجح فى صدر الصبى... هل سيستطيع يوما أن يقرأ كتابا فى مثل هذا الحجم ؟!!

يلح التساؤل يوما بعد يوم ، ينمو ويتحول إلى تحد ، ثم إلى عذاب ... حتى إذا ماانتهت الكتب الكبيرة – وكانت أربعة ، وقد علم صاحبنا فيما بعد أنها كتب مصطفى لطفى المنفلوطى ، النظرات والعبرات ، ماجدولين ، فى سبيل التاج – فإذا الوالد يقرأ كتبا أصغر حجماً، تحمل أغلفتها صورا ملونة لرجال يحملون المسدسات ويدخنون السجائر ... كتاب بعد كتاب، وكل الكتب تحمل عنوانا رئيسيا واحدا هو : " روايات الجيب " ... حتى إذا بلغ التحدى ذات إجازة صيفية مداه ، أمسك الصبى بكتاب وراح يقرأ ... وفتحت له روايات الجيب آفاقا زاهية مليئة بالمغامرات ، أرسين لوبين، الذى كان إذا ماانتصر فى معركة ، دخن – فى لذة-سيجارة مصرية فاخرة .

وشرلوك هولمز الذى لاتستعصى عليه جريمة ، ولا يفلت منه لص أو قاتل... تساعد صاحبنا فى التهام هذه الروايات مكتبة عرفت فى طنطا إبان الحرب العالمية الثانية وقد استشرى الغلاء ، باسم مكتبة " فك الأزمة " ... يدفع لصاحب المكتبة قرشا كرهن للكتاب ، فإذا ماقرأه دفع خمسة مليمات كى يستعير رواية أخرى ...يأتى على كل مايستطيع قراءته ومايستطيعه مصروفه اليومى ... يبكى مع المنفلوطى فى ماجدولين وتسح دموعه سحا ... حتى إذا ماعجز ذات يوم عن استعارة كتاب من تلك المكتبة الفريدة التى كانت قائمة فى شارع اسمه " درب الأثر " ، راح يبحث عن أى شئ يقرأه ، جريدة ، أو مجلة ، أو حتى لافتات المحلات التجارية والدكاكين وهو سائر فى الطريق ، عادة أصبحت إدمانا لازمه حتى اليوم وهو يخطو إلى قلب الشيخوخة ... حتى إذا ماعثر على " ألف ليلة وليلة " ذات يوم فى مكتبة زوج خالته - وكان مدرسا للغة العربية - كان داء القراءة قد تمكن منه ، واستولى عليه ، فأتى على أجزائها الأربعة فى أسبوعين ... وفتحت له ألف ليلة وليلة بابا أطل منه على عالم من الخيال بدا له وكأنه عالمه المفضل ... هنالك ، بعيدا عن الناس ، فى سماوات لا حدود لها !

وإذا كان لكل منا قدره ، فلقد كان قدر هذا الصبى أن تقوده القراءة إلى الكتابة - دون وعى منه أو إرادة أو حتى رغبة فى أن يصبح كاتبا- حتى إذا مانضجت العادة واشتد ساعدها واستوت سوقها ، راحت تزهر حبا بلا نهاية للكتب والكتّاب على حد سواء !!

□ □ □

استمر الحديث بين فوزية وبينى وقد غادرنا الشاطئ وعدنا إلى الشاليه حتى انتصف الليل ... ولقد كان النوم يداعب جفونها لكنها كانت تقاوم ، فهى من هذا النوع من البشر الذى لايقوى على السهر ولايحبذه ... وكلما

لاحت للحديث نهاية ، أمطرتني بالسؤال تلو السؤال ... الكتاب ثم الكاتب، بداية ونهاية قبل سنوات طويلة من أول لقاء لي بنجيب محفوظ... أرخص ليالى وذلك اللقاء الغريب مع يوسف إدريس ، رصاصة فى القلب وقدرة توفيق الحكيم الفذة على إتيان السهل الممتنع . قنديل أم هاشم مع صائغ يحمل اسم يحى حقى ، النظارة السوداء وشباب إحسان عبد القدوس الثائر ، السقا مات وفتوة يوسف السباعى ومعاركه التى لاتنتهى ، شجرة اللبلاب ومحمد عبد الحليم عبدالله ، رحلات السندبادلابن البلد دكتور حسين فوزى ...

هكذا انداح بنا الحديث حول الكتاب ومبدعه ، الخيال والواقع ، الإنسان والفنان ... وعلى مدار ساعات أخذنا الحديث حول تلك الكوكبة النادرة من الأدباء الذين أثروا حياتنا ، وعلمونا فتعلمنا منهم ، وقادونا فثرنا عليهم ، ووجهونا بأعمالهم فتمردنا بأعمالنا ... ولكن ، يبقى من كل شئ ، يبقى من العلاقات والأحداث والأحاديث والزمن ، تلك الذكريات الحميمة ، التى تربط الإنسان بأول كتاب قرأه لكاتب فأثر فيه ، ووضع فى وجدانه لبنة كى ينمو البناء ، وتثمر شجرة العمر !!

تلك كانت أيام زاخرة بالحياة ، مليئة بالاكتشاف والاستكشاف ، ترسم فى ذهنك صورة لبطلك أو كاتبك أو أديبك المفضل ، تضعه فى مكان خاص من قلبك وعقلك ، ثم ... ثم إذا أنت أمامه وجها لوجه ، أمام الحلم والمثل والفكرة تتجسد كائنا حيا ، إنسانا يأكل ويشرب ويخطئ ويصيب ويحزن ويفرح ... يجدف بقلمه في بحر متلاطم من الأفكار السياسية والتحولات الاجتماعية والصراعات المذهبية والظروف المرهقة ... و... ومتطلبات الحياة الشاقة لأديب يكتب فى وطن تسعون فى المائة من مواطنيه أميون !!!

وسرعان ماتطويك الأيام طيا ، تغرقك أمواجها فإذا أنت ذرة فى عالم لا

حدود له ، أو ترس في آلة تتحرك بقوة دفع غامضة ، فلا تملك إلا أن تستجيب للحركة ، لا تملك حتى أن تتوقف لالتقاط الأنفاس، قد تحتج، قد تثور ، قد تتمرد ... لكنك تدور ، تدور وتدور وتدور في عالم هو خليط من الألوان الزاهية والكابية معا ... ولقد كنت أكتشف دائما ، إذا ماانتزعت نفسي من قلب الحياة وعدت بها إلى ذاتي - عادة تأصلت منذ أيام البحر والوحدة والتأمل يدفعك إليها وجودك في قلب كرة بللورية زرقاء بلا مساحة ولاحدود - أن الصورة دائما أجمل ، والخيال أروع ... وأن عالمي الرحيب حيث أنتمي ، هو هذا الخيال الوارف الظلال الذي رضعته من ألف ليلة وليلة ، تلك الجنة الموعودة التي يصنعها الشوق إليها ... وسرعان ماأبتعد ، بل سرعان ماأفر إلى الكتاب - أي كتاب - هاهنا ، بين السطور والصفحات كنت دائما ما أجد الإنسان الحقيقي ، الإنسان المثل والمثال معا ... فالفنان من خلال عمله ، هو عصير مصفى من فكره ووجدانه وحقيقته الكامنة ... وكم عانيت ، وكم تألمت ، ولكم انهالت على الاتهامات والظنون ، فما أبهت ، وما شد انتباهي عن شموخ الفنان شئ !!

□ □ □

وإذا كنت أنا من عشاق الليل المدمنين ، فإن فوزية سلامة من عشاق الفجر وندى الصباح الباكر... ذلك الصباح الذي تعودت ، مهما طال بي السهر ، أن استيقظ فيه كي استقبل باكورة اليوم بالسير ساعة وبعض الساعة ... هي آخر رياضة يسمح بها للشيوخ بعد أن يودعوا الشباب والكهولة وملاعب الاسكواش ومضارب التنس ... وبعدما تترى أوامر الأطباء ونواهيهم وإنذاراتهم وتحذيراتهم من القلوب المكدودة!!

ودائما ، في الصيف ، ما أجد صديقتي في ذلك الصباح الباكر ، جالسة في شرفتها ، أمامها فنجان القهوة السوداء باللبن ... في يدها كتاب تقرأه، أو منكبة على مقال تكتبه ، أو قصة ترويها على الورق ... هكذا تبدأ يومها ، وهكذا تراني وأنا أبدأ رحلة السير الصباحية .

في ذلك الصباح التالي لسهرتنا تلك ، تبادلنا التحية ، واجهتني إبتسامتها الماكرة ، وقبل أن أمضي مبتعدا ، بادرتني بالقول :

" باقولك إيه !! "

استدرت نحوها مبتسما فأردفت :

" ليلة امبارح كانت حلوة قوي ! "

رغم ربع القرن الذي عاشته فوزية في لندن ، فهي لاتزال تحمل روح بنت البلد ، فإذا ماتركت نفسها على سجيتها ، أحسست أنك تتحدث إلى فتاة من السيدة أو الحسين ... فهي تلقي المجاملة بعفوية آسرة ؛ كي تنفذ إلى القلب مثل لص يتحسس طريقة إلى العقل ، قلت محاذراً :

" كانت حلوة بوجودك "

انقضت :

" ماتكتب الكلام اللى انت قلته ده!! "

وأدركت أني وقعت في الفخ ... فهي لم تكن تدرى أن زوجتي – وهي من نفس البرج !!!– قبلها بساعات ، وقبل أن يأخذنا النوم ويطوينا ... كانت تبدو كأنها تحتجز شيئا في صدرها ، سألتها قبل أن ألقي عليها تحية المساء :

" يبدو أني كنت ثرثارا الليلة أكثر من اللازم ! "

قالت :

" الكلام اللى انت قلته ده !! "

" ماله ؟! "

قالت في نغمة أعرفها جيدا :

" لازم ينكتب !! "

وها أنا أفعل .

صالح مرسي

هم وأنا

نجيب محفوظ

الطريق إلى زقاق المدق

١

نظر إلى الطبيب في دهشة، كنت راقداً فوق فراش الكشف في المستشفى البحري بالاسكندرية وكانت أصابعه تتحسس أمعائي يمينا ويساراً، سأل :

«حاسس بحاجة هنا ؟!»

«لأ ؟!»

«وهنا ؟!»

«لأ!»

ضغط في مكان من بطني متسائلا:

«طب وهنا ؟!»

«مفيش غير وخز بسيط جداً !»

جذب الطبيب ملابسي كي يغطي جسدي، والتفت إلى كبير ممرضي المستشفى « الباشريس شيعيشع»، قائلا:

«حضروا أوضة العمليات !»

هكذا من الدار إلى النار كما يقولون ... كانت السفينة قد وصلت منذ ساعتين فقط من رحلة صغيرة إلى مرسى مطروح استغرقت بضعة أيام ، وكنت أثناء الرحلة أشعر بين حين وآخر، برغبة في القيئ ... لم يكن دوار

بحر بطبيعة الحال فلقد كان عام وبعض العام قد انصرم منذ أن التحقت بالبحرية، ولذلك، وعندما عادت السفينة إلى ميناء الاسكندرية، فكرت في المرور على المستشفى للاطمئنان لا أكثر ... وكان الطبيب المناوب، لحسن الحظ، جراحاً شاباً اشتهر بأن هوايته الوحيدة في الحياة هي إجراء العمليات الجراحية ... كان دكتور ماهر كتلة من النشاط والحيوية ودماثة الخلق ... ما أن رآني داخلا عليه في ذلك الوقت حتى هتف:

« إيه اللي جابك دلوقت؟! »

كان الوقت يقترب من الغروب ، وعندما شكوت له من ذلك الدوار الغريب، طلب مني الاستلقاء على فراش الكشف ، وسرعان ما أصدر أوامره، ووجدت نفسي بعد دقائق في غرفة العمليات!

« ايه الحكاية بالضبط يا دكتور ؟! »

هكذا سألت الطبيب الشاب فقال :

« مصرانك ملتهب يا استاذ! »

ولم أعترض ... فقط، أدركت أن اجتماعاً مع الفرسان الثلاثة سوف يفوتني ... كان اليوم الاثنين، وهو موعد لقائي مع حسن الدريني، وحسن الحداد، وعلاء الدين !

كان حسن الدريني صديقي وزميلي في البحرية ... هو البحار الوحيد الذي التقيت به ووجدت لديه ميولاً أدبية ... كنت قد حملت معي الى البحر، تلك العادة التي لازمتني لسنوات فتأصلت في نفسي، وهي عادة القراءة، غير أن الأيام كانت قد أضافت اليها عادة أخرى هي الكتابة التي بدأت عندما أتمت الثامنة عشرة من عمري فقررت كتابه مذكراتي، حتى إذا ما تشابهت الأيام والأحداث، لم يكن أمامي من طريق للاستمرار في

الكتابه، سوى كتابه خواطري، ثم كتابة القصص ... ولقد كان حسن الدريني هو الذى قدمني الى صديقه حسن الحداد الذى أصبح بالتالي صديقا حميماً ومحاوراً لا يشق له غبار ... وكان علاء الدين هو الضلع الثالث فى هذا المثلث الثمين ... وهكذا، قبل أكثر قليلا من سته أشهر ، اتفقنا على تكوين جماعه أدبيه تقتصر علينا نحن الأربعه ... ووضعنا برنامجا محدداً، هو قراءة كتاب كل أسبوع، مجموعة قصص أو روايه أو دراسة، ثم مناقشة الكتاب مناقشة كانت تستغرق منا ساعات ... غير أن الدراسات النفسية والفلسفية - الى جوار القصص والروايات - كانت تحظى منا باهتمام شديد، ذلك أن هذه الدرسات فتنت حسن الحداد فاستغرق فيها، ودفعنا، بماله من قدرة فذة على التحليل والتبسيط، الى التهام ما كان يقع تحت أيدينا منها، أو ما تستطيعه قروشنا أن تشتريه .. وثمه قراءات أخرى مثلت لنا متعة فائقة، هى قراءة كل ما كان أحدنا يكتبه من قصص أو بحوث أو حتى خواطر عابرة!

ولقد كانت تلك الدراسات تمثل لنا متعة تستغرقنا تماما ، حتى بعد أن ننتهى من الاجتماع ونخرج للتريض على كورنيش الاسكندرية وقد انتصف الليل أو زاد، فتستمر حواراتنا حول طه حسين وتوفيق الحكيم وهيكل والمازنى والعقاد وسلامة موسى ، وأعلام الرواية والقصة مثل ابراهيم الوردانى ، الذى كان في تلك الأيام نجم النجوم بالنسبة للقصة القصيرة ، ومحمد عبد الحليم عبدالله صاحب الرومانسيات المحلقة في سماوات الجوائز العديدة لمجمع اللغة العربية ، ثم أمين يوسف غراب ... ومن بعد هؤلاء

[redacted]

مجموعة الشباب الفائر فى هذا المجال وعلى رأسهم عبد الرحمن الشرقاوى وعبد الرحمن الخميس ...

هذا غير جيل جديد كان يطل علينا من صفحات المجلات والجرائد اليومية التى كانت تعد بالعشرات...

جيل شد الانتباه حقا ، لكنه لم يكن يتمتع بما كانت الأجيال السابقة تتمتع به من شهرة ... غير أن أكثرهم قربا إلى العقل والقلب والنفس معا ، كاتب شاب كان يكتب فى كل شئ ، فى الأدب والسياسة والاجتماع والفن... كان عبقريا يبزغ فى سماء الصحافة المصرية كنجم تلألأ بنور فكر مستنير ، وكان اسمه "صلاح حافظ" ، تخصص فى كتابة برواز فى روز اليوسف يحمل اسم "انتصار الحياة" ، ولقد كانت روز اليوسف فى تلك السنوات قد انفجرت شهرتها واكتسحت ماعداها من مجلات بعد أن نشر رئيس تحريرها الشاب مقالاته المدوية عن "الأسلحة الفاسدة"... هذا هو إحسان عبد القدوس الذى اجتذب من حوله مجموعة ثمينة كان على رأسهم يوسف السباعى ونعمان عاشور ، والفريد فرج، ويوسف الشارونى، ويوسف ادريس ... ولقد كنا مفتونين بهؤلاء جميعا، لكن أحدا منهم لم يمثل لنا فى يوم من الأيام نجما يجذبنا إليه او يدفعنا إلى تقليده أو الاقتداء به ...

كانوا مثل حديقة من الزهور ذات ألوان زاهية وروائحها جميعا عطرة ... ولست أذكر ان واحدا منا نحن الأربعة كان يفضل كاتبا على آخر، أو أن أحدنا اعتبر واحدا من هؤلاء مثلا أعلى... هذا أذا استثنينا الأعلام العظام كطه حسين والعقاد والحكيم والمازنى وهيكل ... فهولاء بالذات

كانوا نجوماً ساطعة فى سماوات بعدها عنا جد سحيق !

ولقد كان أكثرنا إنتاجا، هو حسن الحداد ، الذى كان مهندسا بالبحرية التجارية يجوب العالم لشهور فيما بين الهند وشمال أوربا وجنوب أفريقيا، ثم يعود إلينا محملا بالكتب والكتابات الفلسفية والنفسية التى تغوص فى الكون والنفس معا... اما اكثرنا رواجا فكان حسن الدرينى، الذى كان يراسل المجلات الأدبية، خاصة مجلة "القصة" التى رأس تحريرها شاب قدر له بعد سنوات قليلة ، أن يكون واحدا من أساتذة الفن الشعبى المصرى ودارسيه، هو الراحل احمد رشدى صالح ... وكانت مجلة القصة قد نشرت عددا لا بأس به من القصص للدرينى ، مما أهله لأن يكون صاحب رأى وكلمة فيما نكتب ... أما علاء الدين ، وهو الآن صاحب مكتبة علاء الدين بشارع صفية زغلول بالاسكندرية ، فلقد كان أقلنا كلاما، وأكثرنا تأملاً وهدوءا، يتميز عنا بأنه كان يعمل مع شقيقه - إن لم تخنى الذاكرة - فى مجال المكتبات والنشر ... ولذلك ، فلقد التقى اثناء سفرياته الى القاهرة لبعض أعماله ، بعدد لابأس به من الأدباء ... ولا أنسى يوم التقى علاء الدين بالروائى الراحل محمد عبد الحليم عبدالله... ولقد كان اللقاء فى احدى المطابع أو احدى دور النشر لست اذكر ، وكان قد تخلف عن اجتماعنا أسبوعاً، وعندما سألناه فى الاجتماع التالى عن سبب غيابه، حكى لنا قصة ذلك اللقاء مع صاحب "شجرة اللبلاب"، واتفقنا الاجتماع كله فى الاستماع الى علاء وهو يحكى لنا عن عبد الحليم عبدالله

والحوار الذي دار بينهما ، وكأنه يحكى لنا عن كوكب في السماء صعد اليه بسفينة فضاء سحرية !

□ □ □

تمت عملية استئصال الزائدة الدودية، وكنت ما أزال في غيبوبة المخدر عندما أحسست فيما بين اليقظة والنوم، بالآلام تنتشر في جسدى انتشاراً دفعني الي التأوه ... ومان فتحت عيني، حتى وجدت الغرفة شبه مظلمة، الضوء خافت وثمة مريضين آخرين كانا يغطان في النوم، والصمت سائد، والألم يتزايد... حاولت النهوض فلم استطع ، ناديت بصوت واهن :

"ياباشريس شعيشع"

لم يكن نداء بقدر ما كان أنينا ... لكن الغريب أني وجدت جسد شعيشع يقف في فتحة الباب حيث كان الضوء يتسلل الي الغرفة من الردهة المضيئة في الخارج ، وكان باسما وفي يدة حقنة، تقدم مني متسائلا :

" ازاى الحال !"

" تعبان !"

نظر في ساعة يده واتسعت ابتسامته وهو يغمغم :

" حظك من السما !"

" اشمعنى ؟!"

" بكرة تعرف ! "

وسرعان ماغرس الابرة في لحم ذراعي متمتما :

" دلوقت حاتنام ، والصبح ان شاءالله، حاتبقى ألسطة ! "

وكلمة "ألسطة" هذه، كلمة يرددها البحارة بما يعني ان كل شئ تمام ... ورغم أن هذا ليس موضوعنا ، الا أني اريد التوقف عند هذا

الرجل - شعيشع - الذي عاشرته لسنوات بعد ذلك اجريت فيها ثلاث عمليات جراحية ... فرغم رجولته البادية، وأصابعه التي تشبه صوارى السفن ، الا أن رقته كممرض ، لم أرها ولم اشعر بها مع من كانوا مثله أبدا ... كان حنونا مثل أم، رحيما كملاك ، باسما وكأن وجهه لا يعرف للتقطيب طريقا ... بعد أن حقنني ، وضع الترمومتر في فمي ، وعندما نظر إليه قال :

" الحمد لله ! "

وقبل أن يتركني ويمضي ، كنت قد أستغرقت في النوم من جديد !

* * *

عندما استيقظت مرة اخرى، كان النهار قد ملأ الدنيا ، لم أعرف كم كان الوقت ساعتها ، غير ان همهمات كانت تصلني من بعيد ، همهمات مختلطة تبينت فيها بعد لحظات ، صوت شعيشع وكأنه يأتي من بعد سحيق، وكان يقول مازحاً :

"دي دماغه خفيفة قوي ، دلوقت يفوق !"

جاءني بعدها صوت خطواته وهو يبتعد ، غير ان الهمهمات عادت من جديد، كان النوم يشدني شدا، غير اني - في عناد موروث - رحت افلفص تخلصا من هذا الغياب القسري ... أدركت فيما ادركت ، ان شعيشع كان يحدث أناساً في الغرفة ، ولم يكن هناك من يعرف أني أجريت عملية جراحية ، لم تكن العائلة قد انتقلت من طنطا الي الاسكندرية بعد ، وكنت أسكن في بنسيون شأني في ذلك شأن مئات الشباب الذين يعملون في الاسكندرية بعيدا عن ذويهم ... من بعد سحيق كانت الأصوات تصل الي، تستبين

لحظة بعد أخرى، حتى ميزت وسط الأصوات صوت حسن الحداد وهو يقول مداعباً:

"يعني لولا القدر والصدفة البحتة ، كان زمانه دلوقت عايش في عالم المثل !"

ادركت بطبيعة الحال انى المقصود ، كما ادركت ان حالتى كانت بشكل ما تشكل خطرا...وعندما فتحت عينى أخيرا ، كان رؤوس الفرسان الثلاثة تطل على من أعلا ، فابتسمت !

مال حسن الدرينى فقبل جبينى قائلا : .

"الحمد لله على سلامتك !"

وهتف الحداد مازحا :

«أخيرا عدت الينا من رحلة البحث عن الحقيقة فخبرنا بما شاهدت ايها الملاح فى البحر والنفس معاً!»

أما علاء ، فلقد إمتدت يده كي تضغط على يدى فى رفق وهو يقول :

«كده تعملها من غير ماتقول لنا !»

لست ادرى لماذا علقت هذه الجمل الثلاثة بذاكرتى حتى الآن بمثل هذة الدقة اليقينية ، ربما لأنى كنت وحيداً فى الاسكندريه، بعيدا عن أبى وأمى واخوتى، ربما ... وربما لأن كلماتهم مست شغاف قلبى فى لحظة ضعف لم أكن أملك فيها القدرة على الحركة البسيطة ... غير انى لااذكر ماالذى دار بينى وبينهم بعد ذلك من حوار... كل مااذكرة، ان الدكتور ماهر اقتحم الغرفة باشا هاتفا:

«إيه الاخبار ؟!»

قلت :

«تعبأن !»

قال :

"إحمد ربنا ، كان زمانك دلوقت بتشاغب الناس فى العالم الآخر !"

كان حديثه دون شك موحيا ... سألته بصوت واهن :

" ايه الحكاية يادكتور ؟! "

التفت الطبيب نحو الباشريس شعيشع ، وكان قد جاء برفقته، قائلا :

" خليه يشوف الكارثة اللى كانت جواه ! "

رفع شعيشع أمام عينى إناء مليئا بسائل حائل اللون ، فى السائل كان ثمة انبوب طويل ملتو، ذا لون هو خليط من الأزرق والأحمر ، سألت:

" ايه ده ! "

أجاب شعيشع :

"دة المصران اللى كان حاينفجر بعد ساعتين لو الدكتور مالحقكش !"

فيما بين الدهشة والعجز عن التعبير عنها، كان الطبيب يجرى الكشف على الجرح، وكان كل شئ على حد قوله : "السطه"... قبل ان يغادرنى قال للممرض الحنون :

" بلاش مسكنات كتير ! "

ثم تركنى وانصرف، لكنه، قبل ان يغادر الغرفة، بعد أن اجرى الكشف على المريضين الآخرين، وسمح لأحدهما بمغادرة المستشفى فى نفس اليوم، توقف عند الباب ملتفتا نحو الفرسان الثلاثة قائلا:

" كفاية كده التهارده ، سيبوه يرتاح ! "

تقلم منى حسن الحداد ، وكان - كعادته حتى اليوم رغم مرور نيف

وأربعين عاماـ يحمل في يده مجموعة من الكتب ، التقط من بينها كتابا قدمه لي وهو يقول :

" قلنا لو جبنا لك ورد ، الورد هيدبل ... انما الكتب عمرها ما تدبل ! "

تناولت الكتاب ، ما أن نظرت الى غلافه حتى هتفت :

" نجيب محفوظ ! "

قال علاء :

" بداية ونهاية ! "

واضاف الدريني :

" اقراها حاتخف على طول ! "

تناولت الكتاب ، ولم اكن ادري ، ان هذه الرواية بالذات، سوف تغير مجرى حياتي !

٢

لم يكن نجيب محفوظ جديداً علي ... كنت قد قرأت له ـ حتى ذلك الحين ـ روايتى "رادوبيس" "وكفاح طيبة"، ثم مجموعة قصص "همس الجنون"... وأذكر أن كفاح طيبة حازت أكبر نصيب من المناقشة والجدل والخلاف فى ندوة الإثنين مع الفرسان الثلاثة ... وإذا كان "سقنن رع" ـ كتب نجيب محفوظ اسمه فى الرواية سكننرع ـ هو أول الفراعنة الذين آلوا على أنفسهم طرد الهكسوس من مصر، فإن ابنه "كامس" كان أول من خطا فى الطريق إلى النصر الذى أحرزه من بعده شقيقه الأصغر "أحمس" كاملا... ولقد كان الحس الوطنى فى تلك الأيام قد بلغ ذروته... انتهت الحرب العالمية الثانية وأصبح خروج الجيش البريطانى من مصر ، هو ذروة الأمانى جميعا ... ولأن أحمس كان هو البطل والمنقذ فى التاريخ القديم، فلقد كنا فى انتظار "أحمسا" جديداً يطرد هكسوس العصر الحديث الذين احتلوا بلادنا لأكثر من سبعين عاما !

ولقد كانت بداية ونهاية هى آخر العنقود فى سلسلة روايات نجيب محفوظ فيما قبل الثلاثية...

كانت هناك القاهرة الجديدة وخان الخليلى وزقاق المدق والسراب ، ولست أدرى كيف فاتتنا أن نقرأ هذه الأعمال، ربما لأن الساحة كانت زاخرة بالنجوم

والأدباء الشبان ... كان الراحل محمد عبد الحليم عبدالله متألقاً برواياته الرومانسية، ويوسف السباعي لامعا بقصصه القصيرة التي كانت تنشر في مجلة مسامرات الجيب، وعلي أحمد باكثير بأعماله التاريخية المتميزة، وإبراهيم الورداني وسعد مكاوي وعبد الحميد جودة السحار ومحمود البدوي وأمين يوسف غراب، كما كان هناك عادل كامل صاحب "مليم الاكبر"، فإذا أضفنا إلى هؤلاء جميعا أديبين تميزا وسط هذه المجموعة بأن كلا منهما كان يقرض الشعر ويكتب الرواية والقصة معا، هما عبد الرحمن الشرقاوي وعبد الرحمن الخميسي، فلسوف تبدو لنا الساحة مزدحمة بالأسماء والأعمال والأحداث أيضا... في تلك الأثناء، وقبل أقل من عام، أشرق على الساحة نجم جديد شاب هو الآخر بدا شجاعا مقتحما، بل ـ على حد قول حسن الحداد ـ بدا جديدا في كل شئ، في كتاباته السياسية كما في كتاباته الأدبية أيضا ... هذا الشاب الذي كان قد فجر قضية ذائعة الصيت عرفت في تلك الأيام باسم "قضية الأسلحة الفاسدة"، ولقد صنعت هذه القضية ضجيجا صحفيا وسياسيا غير مسبوق ... كان الجيش المصري قد عاد من حرب فلسطين ثائرا من الأسلحة التي كان يحارب بها، والتي كانت تنفجر بين يديه بدلا من انطلاقها في مواجهة العدو، وجاءت مقالات الأسلحة الفاسدة وكأنها أجراس خطر تدق في عنف كي تنبه الجميع إلى عمق الفساد الذي استشرى في الدولة!

راجت المجلة التي كان يرأس تحريرها هذا الشاب رواجا شديدا، وكان قد كتب أولى رواياته التي أعطاها اسم "النظارة السوداء"، فإذا به يضيف إلى الأدب الحديث مذاقاً جديدا وطعما أثار الكثير من الزوابع الأدبية كما ثارت زوابعه السياسية ... هذا هو إحسان عبد القدوس عميد مدرسة روز

اليوسف التي تخرج فيها مئات من الصحفيين والأدباء والفنانين ، والتى صنعت ثورة حقيقية في فن الصحافة، كما ساهمت اسهاما عظيما في تغيير وجه الأدب في مصر !

نعم، كانت هناك هذه الكوكبة اللامعة من الأدباء الشبان، غير أن روايات نجيب محفوظ الأخرى كانت هناك ، متداولة في الأسواق ... وكانت معروفة ، خاصة «زقاق المدق» التي نالت شهرة وصيتا ، فكيف لم نقرأها ولماذا ؟!

لطالما بحثت في الذاكرة عن السبب ، كي أعود من بحثي دائما خالي الوفاض ... ذلك أن أحداً من هؤلاء جميعا لم يكن أكثر لمعانا من الآخر ... كانت الساحة إذن زاخرة ، والأسماء كثيرة، والأعمال وفيرة، والأحداث دامية، وقصص الفدائيين في القناة تشغل الأذهان !

وعلى كل ... ففي ذلك اليوم بالمستشفى البحرى بالأسكندرية، انصرف الفرسان الثلاثة كي أستسلم للألم الذي كان منتشرا في جسدي من جراء العملية الجراحية التي كانت، في ذلك الوقت، شيئا ذا بال... وضعت "بداية ونهاية " إلى جوارى في اعتزاز وفرح... كان الكتاب جديدا وقشيبا ، وكانت لهفتي على قراءته تشتد مع اشتداد الألم ، ولقد حاولت القراءة ، لكن عيناى كانتا تجريان فوق السطور بينما عقلي مشدود إلى ماكان جسدى يعانى منه... ولقد انصرم اليوم، وكلما مرت ساعة، خفت حدة الألم ... حتى إذا ما غربت الشمس، فتحت الكتاب كي أغرق في لجة لاقرارلها !!

حسن وحسين وحسنين !

ثلاث أشقاء من نفس الأب ونفس الأم والبيت والبيئة... ورغم هذا كان كل منهم عالما قائما بذاته، عالم لايمت بصلة إلى الآخرين ... كان هناك

حسن المتلاف التالف الفنان الساعي إلى الحياة بحثا عن اللذة أو مضيعا العمر موغلا في الإثم، مرغوب هو ومرفوض في الوقت نفسه، ممزق فيما بين رغباته وطبيعته من ناحية، وبين إحساسه الغامض بالمسئولية من ناحية أخرى.. .الفتونة هي الابنة الشرعية للإحساس المرير بالضعف والضياع معا... ثم ذلك الحنين إلى قناع من شرف كان في بيت الأب الذى اختطفه الموت، فهل كان من الأبناء من هو أكثر حبا له ؟!... ولذلك ، فمن فرط إحساسه بالانتماء تمرد معلنا الانفصال !

ثم حسين، هذا السائر فوق حبل مشدود بين رغبتين متناقضتين ، ذلك النموذج الذي ساد المجتمع المصري ولايزال... المفرز للقسوة المتسربلة بعباءة الرحمة ، يتعلق بأهداب الاستقامة كادحاً، طموحه الأعظم، أن يقبل الآخرون تدشينة في حنود ، ثم يتركونه في حاله !

حتى إذا ما نظرنا إلى حسنين ــ الأخ الأصغر ــ لابد وأن ينتابنا مع الدهشة ذعر حقيقي !!

هو النموذج الصارخ للأنانية والتطلع والتسلق وسحق الآخرين من أجل خطوة يخطوها نحو مستقبل يفصله عن واقعه وياحبذا لو دمره تدميرا ... أقصى أمنياته أن ينتمي إلى الطابق العلوى في البناء الاجتماعى، لايعنيه أن يضحى من أجله أحد ، بل يرى في تضحيتهم من أجله واجبا مقدسا ، لا يعنيه أن يجوع الآخرين، فالمهم أن يشبع هو ، ان يحيا حتى ولو مات في سبيل حياته، كل الآخرين !

حتى إذا ما بلغت الأزمة ذروتها، واكتشف الحقيقة وقد صعد السلم الاجتماعي صانعاًمن حيوات الآخرين درجاً يحمله نحو الهدف، ارتكب جريمة الجرائم، وانتبه إلى حقيقة الماضي، إلى طبيعة الدرج الذى تسنمه، ثم

إذا المستقبل يحمل له كما مخيفاً من الفضائح، فأبت أنانيته إلا أن يترك الحياة كي يلحق العار بالآخرين دونه!!

ثم نفيسة، قبح الخلقه وجمال النفس، صقيع الوحدة الداخلية يقتلها، ورغبة تهرس حياتها... ومن أجل عيون الآخرين، قدمت جسدها الراغب قربانا على مذبح الأنانية دون انتظار حتى لكلمة شكر... نفيسة هى البطل الصامد فى الخندق، يذب العدوان عن الأرض دون أن يراه أحد... ينزلق إلى المعصية مدفوعاً برغبة جد بسيطة فى أن يمارس الإنسان فيها بشريته... حتى إذا ما اكتشف السر، كان جلادها هو نفسه، ذلك الذى صنعته من قواها ودمها وشرفها أيضا، فخطت نحو الموت ملبية نداء الجلاد الذى صنعته قطرات عرقها... ذلك أنه لم يكن هناك ما تريد الابقاء عليه أو الاحتفاظ به!

ثم الأم...

حرم المرحوم كامل أفندى على، القائد المهزوم قبل أن يدخل المعركة ...

استيقظ الزوج فى الصباح كعادته، تناول الإفطار مع أولاده، ثم دلف إلى غرفه نومه كي يستعد للذهاب لعمله... فمات!

هكذا دون تحذير أو إنذار أو تنبيه إلى ما يمكن أن تحمله الدقائق القادمة من كوارث ... ثقب زورق الحياة المبحر فى لجة عاصفة، كيان تتقاذفه الأمواج والأعاصير، مات الرجل وترك لها قيادة زورق كل ملاحيه غرباء عن بعضهم البعض، وكان عليها أن تسوس الأمور دون شراع أو حتى مجداف فى مجتمع كان الفقر هو سمته الغالبة والصارخة!!

وهكذا راح الليل ينقضى وأنا راقد فوق فراش المرض أقلب الصفحات لاهث الأنفاس، يغالبنى النوم أحيانا والألم فى أحيان أخرى، لكن الأحداث

كانت تتلاحق فتتلاحق معها أنفاسي، وإذا كنت من هؤلاء الذين يرون أن الأدب هو خير مؤرخ للأمم، فإن بداية ونهاية تأريخاً فذاً للطبقة المتوسطة الصغرى في مصر بعد الحرب العالمية الثانية!..ذلك أن فصلا واحداً من هذه الرواية، لا تستطيع تصويره كتب التاريخ مهما عظمت دقتها ودقة معلوماتها!

ما أن سرى آذان الفجر من مئذنة مسجد المرسى أبو العباس داعيا الناس للصلاة، حتى كنت أطوى صفحات الرواية، وقد ... وقد جف دمعي!!!

□ □ □

حاولت النوم فلم أستطع، أحسست أني كنت كالملاح التائه يبحث عن مرفأ فإذا هو على قيد ذراع منه... لم يقتصر الآن على دقة التصوير وبراعة الأداء والبناء، بل لقد أحسست ان ها هنا المأوى والمصير، هذه هي قارتي المفقودة وقد صعدت من قلب المحيط كالشمس تبزغ كي تضئ في صدري وعقلي عوالم كانت غارقة في الضباب ... وإذا كان البحث عن الذات أو النفس أو الطريق هي سمة الشباب بشكل عام، فإن هوايتي للأدب وقراءاتي في الفلسفة وعلم النفس، لم تكن سوى الجزء الرفيع في حياتي الذي انتمي إليه دون سؤال أو جواب أوحتى هدف سوى الإبحار في محيطات الفكر المختلفة، القراءة عندي هي الزاد والزواد، أملأ حقيبتي بالكتب أينما رحلت أو أبحرت... انكب عليها انكباب العاشق يبحث بين السطور عن محبوبة غامضة،يملأني شوق الصد إلي لحظة وصل يغنى فيها وجودي... كنت كلما قرأت كتابا أحسست كم أنا غارق في الجهل، فيزداد نهمي إلى المزيد لعلي أروى به بعضا من عطشي الحارق!

أما الكتابة فهي تأتي في المقام التالي، أعبر بها عما يجيش في صدري

أو يلوكه عقلى ... أكتب لا لأنشر، فالنشر أبداً لم يخطر ببالى، وإنما أكتب لأنى كنت أشعر بالحاجة إلى التحدث مع نفسى بصوت مرتفع!

هكذا كنت حتى جاءت بداية ونهاية كعلامات الطريق المرشدة... أحسست وكأن نجيب محفوظ قد اغترف من الواقع المصرى مجموعة من الناس، ثم ألقى بهم فوق الورق وتركهم يتحركون ويعيشون حيواتهم دون تدخل منه... وإذا كانت مصر بالنسبة لجيلنا كله، هى الهدف والأمل والحب، ففى يقينى أن أحداً لم يعيها ويفرزها مثل نجيب محفوظ فى المدينة!

وضعت الرواية إلى جوارى، أحسست برغبة شديدة فى البكاء، ليس من أجل هذا المصير الذى آلت إليه نفيسة أو حسنين، أبدا... انما هى تلك الرغبة التى تنتابك إذا ما امتلأت نفسك بالرضا، وهى نفس الرغبة التى تنتاب البحار إذا ما طال به الترحال، وعادت سفينته ـ أخيراً ـ إلى مرفئه ورحمه الذى منه جاء!!

ولقد مرت الدقائق، قليلة أو كثيرة لست أذكر، غير أن الوعى كان يعود إلى تدريجياً كي اكتشف
أن أشباح الألم مازالت تنتشر فى جسدى فارتجفت... رفعت رأسى متفحصا المكان كأننى أعود من رحلة طويلة... وإذا شبح «الباشريس شعشيع» يسد الباب المفتوح، خطا الرجل إلى الغرفة المضاءة لاتزال، حتى إذا مارآنى مفتوح العينين هتف فى قلق:

« إيه اللى صحاك فى ساعه زى دى؟! »

من الطرف الآخر فى الغرفة، جاء صوت المريض الذى كان يشاركنى إياها قائلا:

« هو كان نام علشان يصحى؟! »

كان شعيشع يحرك في يده حقنة البنسلين التي حان موعدها... وكان البنسلين في ذلك الوقت هو ذروة الذرى في العلاج... التفت المرض نحو المريض الآخر ثم ارتد ببصره نحوي متسائلا:

« ماغمتش ليه؟... فيه حاجه؟!»

جاء صوت شريكي متذمراً:

«كان بيقرا وموّلع النور طول الليل!»

هممت بالاعتذار، لكن صاحبنا عاد يقول:

«أنا عاوز انتقل من الأوضه دي!»

ومهما كان الأمر، فلقد كنت مستغرقاً فيما كنت فيه، وخزني شيعيشع بالابره وهو يتمتم:

«المفروض أن العيان يرتاح، تحب آخذ الكتاب ده من جنبك؟!»

امتدت يدى كي آخذ الرواية إلى حضني في صمت، انصرف شيعيشع واعتذرت لشريكي في الغرفة...ثم...ثم رحت في سبات عميق!

☐ ☐ ☐

كانت إجازتي بعد العملية ثلاثة أسابيع كاملة، أتيت فيها على كل ما كتبه نجيب محفوظ...وإني حتى اليوم إذا ماذكر أمامي أو قرأت اسم «عاكف»، قفز إلى ذهني على الفور أحمد عاكف - بطل خان الخليلي - وشقيقه رشدي. الشاب الأنيق المتأنق الوسيم الدون جوان الذى داهمه مرض السل - كان السل في تلك الايام غولاً مخيفا! - وقضى عليه... فانتقل أحمد عاكف من خان الخليلي إلى الزيتون، وانتقلت أنا إلى محجوب عبد الدايم في القاهرة الجديدة، حيث اغترف نجيب محفوظ شخصياته من دواوين الحكومة حيث كان يعمل. فاعتصر القلب منا ونحن نرى كيف انزلق

محجوب عبد الدايم إلى حضيض وقاه شر الفقر في المال...وأمده بكم هائل من فقر النفس والرجولة!

الفقر!!

كان الفقر، في تلك السنوات التي مازال البعض - افتراء - يتغنى بها، هو السمة الأساسية في مجموع الشعب المصري...وإذا كان الفقر في المدينة - عالم نجيب محفوظ الأثير - بهذه الضراوة...فكيف كان في الريف، حيث الفلاح لا يكاد يجد قوت يومه إلا من فتات الإقطاعيين وأصحاب الأرض!

ولو أننا أمعنا النظر قليلا في تلك الأعمال التي سبقت الثلاثية، لأدركنا، دون جهد يذكر ، أن «الفقر» هو البطل الأعظم فيها جميعا...في بداية ونهاية، كما في خان الخليلي والقاهرة الجديدة...غير أن هذا الفقر بالذات، كان له في زقاق المدق طعماً خاصاً...

ولكن...هذا حديث آخر!

٣

من منا لم يقع فى غرام حميدة رغم انحدارها هذا الذى أدى بها الى ما آلت إليه ؟!

من منا لم ينفطر قلبه مع عباس الحلو، العاشق الذى زحف مع جموع الزاحفين من المعدمين كى يعمل فى "الأورنس" - معسكرات الجيش البريطانى الذى كان - أثناء الحرب العالمية الثانية - معلماً من معالم القاهرة، كما كانت «أبو كبير» معلما من معالم مصر الاقتصادية؟!

من منا يستطيع أن ينسى حسنية الفرانة وزوجها جعدة، وعم كامل صانع البسبوسة وحسين كرشة ثم ذلك العبقرى المسمى دكتور بوشى؟!

أما زيطة صانع العاهات: فلا تزال رائحته وهيئته وخرابته ورداؤه الذى تضافرت الاتربة والأوساخ فى تكوينه وتلوينه، تملأ منى العين والصدر معاً رغم مرور السنين ، عشرات السنين!... ولا زلت حتى اليوم اذا ما أشتقت للقاء هذا الأستاذ الذى ارتبط وجدانى به ارتباطا لم ينفصم، ألجأ الى هذا الفصل الذى يخرج منه «زيطة» من مكمنه فى الخرابة خلف الفرن، ثم صحبته فى ذلك المشوار الغريب الى حيث يأوى الشحاذون والذين استطاع بعبقريته الفذة أن يشوه أجسادهم، كى يتناول من كل منهم ذلك " المعلوم " اليومى، مليما واحداً - هل تذكرون هذه العملة ؟! - كان يصنع فى تكاثرة ثروة !

لا زلت حتى اليوم أرى بعين الخيال حميدة فى جلستها تلك وسط جنود الاحتلال ذوى الوجوه الحمراء ، والملابس الكاكية ، والأحذية الغليظة ، ولازلت اذكر ذلك الجنون الذى أصاب عباس الحلو وقد عاد من رحلة البحث عن المال فوجد حبيبته وقد انحدرت الى ماوصلت اليه ، فانقض عليها كى ينقضوا عليه ويوسعوه ضرباً وركلا ، ولايتركونه الا وقد أصبح جثه بلا حياة.. !

ودائما ، دائما ما أصنع بخيالى مكانا كهذا فى ميدان الأوبرا ، حيث كنا ونحن صبيه ، نحملق فيما كانت عليه بلادنا ... وكيف استبيحت ، وديست بالأقدام ، حتى الشرف ، لم تعد له أمام الجوع قيمة ! !

مصر اثناء الحرب العالمية الثانيه ...

بل القاهرة اثناء تلك الحرب الضروس التى لم يكن لنا فيها ناقة أو جمل ... من من أدبائنا صورها مثل نجيب محفوظ ؟!

وبينما كان أدبنا فى تلك السنوات غارقا فى رومانسية حتمتها الظروف والبيئه وخطوات النمو ... كان هذا الشاب ، فى دأب وصمت واصرار ، ينحت فى صخر الواقع المصرى المر صوراً مذهله ، لمجتمع كان موحولاً فى تناقضات مخيفة ، واذا كانت كل التخيلات السياسية قد أجمعت على أن حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، كانت هى البوتقة التى انصهرت فيها الوطنية المصرية متمثلة فى ضباط يوليو ... فإنى أقول ان مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ، من أقصاها الى أقصاها ، ومافعله جنود الاحتلال بها وبنا ، كانت هى التربة الخصبة التى زرعت فيها نطفة الثورة الأولى !

غير اننا - الفرسان الثلاثة وأنا - اندماجاً منا فى الأدب والشخصيات

To: www.al-mostafa.com

والتحليلات ، قد توقفنا طويلا ذات اجتماع كان فى بيت حسن الحداد فى رأس التين ، أمام شخصية " زيطة " صانع العاهات !

من أين جاء به نجيب محفوظ ؟!

من الواقع المصرى ، أم انه استوحاها من شخصية اليهودى فى رواية "اوليفر تويست" للكاتب البريطانى الشهير تشارلز ديكنز ؟!

ذلك ان الشخصيتين تبدوان متشابهتين الى حد يدعو الى العجب حقاً !

لقد كان اليهودى فى أوليفر تويست يشوه النفس والبناء الانسانى فى شخصيات الأطفال حتى يجدوا لقمة العيش ... بينما كان زيطه فى زقاق المدق ، يشوه أجساد الرجال حتى يجد أصحاب الاجساد السليمة الخلاص من الجوع فى تدمير أعضائهم السليمة !!

ولقد يصبح من السهل أن أعود الى زقاق المدق ، وهى أمامى وفى متناول يدى ، كى انقل ذلك الحوار العبقرى بين زيطة وبعضا من مريديه الذين لجأوا اليه لتشويه أجسادهم حتى تصلح للتسول ... فاذا من بينهم رجل ضخم الجثة غليظ العضلات ، فكيف يصبح هذا العملاق متسولاً ؟!

ودون العودة الى الأصل ، وباللجوء الى الذاكرة المكدودة لكثرة ماحملت وماتحمل ، قال العملاق انها نقمة من الله أن صباه يمثل هذا البنيان الذى لايصلح لأكل العيش ... مصيبته فى الدنيا أنه لايجد عملاً ، وان وجدفهو لايصلح له ، لأنه قادر - دون ذنب منه - على إفساد أى عمل يسند إليه ، فلم يجد أمامه من سبيل سوى التسول !! ... فإذا زيطة يقول مامعناه ، إن لكل عقدة حلال ، وانه إذا ما فقأ له عينا ، فلسوف يصبح متسولاً نموذجيا!!!

بارك الله فيك يازيطة !!!

بل بارك الله فى صانعك ...

من انت ؟!

كيف اكتشفك أبونا واستاذنا الذى أمتعنا وحيرنا ... ومن أين جاء بك؟!

وإذا كانت بداية ونهاية هي كلمة السر التي فتحت مغاليق نفسي الخفية، فإن زقاق المدق كانت اكتشافا يستحق من أجله أن أغير مجرى حياتي !!

....

....

كنت في تلك الأيام قد تجاوزت العشرين بعام أو بعض العام ، وكان لنجيب محفوظ تأثيرقوى على نظرتي للأدب ووظيفته ... ولقد أحسست، لفرط حبى لأعماله التى كثيراً ما كنت أعود اليها ، وكأني كوكب صغير أدور في فلكه ، ولطالما شعرت وأنا أعود الي زقاق المدق ، وكأني أدلف الي متحف فذ للنماذج الانسانية ... غير أن بداية ونهاية ظلت ، وحتى اليوم ، هي روايتي المفضلة ... فالبناء فيها بلغ شأوا عاليا من الدقة والاحكام حتى خيل الي ، في بعض الأحيان ، أني أعيش مع عائلة المرحوم كامل افندى علي !

وثمة ملاحظة تبعث على الدهشة ، ظلت تحيرني حتى اليوم ، فبالرغم من هذا التأثير والتأثر ، فأنا-أبداً- في تلك المرحلة ، لم أحاول أن اكتب الرواية ، بل اني لم أفكر ، ولسنوات بعد ذلك ، في الاقدام على هذه الخطوة رغم خصوبة الواقع من حولي ، خصوبة لم أذق حلاوتها منذ غادرتها وحتى يومنا هذا !

ولقد ظللت على وفائي للقصة القصيرة ، كان هذا الشكل الفني يتسلل الى مداري النفسي فأجوّد فيه وأغير وأبدل ... عشرات القصص التي كانت تدور ، في أغلبها الأعم، في ذلك المحيط الذي كنت أعيش فيه ، في البحر ... وكنت، اذا ماطلب مني أحد الزملاء في السفينة أن أقرأ له شيئا من هذا الذي كنت أنكب عليه أحيانا بالساعات ، أقرأ له قصة ، فاذا السؤال الذي لم يتغير من واحد الى الآخر هو : " نقلت الكلام ده من أي كتاب!"... أما الدريني والحداد ، فلقد كانت لقاءاتنا المتفرقه تحتدم بالمناقشات المثيرة حول ماكتبه أحدنا ، لكنها كانت مناقشات ممتعه حقاً ، ومثمرة أيضا .

وهكذا رحت أنتظر أعمال نجيب محفوظ الجديدة ... شهر وراء شهر ، عام وراء عام ، وكلما سألت صاحب المكتبة التي كنت أتعامل معها ، لا أجد سوى جوابا واحداً : " مفيش جديد ! " ... حتى اذا مرت سنوات ، بدا لي الأمر وكان الرجل - بعد بداية ونهاية - قد ركن الى الصمت !! .

□ □ □

مرت خمس سنوات كاملة جرت فيها مياه كثيرة من تحت الجسور ... اندلعت ثورة يوليو وخاضت مصر صراعاً عنيفاً قبل أن ترسو أمورها الى مرفأ مأمون ، ولقد توقف لقاء الاثنين بعد عام وبعض العام ، فما توقفت عن القراءة والكتابة ... اختفى علاء وتزوج الدريني وغاص الحداد في أمواج الاوقيانوس - على حد تعبيره !! - وراح يجوب بحار كوكب الأرض ومحيطاته شرقاً وغرباً ... كنا نلتقي على فترات متباعدة ، وقد يقرأ أحدنا

للآخرين ما كتب ، وقد نناقش كتابا صدر حديثا ثم يذهب كل منا الى حال سبيله !

وبينما كانت القاهرة في تلك السنوات تغلي وتضطرم بالاحداث السياسية والأدبية أيضا ، كانت الاسكندرية ، كعهدها ، هادئة هدوءاً يبعث على الملل ... غير ان مللي دائما ماكان يتبدد اذا مارتدت تلك العوالم الخصبة والزاخرة للصيادين والبحارة ... كنت كصانع التماثيل يبحث عن خامة ينحت منها نماذجه ، ولطالما جلست في حواري الأنفوشي ورأس التين وباب الكراسته وباب سته – بابان من أبواب ميناء الاسكندرية – وأرصفه الميناء وشارع السبع بنات الذى كان ذات يوم ذا شأن وصيت !

حتى اذا ما كان يوم كان لى نصيب التعرف على رجل من أصحاب الفلايك في باب سته ... كان رجلا ربعاً مهيبا متفرداً في كل شئ ، لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ، لكنه كان ذا فلسفة تقول بأن من لا يعيش حياته لايستحقها !!

تعرفت على الريس " حديدى " فعرفت من خلاله الكثير عن الشاطئ والميناء ، وكثيراً ماكنت أركب معه فلوكته الكبيرة التى كانت تحمل اسم "كايداهم" ، كي يبلط – يروح ويجئ – بى في الميناء مشرقاً تارة مغربا تارة أخرى ، يعالج حبال الشراع وذراع الدفة بيدية وقدمية معاً ، يشق عباب المياة بقاربه في سلاسة راقص باليه ... يحكى لى عن الميناء ورجالها وأساطيرها حكايات قد تمتد بنا الى مطلع النهار ... ولقد دعانى الحديدى ذات مساء الى الزقاق الذى كان يقطنه في قلب حى الانفوشي القديم ، فكأني غصت في الماضي الى عمق قرن أو قرنين من الزمان ...

وعندما جلست ذات مساء لاكتب قصة ، كان زقاق الحديدي هو الآمر المسيطر على الفكرة والحديث معاً ، واذا العنوان يفرض نفسه فرضاً علي، فجاء :

" زقاق السيد البلطي ! "

كانت هذه قصة قصيرة طالت بعض الشئ ... ما أن امسكت بالقلم ، حتى كان نجيب محفوظ يطل عليّ ، بل ربما كان يسكن رأسي في كل لحظة وفي كل كلمة في هذه القصة التي انتهيت منها بعد بضعة أيام ... وكان نصيبها كنصيب أخوات لها تعدى عددهن المائة ... لم يكن النشر هدفا من أهدافي ، بقدر ما كانت الكتابة رغبة تحولت مع الأيام - مثل القراءة - الى نوع من الادمان .

ولقد قدر لهذه القصة القصيرة ان تتحول فيما بعد الى رواية حملت نفس الاسم ... غير ان الذى دفعني الى كتابتها كرواية، لم يكن نجيب محفوظ ، بل كان أديباً آخر ، كان لي شرف التعرف عليه بعد ذلك بأعوام قبل أن اترك عملي في البحر بعام واحد فقط !

ولكن هذا حديث آخر !

□ □ □

ظل نجيب محفوظ صامتاً، لا أحد يعرف عنه شيئا ... وكانت الحركة الأدبية في القاهرة تفور وتمور بالأحداث والوجوه الجديدة ، وثمة جيل جديد كان يزحف بقصصه ومقالاته النقدية الى صفحات المجلات والصحف اليومية... ووسط كل هؤلاء كان هناك يوسف السباعي واحسان عبد القدوس يملآن الساحة بالحياة والجدل ... وسرعان ماطرحت فكرة إنشاء

" نادي القصة " كي يجمع كل الادباء من جميع الاتجاهات الأدبية والفنيه والسياسية أيضا في بوتقة واحدة ... وانفجرت في الساحة معارك ملأت أعمدة الصحف والمجلات ... فثمة فريق كان يتزعمه استاذنا الراحل توفيق الحكيم ينادي بأن " الفن للفن " ... وفريق آخر كان أبرز نجومه شابين يساريين ثائرين وممتلئين بالحماس والأفكار الجديدة ، رفعا رايه " الفن للحياة "، هما دكتور عبد العظيم انيس والاستاذ محمود أمين العالم.. ولقد أدلى بدلوه في المعركة دكتور طه حسين والاستاذ عباس محمود العقاد ... وقبل اندلاع الثورة بشهر واحد، أصدر نادي القصة - عن دار روز اليوسف - سلسلة الكتاب الذهبي - يونيو ١٩٥٢ - ورأس تحرير الكتاب يوسف السباعى ... وكان طبيعيا ان يصدر العدد الأول من هذه السلسة الثمينة التى قدمت للعالم العربي عشرات الروايات ومجموعات القصص ، برواية احسان عبد القدوس الأولى " النظارة السوداء"... غير أن العدد الثاني لم يصدر برواية ليوسف السباعى كما كان منتظراً ، بل كانت المفاجأة، انهما قدما روايه "خان الخليلى" لنجيب محفوظ!

كان هذا في أول يوليو ١٩٥٢ ، اى قبل الثورة بثلاث أسابيع ... غير ان المفاجأة توجت بما كتبه يوسف السباعى في عموده الذى كان يحمل عنوان " حديث الشهر " ، والذي كان ينشر على الغلاف الداخلى للكتاب ، مقدماً نجيب محفوظ للقراء ، قائلا عنه : " ... ... لم يتعود النشر في الصحف الدائمة ، ولم يُطبع من كتبه اكثر من الف

أو الفنين ، فهو والحال كذلك ، قد قصر أدبه على الادباء ، أو خاصة القراء!! "

□ □ □

كانت الحياة الأدبية في القاهرة تبدو وكأنها مغناطيس يجذبني اليه بقوة أصبحت مع الأيام لاتقاوم ... كنت أعيش في الاسكندرية بلا حياة ، بينما حياتي الحقيقية كانت هناك ، على صفحات المجلات والكتب والقصة والرواية ... وكان طبيعيا ان يستقر رأيي على أن أترك العمل في البحر ... كنت قد التحقت بكلية الآداب قسم الفلسفة وعلم النفس في جامعة الاسكندرية ، فازداد انفصالي عن حياتي المعاشة ... حتى اذا ما شارف عام ١٩٥٥ على الانتهاء - كان هذا بالتحديد في يوم ٢٠ ديسمبر - كنت أودع حياتي في البحر الى غير رجعه !!

٤

عندما هبطت القاهرة لم أكن أدرى ما أنا فاعل بالضبط... كنت ـ طوال شهور مضت قبل أن أنهى عملى بالبحر ـ أخوض معركة مع الأهل والأصدقاء جميعا، ولقد كانوا يتساءلون ـ والحق معهم ـ ماذا أنا فاعل بعد البحر؟!

الحقيقه أنى لم أكن أعرف ما الذى سوف أفعله ... كل ما كان رأيى قد استقر عليه... أنى لا أصلح لمثل هذا العمل، فمع السنوات اكتشفت أنى كنت أرقب الحياة من حولى وكأنى أشاهد فيلما أو مسرحية، كنت «أتفرج» على البحر لكنى ـ أبداً ـ لم أكن جزءاً منه!

كان فى الأمر مخاطرة، وكانت فيه مغامرة... غير أنى كنت محظوظاً إلى حد بعيد... ذلك أنى تعرفت ـ قبل عام واحد ـ على أديب شاب صدر له كتابه الأول فى سلسلة الكتاب الذهبى التى كنت أقتنى أعدادها جميعا، والتى أحتفظ بها حتى اليوم... كان عنوان الكتاب الذى أثار لغطا فى الأوساط الأدبية هو: «أرخص ليالى»... ولقد بدأت علاقتى بالراحل "يوسف إدريس" بخناقة بريدية، لكنها انتهت بصداقة حميمة!

كان أمراً طبيعيا وقد نزلت إلى القاهرة، أن أزور معلمين من معالم الأدب فى مصر... كانت ندوة نجيب محفوظ تعقد صباح كل يوم جمعة فى كازينو

أوبرا، وبطبيعة الحال كانت أنباء الندوة تصل إلينا فى الأسكندرية فكأنها حلم من الأحلام... غير أن ذهابي إلى الندوة تأجل طويلا، ذلك أنى لم أكن أعرف أحداً من الذين يترددون عليها، ولم أرد أن أكون متطفلا على مكان قد لا يرحب بى صاحبه الذى لا يعرفني حتى ولو كنت من مريديه وعشاق أدبه!

أما المكان الثاني، فهو «روز اليوسف»!!

كانت روز اليوسف ـ فى تلك الأيام ـ مثل خلية نحل تشغي بالحركة ليل نهار...اجتذب شباب إحسان عبد القدوس وحيويته عدداً من شباب الفنانين والأدباء، جعلوا من تلك الدار القديمة، التى كانت قائمة فى شارع محمد سعيد، شيئا قريبا من سوق عكاظ تتعانق فيها الأفكار وتتصارع المبادئ فى رحابة صدر نادرة...ولذلك فعندما ضرب لي دكتور يوسف إدريس موعداً في روز اليوسف، كانت فرحتي طاغية، وظللت أعد الساعات والدقائق حتى جاء الموعد...فدلفت إلى الدار على جناح من أحلام وردية، غير أنى عندما سألت عن دكتور يوسف لم أجده...لم يكن قد وصل بعد!

وقعت في الحيرة...وقفت وسط ذلك الدهليز الممتد من الباب وحتى عمق الدار، حيث المكاتب متراصة على الجانبين...كانت الدار عتيقة، وكذلك كان الأثاث، فإذا أنت تقف في مكان يحمل كل شئ فيه، ذكرى لمعركة أدبية أو صحفية أو فنية أو سياسية...كان الوقت ظهراً، وقد بدأ المحررون يفدون إلى الدار ...وجدت نفسي غريبا فى مكان كل من فيه يمثلون عائلة واحدة، فالكل يتحدث مع الكل، والكل يداعب الكل...حتى السعاة وجرسونات البوفيه، بدوا لى وكأنهم جزء من تلك العائلة الحميمة...وعندما لم أجد يوسف إدريس، هممت بالانصراف، غير أنى ما كدت أتحرك من

مكانى حتى جاءنى صوت هادئ يسألنى عما أريد...التفت فإذا خلف أحد هذه المكاتب ـ فى منتصف الدهليز الممتد ـ شاب ضخم الجثة، هادئ الصوت، ذا ملامح تنبئ عن طيبة خالصة...وكان أن تعرفنا فعرفت فيه ذلك الصحفى الذى عاش ومات فى صمت، عرفت فيه الصديق الراحل سامى الليثى.

عندما علم سامى أنى على موعد مع يوسف إدريس ،أشار إلى مقعد بجواره،وطلب منى انتظاره...ذلك أن يوسف ـ على حد قوله ـ مواعيده وحشة!!

كان الرجل منكبا على عمل يؤديه، لذلك، فلقد استأذن منى لدقائق بعد أن طلب لى كوبا من الشاى... رحت أرقب الحياة وهى تدب تدريجيا فى المكان...كان الفنان الراحل صلاح جاهين هو أول من وصل، رحت أرقبه فى سمنته ووجهه الطيب ومشيته المتمايلة وأنا أتذكر أول دواوينه «كلمة سلام» الذى كان قد صدر من شهور قليلة...ماهى إلا دقائق حتى وصل جمال كامل، ومن بعده صلاح عبد الصبور، وفتحى غانم، وحسن فؤاد، ومحمودأمين العالم وجورج البهجورى...و... ولقد كان لكل واحد من هؤلاء صورة أحتفظ بها فى خيالى، ومازالت هذه الصورة كامنة فى وجدانى رغم مرور السنين ورغم صداقتى لبعضهم ومعرفتى للبعض الآخر و زمالتى لهم جميعا غير أن المفاجأة الحقيقية جاءت، لحظة أن رأيت أستاذنا الراحل إحسان عبد القدوس وهو يخطو بين المكاتب بخطوته تلك الوئيدة...كان يلقى التحية هنا أو هناك، يتوقف عند مكتب ويتحدث مع الجالس إليه فكان صوته الهادئ وتلك اللثغة فى مخارج كلماته يسريان إلىّ كى يحددا ملامح هذا الشاب الذى أقام الدنيا وأقعدها بمقالاته

السياسية الملتهبة، روايته الأولى ـ النظارة السوداء ـ التي التهمها القراء وأثارت النقاد وصنعت جدلاً كان يشتد ويتعاظم كلما كتب قصة جديدة أو رواية أخرى..كانت شخصيته المهذبة، وهدوئه الشديد، لا يشيان أبدا بهذا الثائر الذى كان قد فجر فى الأعوام التى مضت، الكثير من القضايا..كان صاحب النظارة السوداء،يقف الآن أمامى،فإذا أنا مأخوذ مسحور!

في تلك اللحظات،أحسست أني في متحف من تلك المتاحف التى كنت أرتادها في موانئ أوربا أو مدنها، مع فارق واحد،أن تلك المتاحف كانت تعرض تاريخاً جامداً أصماً...بينما هذا المتحف كان يتفجر بالحياة،يعيد إليك الماضي القريب،ويشير بشخوصه إلى المستقبل المرتقب!

أنهى سامى الليثى ما فى يده من عمل وراح يجاذبنى أطراف الحديث، حتى إذا ما علم أني كنت بحاراً وأني أهوى الأدب وأكتب القصة حتى سألنى :

«تحب تشتغل في مجلة ثقافية؟!»

بدا لى الأمر وكأنه حلم..لم أكن أعرف الرجل ولم يكن يعرفنى فوق أني لم أطلب منه شيئا...كنت أشعر بحرج شديد..وإذا به،وقد لاحظ استجابتي، يضرب لى موعداً في صبيحة اليوم التالى للقاء الصاغ ـ رائد ـ أحمد حمروش فى إدارة التعبئة، والذى كان بصدد إصدار مجلة ثقافية جديدة تحمل اسم «الهدف»!

* * *

الذي لا شك فيه أن الحظ كان حليفي في خطواتي الأولى...

فالحظ هو الذي دفع يوسف إدريس إلى أن يخلف موعده معي كي ألتقي بسامى الليثى!

والحظ هو الذى دفع سامى لأن يصحبنى إلى هذا الشاب ـ أحمد حمروش ـ الذى كان يكتب مقالاته بينما سماعة التليفون على أذنه... ذلك أن السيدة زوجته، كانت تفتح الراديو ـ على الطرف الآخر ـ كى يستمع إلى الموسيقى الخفيفة وهو يكتب.. واحد هو من الضابط الأحرار، مثقف رأس تحرير أول مجلة أصدرتها الثورة وهى مجلة التحرير، اختلف مع القيادة فلم يكف عن الابتسام ، يعشق الفن ويرى فيه أسمى تعبير عن الانسان.

وحتى لقائى مع نجيب محفوظ، كان مجرد ضربة حظ أعفتنى من التردد ، ودعتنى إلى ندوته كى أقترب منه فأسعد بهذا القرب الذى دام لسنوات لم انقطع فيها عن الندوة أسبوعا!

كان لقائى بالأخ الكبير أحمد حمروش غريباً، فما أن قدمنى إليه سامى الليثى، حتى عهد إلى بعمل بسيط اتفقنا أن انجزه وأقدمه له فى اليوم التالى... وفى صباح اليوم التالى قرأ ما كتبته، وإذا به ينظر لى باسماً، ويرفع سماعة التليفون كى يتحدث إلى يوسف إدريس، لا إلى سامى الليثى ـ !! ـ قائلا:

«إيه الجدع اللى أنت باعتهولى ده؟!»

ولابد أن يوسف سأله قائلا:

«ماله؟!»

وإذا حمروش يقول :

«ده لقطة!»

هكذا، وببساطة آسره، أصبحت سكرتير تحرير مجلة الهدف، والمحرر الوحيد فيها!

كنت قد التقيت فى مساء اليوم السابق مصادفة مع يوسف إدريس فى

أحد محلات وسط المدينة، وفيما بين عتابي له واعتذاره عن التخلف لعمل طاريء، قصصت عليه ما حدث في الصباح. ولابد أنه - وكان صديقا لحمروش - تحدث اليه بشأني، وهكذا اختلط الأمر على الرجل ونسي أن الذي قدمني إليه بل جاء بي اليه هو سامي الليثي!

ولأني كنت أجهل كل شيء عن العمل في الصحف، فلقد آلي حمروش على نفسه أن يعلمني ألف باء الصحافة... وهكذا وجدت نفسي بعد مرور ثلاثة أسابيع فقط من وصولي إلى القاهرة - أخوض التجربة بكل عنفوانها، وهي تجربة بقدر ما كان فيهامن مشقة كانت تحمل إلى في كل يوم جديداً أتعلمه... قبما بين المطبعة الكائنة في شارع الصحافة، وبين ما كان حمروش يكلفني به... كان اليوم ينقضي وكأنه ومضة !

لم يكن باقيا على صدور العدد الأول سوي شهر واحد، وكان على أن أحرر بابا عن المجتمع الثقافي والأدبي، وأن أراجع المقالات التى كان يكتبها كبار مثقفي مصر... وأذا بي أدخل جامعة أخرى إلى جوار جامعة الأسكندرية التى كنت منتسبا إليها، إذا بي أقرأ للدكتور حسين فوزى، والأستاذ رشدي صالح، ودكتور عبد الرازق حسن، وعبد المنعم الصاوى، ودكتور محمدمندور، ومحمود أمين العالمبم...يم...وإذا المقالات، والموضوعات تتناول شتي مجالات العلم والمعرفة... حتي إذا كان يوم طلب مني الأستاذ حمروش أن أكتب قصة حياة «اوبنها يمر».

كنت أعرف أن أوبنهايمر هو أول من صنع قنبلة ذرية، لكنى لم أكن أعرف عن حياته وتجربته شيئا... ولقد نظرت إلى حمروش في حيرة، فإذا به يبتسم قائلا:

«مالك؟!»

«طب ازاى؟»

هكذا سألت فأجاب مبتسما:

«ماتسألنيش. . .روح دور وابحث وهات لي الموضوع في خلال أسبوع!»

وهكذا ألقى بي في لجة كان على أن أتعلم كيف أسبح فيها وحدي. . .وهكذا وبنفس الأسلوب، كتبت قصة حياة العالم المصري الرائع دكتور علي مشرفة. وكان مصدري الرئيسي فيها، غير تلاميذه، شقيقه العالم المصري الفذ دكتور مصطفى مشرفة. . .كماكتبت قصة حياة دكتورة سميرة موسى، وقصة حياة ماري كوري وايرين كوري و. . . . و . . .تلك كانت أيام، إذا ماالتفت إلى الوراء متذكراً إياها، أحسست بالحياة تدب في أوصالي متقدة!

ذات يوم سألني أحمد حمروش:

«تعرف مصلحة الفنون؟!»

«طبعاً!»

«اطلب ميعاد من يحيى حقي وهات لنا منه حديث!»

اضطربت!

يحيى حقي مرة واحدة؟!

قنديل أم هاشم بجلالة قدره؟!

ذلك الصائغ للكلمات كالجواهر النفيسة في بساطة ممتنعة؟!

لاحظ حمروش ترددي، فأخرج نوتة تليفوناته وأعطاني رقم تليفونه المباشر!

....

....

هناك نوع من الناس يحمل لهم الإنسان قدراً من الاحترام، يجعل من

الصعب عليه مجرد اللقاء به والجلوس إليه، فما بالك بمحاورته؟!... كنت قد قرأت «قنديل أم هاشم» في طبعتها التي صدرت في سلسلة «اقرأ»... لذلك شعرت، وأنا أدير قرص الهاتف، باضطراب حقيقي، غير أن المفاجأة جاءتني غير متوقعة، فلقد حدد لي الرجل - ببساطة مذهلة - موعداً ظهر اليوم التالي!

كانت مصلحة الفنون هي النواة الأولى لوزارة الثقافة، وكانت المشروعات التي أصبحت الآن من معالم حياتنا الثقافية، لاتزال جنينا في الأذهان، وحلما يراود نخبة من مثقفينا بذلوا جهدا مضنيا من أجل هذا الوطن... كان الناس يتساءلون عما يمكن أن تفعله مصلحة الفنون هذه، كان الأمر جديداً وغامضاً في نفس الوقت كما كان العمل بالنسبه لي هو الآخر جديدا يحتاج مني إلى جهد ومثابرة وصبر... ولقد انقضى الليل وأنا أفكر، وإذا كان لقائي بيحيي حقي في حد ذات يعتبر حدثا بالنسبة لي، فلا بد أن تكون الأسئلة في مستوى ثقافته ومكانته على رأس هذه المصلحة الوليدة... رحت أعتصر ذهني اعتصاراً، استحضر كل ما قرأته عن مصلحة الفنون، واستعيد بعضا من حوارات سمعتها هنا وهناك... حتى إذا أطل النهار، اكتشفت أن السبب الحقيقي في ذلك التوتر الذي أطار النوم من عيني، هو اللقاء نفسه، هو يحيي حقي... ترى كيف هو، كيف سيستقبلني؟!

كان لقائي ببعض الأدباء والفنانين خلال الشهور التي انقضت، قد تركت في نفسي آثاراً بعضها جميل، وبعضا منها ترك في نفس بصمات غير مستحبة... فمع أي الفريقين سيكون هذا الأستاذ؟!

كان موعدي معه في الثانية عشرة ظهراً، وكان لابد من ذهابي إلى المجلة أولاً كي أنهي بعض الأعمال... ما أن رآني الأستاذ حمروش حتى

سألني إن كنت قد جهزت الأسئلة...وما أن قدمت له الورقة التي وضعت فيها أسئلتي، وما أن قرأها حتى رفع إلي عينين دهشتين متسائلا:

« مين حط لك الأسئلة دي؟! »

عندما كان زملاء البحر يسألونني،إذا ما قرأت لأحدهم قصة:«نقلتها من أي كتاب ؟! »، كنت أسعد للسؤال واعتبره إطراء. أما الآن، فلقد أحسست بالإهانة جارحة، لزمت الصمت، ولقد وصلت الرسالة إلى الرجل الذي سارع نقدم لي سيجارة وهو يقول في حنان:

«بس أنت فاتتك شوية حاجات!»

قال هذا ثم راح يطرح علي تساؤلات من كان يعرف الكثير،ومن كان يريد أن يدلي للناس بالكثير أيضا...

قبل أن أنصرف قال حمروش ضاحكا:

«على فكرة. الأسئلة اللي أنت حطتها كويسة قوي!»

ومضيت إلى موعدي!

□ □ □

عاد إليّ التوتر من جديد...توتر كان يزداد كلما اقتربت من مبنى مصلحة الفنون الكائن عند تقاطع شارعي عدلي وشريف...ما أن دلفت إلى مكتب السكرتير،حتى كان عقربا الساعة يتعانقان...وجدت أمامي شابا متجهما رفع إليّ عينيه في تأفف، ألقيت عليه التحية فردها ملقيا بالرد من بين شفتيه كأنه يتفضل به علي...ما أن علم بموعدي مع الاستاذ يحيى حقي،حتى أومأ نحو مقعد جلست عليه!

كان السؤال الذي طرح نفسه علي هو: إذا كان السكرتير يتعامل معي بمثل هذا الجفاء،فكيف سيكون الأمر مع صاحب الأمر؟!

وجدت نفسي متحفزاً، راغبا عن اللقاء برمته، فكرت في الانصراف، لولا أن وصل أحد الموظفين، فتح الرجل الباب المؤدي إلى مكتب الأستاذ يحيى ودلف إلى الداخل... ما هي إلا ثوان حتى غادر المكتب من جديد... لكنه وقبل أن يغلق الباب سمعت من الداخل صوتا ينادي السكرتير، فإذا بالشاب المتجهم ينتفض مهرولاً، ما إن وقف عند الباب المفتوح حتى سمعت صوت الأستاذ يحيى حقي يقول:

«فيه واحد اسمه الاستاذ صالح مرسي عنده ميعاد معايا دلوقت، لما يوصل دخله على طول!»

«موجود يا فندم!»

«خليه يتفضل!»

أفسح لي الشاب الطريق في أدب أذهلني... خطوت إلى الداخل فوق أرض من سحاب، طالعني وجه يحيى حقي بقامته القصيرة، وقد نهض الرجل فور دخولي مرحباً، فاندفعت نحوه لأصافحه في حرارة وامتنان!

كان استقبال يحيى حقي لي درساً تعلمته ووعيته جيداً، ومازال هذا الدرس البليغ نبراساً لي حتى اليوم، رحب بي الرجل ترحيباً حاراً وكأنه يعرفني منذ سنوات، وكأننا... كأننا صديقان حميمان... طلب مني الجلوس بعد أن أمر لي بفنجان من الشاي، كان وجه الطفل فيه ينضح بطيبة آسرة وحنان نابع من القلب... ما كدت التقط أنفاسي وأنا أجهز أوراقي حتى قال:

«الأستاذ حمروش قال لي أنك كاتب قصة!»

زلزلت تماماً!

حملقت فيه غير مصدق!

قلت متلعثما إني ـ حتى الآن ـ مازلت أحاول، فإذا به يهتف:

«أنا بابقى سعيد قوى لما أقابل حد من شباب الأدباء!»

قلت لنفسي إنها مجاملة مشكورة، لكنه أردف وهو يميل نحوى:

«البلد محتاجة لدم جديد، مش في السياسة بس، لكن في الأدب والفن والعلم كمان!»

ولم أجد ما أرد به على الرجل الذى كان يمهد الطريق لذلك الحديث الذى ظللت أجهز له الأسئلة طوال الليل... راح يحدثني، دون سؤال، عن الدور الذى ستلعبه مصلحة الفنون... حتى إذا ما أنتهي من حديثه، أشعل سيجارة وابتسم قائلا :

«هات ما عندك!!»

قبل أن أفتح فمي دق الباب، هتف:

«ادخل !»

فتح الباب... وإذا المفاجأة فوق التصور، إذا القادم، هو حبيبي ودليلي، هو نجيب محفوظ !

٥

تلك كانت لحظات من الصعب أن تنسى...هكذا وجدت نفسي أمام هذا النجم الذي كنت ـ كأديب ـ أدور في فلكه دون أن يدري...ولقد مرت شهور بعد ذلك،بل سنوات،كان باستطاعتي فيها أن أقترب منه غير أني أبيت...فضلت أديبي ونجمي العائش في ذاتي بعيدا عن واقع يلتف فيه من حوله،كواكب تدور في فلكه،وشهب تحترق بعد حين...تعلقت عيناي به وهو يغلق الباب ثم يخطو نحو المكتب، وكان يحمل في يمناه بعضا من الأوراق...ألقى الرجل بالتحية ثم أردف ببعض كلمات عن عمل كان يريد إنجازه...قال ما قال وهو يقف إلى جوار المكتب، فإذا يحيى حقي يهتف به:

«ما تقعد يا نجيب!»

غير أن نجيب أبى الجلوس، قال إنه لن يأخذ من وقت الرجل كثيراً، وأن... ...

قاطعه يحيى حقي:

«وبعدين يا نجيب...اقعد من فضلك!»

لم يكن أدب الرجل متدنيا،ولم يكن مصطنعا، وإنما كان أدب من يعرف قدر نفسه ويضع بينها وبين الآخرين، مهما كانوا، مسافات لا يسمح لهم بتقصيرها...وعلى كل فلقد ابتسم يومها وهو يتجه نحوي قائلا إنه لا يريد

أن يعطل «يحيى بك» عما كان بصدده، فقال هذا ضاحكا:

«اقعد اقعد...ما هو من نفس القبيلة!»

داهمنى الزهو وطوقتنى السعادة، التفت الأستاذ نحوى وقد علت وجهه ابتسامة مجاملة، كانت عيناى متعلقتان بوجهه، انتفضت ناهضا، وجاءنى صوت يحيى حقى يقول:

«الأستاذ صالح مرسى كان بحار وساب البحر علشان الأدب!»

تحولت الابتسامة واتسعت وأشرقت، مد لى يده مصافحاً وهو يقول:

«نورت الأدب!»

كانت قفشة ضحك لها ثلاثتنا، رحت أصافح نجيب محفوظ وأنا أنتفض بالسعادة...ولست أدرى حتى اليوم من الذى أخبر الأستاذ يحيى حقى بأمرى...وعلى كل ففى تلك اللحظات لم يكن يعنينى شئ سوى أنى أقف أمام نجيب محفوظ وفى حضرة يحيى حقى...ضربة حظ أخرى دفعت الدماء فى عروقى مزغردة...ظللت بعد مصافحته واقفاً، فإذا هو يشير نحو المقعد هاتفاً:

«اتفضل...اتفضل!»

قلت:

«مش لما تتفضل سيادتك الأول!»

أطلق نجيب محفوظ ضحكته تلك الصافيه كمياه غدير وهو يتقدم من المقعد المقابل كى يجلس عليه...بدا الرجلان وكأنهما نسيا ما كان بينهما من عمل، راح نجيب يسألنى عن قصصى، اهتم اهتماما شديداً أنى أكتب قصصا عن البحر، قال إن هذا المجال بالنسبة للقصة العربية مازال بكراً لم يطأ أرضه قلما من قبلى. قلت له إنى بالفعل كتبت رواية تدور فى مجتمع

الصيادين أعطيتها اسم "زقاق السيد البلطي" تيمنا بزقاق المدق... علت وجهه السعادة، عدت أقول:

«كنت عاوز أستأذن حضرتك في حاجة!»

«اتفضل!»

«ممكن تسمح لي أحضر ندوة الجمعة؟!»

هتف مستنكراً:

«الندوة ملهاش باب!»

لست أدري ما الذي دار بعد ذلك من حديث... غير أن الذي أذكره جيدا أن الأستاذ أنهى ما كان قد جاء من أجله، ثم نهض منصرفاً، لكنه، وهو في طريقة إلي الباب توقف ملتفتا نحوي وقال:

«أنت اللي كتبت قصة «أم» اللي نشرت في روزا من كام أسبوع ؟!»

ضاعت أنفاسي، كنت قد نشرت، قبل بضعة أسابيع، قصة بعنوان «أم» في روزاليوسف. وعندما أجبته بالإيجاب وأنا لا أكاد أصدق أذني التفت نحو الأستاذ يحيى حقي قائلا:

«لازم تقرا القصه دي يا يحيى بك، لازم!»

قالها ومضى!!

....

....

عندما يتذكر الإنسان دقائق كتلك التي عشتها فيما بين عملاقين مثل يحيى حقي ونجيب محفوظ وأنا مازلت أحبو على أول الطريق سائراً تارة متعثرا تارة أخرى، عندما يقارن المرء بين اهتمام كل منهما، واهتمام الآخرين، يشعر بالامتنان غامراً... ذلك أن الفنان في خطواته الأولى،

يشعر،إذا ماكان رومانسى الإحساس مثلى، أنه يخطو إلى عالم قدسى...إن اهتمام الآخرين به حتى ولو كان إنتاجه متوسط الجودة،لاشك سوف يعطيه دفعات ودفقات من حماس...ولقد كان لقصة«أم» تلك قصة تكتمل معها صورة هذا الجيل الفذ...صورة تلك الأيام التى كانت مصرفيها مثل مارد أسطورى انفك من أسره،وتحررت ارادته، فراح يعيش بكل ذرة فى تاريخه...!!

رحل الانجليز عن مصر،وأمم عبد الناصر قناة السويس، وأحس الشعب المصرى لأول مرة من زمان طويل، بأنه يملك مقدرات نفسه...كانت هناك خلافات سياسية واختلافات فى المذاهب الفنية، لكن الكل كان يساند الكل، والكل يحتفى بالكل، ودماء الفن الجديد ـ فى المسرح والقصة والشعر ـ تتدفق فى عنفوان غريب...وكنا كجيل نجتمع وكاننا نلتئم...فى تلك الأيام تعرفت على عبد الله الطوخى وصبرى موسى وفاروق منيب وصبرى العسكرى وبدرنشأت وأبو المعاطى أبو النجا...وكان عبد الفتاح رزق قد وصل من الأسكندرية إثر خطاب أرسلته رداً على خطاب له، وقدمنى عبد الفتاح إلى صديق العمر فؤاد دوارة...وفى زيارة لروز اليوسف ـ كانت الزيارة شبه يومية الآن!!ـ تعرفت على القصاص محمد صدقى وكان مسئولاً عن القصة فى صباح الخيرالتى كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد بهاء الدين ـ شفاه الله وعافاه ورده إلى مصر ـ وكان صدقى قد طلب منى قصة لنشرها فى المجلة، فحملتها إليه فى الموعد الذى حددناه...وكالعادة لم أجده...غير أن زيارتى لروزاليوسف الآن لم تعد مشكلة، فلقد كان سوق عكاظ يظل عامراً من الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل...فى ذلك الصباح وجدت سامى الليثى جالساً إلى مكتبه العتيد،وكان طبيعيا أن

أحمل مقعداً كي أجلس جواره، وراح سامي يسألني عن عملي في الهدف، وأخذ يدلي برأيه فيما كنت أكتبه فيها من موضوعات، غير أنه توقف فجأة سائلا:

«ولكن فين القصص يا أستاذ، هي الصحافه حاتنسيك أصلك؟!»

كان عتابه قاسيا، فأجبت مدافعاً وأنا أخرج القصة من جيبي:

«بالعكس، أنا جايب معايا قصة لـ ... ...»

قاطعني:

«طب ماتديها للعالم!»

كان يقصد الأستاذ محمود أمين العالم الذى كان قد وصل إلى الدار قبل دقائق وكان هو المسئول عن القصة في المجلة ... لم أكن قد تعرفت بعد على الأستاذ محمود فقلت:

«بس هو ما يعرفنيش»

«عرفه بنفسك يا أخي!»

وهكذا دفعني سامي بعد قليل من التردد إلى الدخول على العالم.. كان النشر في روز اليوسف في تلك الأيام بمثابة تدشين للأديب واعترافاً بوجوده عضواً في القبيلة الأدبية.. نهضت مرتبكا، كنت الآن أعرف المكان معرفة دقيقة.. متردداً خطوت إلى مكتب الأستاذ محمود... كان الرجل عندما دخلت عليه منكبا على مقال يكتبه وهو يداعب خصلة صغيرة من شعره في مقدمة الرأس، عادة كانت تلازمه إذا ما استغرق في الكتابة أو التفكير.. ما أن أحس بوجودي حتى رفع رأسه نحوي، طالعتني عيناه من خلف منظاره الطبي في دهشة وترحيب.. تبادلت معه التحية وقدمت له القصة فتناولها مبتسما وهو يقول:

«متشكر قوي»

انفلت مغادراً الغرفة... عدت إلى مكانى إلى جوار سامى وأنا أشك فى أن تصلح قصتى للنشر فى روزاليوسف بالذات، كما خامرنى شك أكبر فى أن يقرأها الرجل ... أحسست فى تلك اللحظات وكأنى أسبح فى فضاء بلا وزن... مضت دقائق أحسست بعدها برغبة شديدة فى مغادرة الدار بل فى الفرار من المكان، ولولا أن سامى كان قد طلب لى ـ كعادته ـ كوب الشاى لفعلت... وما هى إلا لحظات حتى وجدت العالم يغادر غرفته إلى الدهليز مندفعاً وهو يقول :

«فين صالح مرسى ده؟!»

هببت واقفا... كان الرجل يحمل قصتى فى يده، وما أن وقعت عيناه على حتى اندفع نحوى ماداً يمناه مصافحاً اياى فى حرارة أذهلتنى، قال :

«قصتك جميلة جداً!!»

وكعادتى فى تلك اللحظات تصبب جسدى بالعرق ولم أجد ما أقوله، التفت العالم نحو سامى سائلا:

«أنت تعرفه يا سامى؟!»

«ده صديقى!»

هكذا قال سامى فأردف العالم:

«ده مشروع قصاص ممتاز!»

ثم تركنا وعاد إلى مكتبه !!

....

....

وأنا حتى اليوم أتساءل:

هل جاء من النقاد بعد هذا الجيل من كان باستطاعته أن يضيف لبنات

مثمرة إلى الأجيال اللاحقة مثلما فعل هؤلاء معنا؟!

الغريب في الأمر أني وجدت القصة في العدد التالي مباشرة منشورة.. وكان الرسم المصاحب لها بريشة أحلى من رسم في روز اليوسف بكل تاريخها، كان بريشة الفنان الراحل جمال كامل!!

□ □ □

قد يبدو الأمر وكأنه استطراد إلى غير ما نحن بصدده... غير أن الذكريات تتداخل، وجوانب الصورة أو خلفيتها لاتقل أهمية عن الصورة نفسها... وبالرغم من الدعوة المفتوحة التي وجهها إليّ الأستاذ نجيب محفوظ، فلقد ترددت طويلا قبل الذهاب إلى الندوة، وكان هذا بعد أسابيع من ذلك اللقاء، الذي أفعمني بالسعادة، ودفعني إلى الانكباب على رواية «زقاق السيد البلطي» كي أكتبها للمرة الثانية!

في ذلك اليوم لم يكن في نيتي الذهاب إلى الندوة، غير أني كنت على موعد مع صديق في أحد محلات وسط المدينة... لم تكن شوارع القاهرة في تلك الأيام تحظى بهذا الزحم من السيارات و الناس والضجيج والتلوث .. كان السير في شوارع وسط المدينة نزهة نمارسها باستمتاع خاصة، إذا ما كان ضمن البرنامج المرور على سور الأزبكية لشراء بعض الكتب وإنفاق بعض القروش!

وإذا كان لقائي الأول مع يحيى حقي ونجيب محفوظ قد حمل إلى ذلك العطر الذي يفوح منه التواضع فيسكر ويعلّم، فلقد كان هناك من كانوا يظنون أنهم قد استقروا على عروش تضعهم فوق الآخرين رغم حداثة عهدهم بالفن ، ولقد علمتني التجربة ـ وقد انقضى عام وبعض العام ـ أن علاقة الإنسان بالفنان تصبح أجدى وأجمل إذا ما اقتصرت على الفن ذاته دون

الولوغ فى علاقات شخصية أو حتى الاقتراب من الفنان أكثرمما ينبغى!!

صعدت الدرج المؤدى إلى تلك القاعة الزجاجية فى الدور العلوى من كازينو أوبرا حيث كانت الندوة تعقد فى الصباح كل يوم جمعة...عندما خطوت إلى الداخل طالعنى ذلك المشهد الذى يجسد الخيال المرتسم فى ذهنى منذ سنوات...ثمة مجموعة من الموائد المتلاصقة، والتى تصنع فى امتدادها مائدة طويلة يجلس على الجانبين منها ذلك الجمع الحاشد من الأدباء والقصاصين والشعراء والمثقفين والمريدين أيضا...عند نهاية المائدة وإلى جوار النافذة ـ المغلقة شتاء والمفتوحة ربيعا وخريفاً!! ـ والتى تطل على ميدان الأوبرا، كان يجلس نجيب محفوظ.

ولأنى كنت قد دلفت إلى القاعة خلف جرسون يحمل صينية مليئة بأكواب الشاى وفناجين القهوة، فإن أحداً لم ينتبه إلىّ، فوق أنى لم أكن معروفا إلا لعدد قليل من الحاضرين...فكرت فى التوجه إلى الأستاذ بالتحية غير أنى خشيت ألايتذكرنى، فلقد كان قد مضى على لقائى به أسابيع تعددت وطالت بعض الشئ، وساعدنى على التوارى أنه كان ـ فى الوقت نفسه ـ منهمكا فى الاستماع إلى متحدث أعطاه كل انتباهه...اخترت مكانا على الطرف الآخر من المائدة وفى نفس الجانب...كنت من مكانى أستطيع أن أشاهد نجيب محفوظ دون أن يرانى إلا إذا مال ملتفتا...كان الجدل بين الجميع محتدماً، كانوا يناقشون رواية صدرت حديثا، لم أتابع الجدل الذى احتدم فيما بين مؤيد ومهاجم...وسط طلقات الكلمات المتناثرة، كان نجيب محفوظ، بين الحين والحين يلقى بسؤال هنا وسؤال هناك...كان واضحاً أشد ما يكون الوضوح أن الرجل قد قرأ الرواية قراءة جعلت من أسئلته فخاخا ينصبها للمتناقش إذا ما اشتط

أحدهم في المديح أو الهجاء... طلبت كوبا من الشاى ورحت أستمع - الآن - إلى الجدل الدائر... شد انتباهى أن ثمة عرفا غير مكتوب يتبعه الجميع، فمع حرارة المناقشة واحتدام الجدل، كان الجميع ملتزمين بحدود لا يتعداها أحد... كنت بطبيعة الحال قد خضت معارك ضارية كانت تمتد أحيانا حتى مطلع النهار... معارك فنية وأدبية كان فارسها المغوار صديقى الأستاذ فؤاد دوارة... كنا نتقاذف الكلمات كالرصاص، وتتناثر الخلافات الفنية والسياسية من حولنا... غير أننا - فى النهاية - كنا نسلك ذلك الطريق «الواحد» تجمعنا محبة من اقتنع حقاً وصدقاً، أن الخلاف في الرأى لا يفسد للود قضية!!

كان الوقت شتاء... وكان نجيب محفوظ يرتدى بدلة رمادية اللون وقميصا - كعادته - بلارباط عنق... رحت أرقبه فيغيب الكلام عن ذهنى... كل ما فيه كان يوحى ببساطة آسرة... وبينما كان أقرانه من أبناء جيله يصولون ويجولون فى عالم الأدب والصحافة كالفرسان، بدا هو قانعا مقتنعا... كل ما يصبو إليه جلسة مثل هذه، القصة والرواية نهرها الدافق المتدفق فى شرايين الحياة ومنها... كان يبدو غير آبه بما حوله، يعطيك هذا الاحساس إحساساً مريراً بمعاناته من كل ما حوله... أسمر الوجه هو - وكأنى كنت أراه لأول مرة - ذو ملامح تنطق بمصرية خالصة وطيبة قلب تسمو إلى مستوى من الأصالة غير قابل للتصديق... غير أنى لاحظت منذ الوهلة الأولى أن للرجل عينين نفاذتين، بدت لى نظراته سريعة لاقطة وكأنها تريد النفاذ إلى ما وراء الوجه أو المظهر... أمامه فنجان قهوة فارغ، وصندوق سجائر مصرية متواضع الثمن!

ذات لحظة لفت نظرى شئ غريب ، نظر الرجل فى ساعته فظننت أنه يريد

أن يبرح ، رفع رأسه نحو الجرسون الذى كان يقف قريبا من باب القاعة، رفع يده إليه فأحسست أنه يطلب الحساب وتأكد لدي أنه سوف يغادرنا فداخلني ضيق من لم يرتو بعد والمياه بين يديه..اختفى الجرسون لكنه عندما عاد كان يحمل إلى الأستاذ فنجانا آخر من القهوة وضعه أمامه..رشف الرجل من الفنجان رشفة بحساب، ثم أشعل سيجارة!!

هكذا عرفت فيما بعد أن الرجل لا يدخن كما ندخن، لا يشعل السيجارة إلا أذا أشار العقرب الكبير في الساعة إلى تمام الستين دقيقة...أحسست يومها أني سعيت إلى الارتواء فإذا بي أزداد عطشاً...أحسست يومها أن هاهنا خلف هذا الوجه يكمن انسان أخذ نفسه بصرامة لم نتعودها مع أنفسنا، ولم نتعودها من الآخرين...أحسست أن في داخل هذا الرجل البسيط رجلاً من نوع نادر!

عندما سأل سائل بجواري عن شئ بعينه مال نجيب محفوظ نحوه مستمعاً..وقعت عيناه عليّ فخشيت ألايذكرني...لكن وجهه أشرق فجأة بابتسامة، قاطع سائله ـ وليس هذا من طبعه ـ هاتفاً بي:

«أهلا...أنت هو !!»

تدفقت الدماء في رأسي سعادة وامتنانا ، نهضت إليه فنهض إلي، صافحني بحرارة من كان يعرفني منذ سنوات...وكنت مدركاً تماماً أن مجرد أعترافه بوجودى مسئولية جسيمة فتساءلت : هل أستطيع أن أحملها ؟!

وكم عذبني هذا السؤال لسنوات امتدت حتى اليوم!

٦

على مدى السنوات التالية، كان حضور ندوة نجيب محفوظ فى كازينو أوبرا واجب لا أتأخر عنه الا لضرورة قاهرة.... لم تكن الندوة اجتماعاً لمجموعة من الأدباء والشعراء والمثقفين للدردشة وأزجاء الوقت... بل كانت دائماً مجالاً لحوار كان يمتد لساعات. تتطاير فيها الآراء وتتفاعل، ذلك ان الندوة كانت تضم أدباء من مدارس الأدب المختلفة، والتى كانت خلافاتها فى تلك الفترة تزداد ازدهاراً... وكان نجيب محفوظ يبدو وكأنه حكم فى مباراة ثقافية، سؤاله يبدو مثل صفارة حكم يعيد بها المناقشة الى مسارها الطبيعى... كنت فى تلك الأيام استمتع حقاً بذلك الأسلوب الذى كان يتبعه، فلقد أدركت مرة بعد مرة، ما كان الاستاذ يعنيه بسؤاله إذا سأل.... سيطر على فكرى ذلك الاحساس بسيادة المنهج السقراطى على أسلوب الرجل، ذلك المنهج الذى أطلقوا عليه اسم «التهكم والتوليد»... كان سؤال نجيب محفوظ دائماً ما يحمل فى طياته نكتة أو طرفة تُضحك أو تبعث على الابتسام، لكنه كان فى نفس الوقت يعيد الأمور الى نصابها اذا ما اشتط الحديث!

كان الانتاج الأدبى فى تلك السنوات وفيراً.... ففى كل شهر كان

عندما دلفت الى القاعة كانت المفاجأة أني وجدته وحده، فنجان قهوته فارغ، وصحف الصباح بين يديه.

لا زلت أذكر هذا اليوم وكأنه الأمس القريب... فعندما وجدت الرجل في تلك القاعة الواسعة وحده، ترددت، أشفقت أن أقطع عليه وحدته وتأملاته... كنت قد خطوت خطوتين أردت بعدها العودة من حيث أتيت، فأذا به يرفع رأسه نحوي، وما إن رآني حتى هتف مرحباً كعادته:

"أهلاً!...

ولابد أنه لحظ ترددي فأردف:

"ما تتفضل يا أستاذ صالح!"

وأنا حتى اليوم لازلت أتساءل: لماذا يصر نجيب محفوظ على أن يقرن اسم محدثه - أيا من كان - بلقب أو آخر... لقد حضرت على سبيل المثال - حواراً دار بينه وبين الراحل يوسف السباعي... وكان واضحاً تماماً أن العلاقة بينهما حميمة الى حد بعيد... فوق أن يوسف السباعي كان قد قدم نجيب محفوظ في الكتاب الذهبي، وفوق إعجابه الشديد به... فلقد كان ينشر له - في تلك الأيام - بين القصرين - الجزء الأول من الثلاثية - في مجلة الرسالة الجديدة ... ولقد كان يوسف السباعي يخاطبه أثناء الحوار باسمه مجرداً، الا أن نجيب محفوظ كان حريصاً - رغم بساطة الحديث وحرارة الود- أن يقرن اسم السباعي بلقب بك... تماماً مثلما وجدته يخاطب أستاذنا الراحل يحيى حقي في لقائي الأول معه في مصلحة الفنون!!!

إنها تلك المسافة التي يحرص الأستاذ أشد ما يكون الحرص على استبقائها بينه وبين الآخرين حتى لو حاول الآخرون إلغائها.

وكان طبيعياً - حتى اليوم - أن أقرن اسمه بلقب أستاذ ... لكنى أبداً لم أسمعه ينادينى مرة باسمى مجرداً... ولطالما تمنيت أن يفعل ذلك على مدار عشر سنوات كنت أراه فيها بشكل شبه منتظم، بل كنت دائماً ما أسعى إليه، سواء فى القاهرة، أو فى ندوته المتأخرة بالأسكندرية، والتى كانت تعقد فى مقهى بترو مع راحلنا العظيم توفيق الحكيم... لكنه - أبداً - لم يفعل!!

فى ذلك الصباح تقدمت كى أجلس اليه، أمامه تماماً جلست... ولكم تمنيت أن أتحدث اليه بما أحمله له فى نفسى... كنت فى ذلك الوقت أستعد لإخراج أول كتاب لى، وهو مجموعة قصص بعضها يدور فى عالم البحر... وكنت فى نفس الوقت أعكف على روايتى الأولى «زقاق السيد البلطى» فى دأب وتبتل من يخطو الى محراب مقدس... كانت الأعوام، والعمل فى الصحافة - لابد من الاعتراف بهذا - قد انضجت أسلوبى ، كما بلورت الحوارات والصداقات والقراءات نظرتى للأدب وطبيعته ووظيفته!

ثمة لحظات بعينها لا تبرح ذاكرة الانسان مهما مضى عليها من سنين... ولست أذكر كيف جرى الحوار فى ذلك الصباح بينى وبين الأستاذ ، كيف بدأ وكيف اتصل وكيف وصل الى سؤال وجهه الى بغتة:

"انت سبت البحر ليه ؟!"

كان السؤال رغم بساطته وطبيعته مباغتاً فارتجبت ... ولا أذكر كيف كان جوابى، أحسست أنى أخطو فى الحوار معه الى أرض مليئة بالالغام... راحت الكلمات تتناثر من بين شفتى فى محاولة لايضاح الأمر، ويقيناً فلقد لحظ الرجل ترددى، قاطعنى كى يختصر الطريق سائلاً:

"يعنى أنت سبت البحر علشان الكتابة؟!"

كان الآن يتصبب بى فخاً وكان علىّ أن أنتبه، أدركت ـ وقد أفادتنى مراقبتى له ـ أى طريق يقودنى اليه... وإذا كانت الأجابة بنعم ، فأى نوع من أنواع الكتابة تركت البحر من أجله... هل هى الكتابة فى الصحافة؟!... أم كتابة القصة والرواية؟!

لم يكن الطريق أمامى غامضاً على كل حال... القصة والرواية هما رئتى حياتى حقاً وصدقاً لا قولاً أطلقه للمباهاة!

غير أن الصحافة هى مصدر الرزق الأساسى فى حياتى ... وإذا كان نجيب محفوظ، وقد أصبح ذلك العلم الذى يشار اليه بالبنان، وبعد عام أو عامين فقط من حوارنا هنا فى كازينو أوبرا ، وعندما عرض عليه الأهرام ـ حسب رواية الاستاذ الكبير محمد حسنين هيكل ـ أن ينضم الى أسرته، أعتذر حتى تنتهى سنوات عمله بالحكومة ومن ثم يحال الى المعاش... فلقد كان حرياً بى أن أحافظ على مصدر رزق أتعيش منه. وعندما قلت ما قلت، سهم الاستاذ قليلا، حل موعد فنجان القهوة فجاء الجرسون به وأشعل الأستاذ سيجارته وسرح بعينيه عبر الميدان الذى كانت الحياة قد بدأت تدب فيه... لزم الصمت فلزمت الصمت معه، حتى إذا ما التفت نحوى قال:

"أنا ما قريتش كل القصص اللى أنت نشرتها... انما الكام قصة اللى قريتهملك ، بيقولوا حاجة!"

لم يكن فيما قاله مديحاً أو إطراءً... لكن الإشارة لم تكن لتخفى على متلهف مثلى لسماع كلمة منه عن قصصى... مضت ثوان عاد الاستاذ بعدها الى الحديث مسترسلاً:

"أصل أنت فى إيدك مادة من النادر أن أديب يلقاها!"

كانت نبراته توحي بأسى واضح. سألت:

"تقصد البحر يا أستاذ نجيب؟!"

" وهو ده شوية؟!"

كان مختصراً في إجابته بل كان مقتضباً الى الحد الذي يشعرك بالجو الى كلمة تصدر عنه.

" البحر مجال جديد ورحيب في نفس الوقت، وأنت بإمكانياتك، تقد تعمل حاجة!"

«أستاذ نجيب ! »

هكذا هتفت مضطرباً... سدد الى نظرة كادت تلجمني، غير أني سألت:

" أنت خايف عليّ من الصحافة؟!"

"وهي دي عاوزه كلام؟!"

دائما ما تأتيني اجاباته على أسئلتي بأسئلة توقعني في الحيرة... لست سفسطائياً كي يوقعني سقراطي في مثل هذه البلبلة... انا واحد من تلامذته ومريديه حقاً، غير أني لي طبيعتي الخاصة ... و...و... وقاطع الرجل افكاري مستطرداً:

"أصل القصة عندنا لسه جديدة ومحتاجة لاهتمام شديد!"

توقف عن الاسترسال كأنه تذكر شيئاً، بدالي في الثوان التالية وكأنه ينتقي كلماته بحذر:

«أنت تعرف يوم ما نشرت، عودة الروح عملت فينا إيه؟! »

لم يكن الرجل الآن يتحدث عن نفسه... كان يتحدث عن جيل كامل ... كان يردني الى الأصل، الى البداية، الى التاريخ القريب عندما ولدت أول رواية عصرية في مصر.... وإذا كانت «زينب» للدكتور محمد حسين

هيكل تقف في أول الطابور، فلقد كانت عودة الروح للأستاذ توفيق الحكيم، بالنسبة لجيل محفوظ، هي العباءة التي خرج منها كل هذا الجيل العظيم... تماماً، كما كانت روايات نجيب محفوظ بالنسبة لجيلي من الروائيين.

جاءني صوت الأستاذ مؤكداً ما ذهب اليه تفكيري، قال:

«إحنا كلنا جايين من عباءة عودة الروح!»

تذكرت هذه الكلمات بحروفها ونصها يوم حصل نجيب محفوظ على جائزة نوبل... وسط الضجيج والصياح وبريق الأضواء والتصوير وعشرات الأحاديث، كان أول ما تفوه به الرجل هو قوله: أن هناك من كانوا أحق منه بالجائزة. كان هناك طه حسين وتوفيق الحكيم!

ولقد ظن البعض أنه قال ما قال ولاءً منه لأستاذين تتلمذ عليهما، لكني كنت مدركاً، موقناً، مؤمناً مقتنعاً بأنه كان صادقاً في كل كلمة بل كل حرف تفوه به... ألم يقل لي هذا الكلام وبينه وبين نوبل أربعين عاماً من الزمان؟!!!

لم يكن نجيب محفوظ في ذلك الوقت قد أكمل عامه الخمسين بعد، كان في أوج شبابه، كان يبدو رجلاً مصرياً حتى النخاع، بسيط الكلمات عميق المعاني الى درجة محيرة، فجأة عاد الى السؤال:

«أنت قريت ميلفيل؟!»

كان يقصد "هيرمان ميلفيل" صاحب "موبي ديك"، أشهر روايات البحر في طول التاريخ وعرضه، وكنت قد اشتريتها منذ سنوات، وعندما حاولت قراءتها، والقاموس الى جواري، وجدت صعوبة شديدة في فهم المعاني، ذلك أن ميلفيل يبدو في هذه الرواية وكأنه عالم لغوي طويل الباع، قلت مدافعاً:

" أنا قريت له "بللي بد"، إنما موبي ديك صعبة وما قدرتش اكملها!"

" أنا سمعت أنها ترجمت في بيروت!"

هتفت في فرحة حقيقية:

" أنا ماسمعتش الخبر ده!"

" أديك سمعت!"

كان التأنيب في جملته الأخيرة هو الرداء والمحتوى معاً... ساد بيننا الصمت لثوان، ألقى الرجل ببصره الى حيث ميدان الأوبرا، كانت نظرته غريبة... وعندما تحول بها نحوي، طالعتني عينان يسيل منهما الحزن في صمت... عندما تحدث بعد ذلك، خلت اني في معبد استمع فيه الى تراتيل راهب، وكان يقول:

"الفن عموماً عاوز نوع من الرهبنة... والقصة بالذات، لأنها جديدة علينا، محتاجة لاهتمام شديد، محتاجة لتفرغ حقيقي، محتاجة لحب يا استاذ صالح!"

هممت بالرد... هممت بالسؤال... هممت بالحديث... لكن القاعة كانت تستقبل مجموعة كان أفرادها قد التقوا في الميدان... وكان وجهه قد امتلأ بشاشة وهو يهم باسما كعادته، مرحباً بهم، هاتفاً:

" أهلاً!"

... ...

... ...

لم يكن نجيب محفوظ وهو ينطق كلمة "تفرغ" في جملته الأخيرة، يعلم أنه كان يضع يده فوق بؤرة القلق الذي اعتراني في ذلك اليوم... كانت وزارة الثقافة قد أعلنت عن منح تفرغ للأدباء... وكانت المنحة تعطى لمن

يشهد له اثنان من كبار الأدباء، أن انتاجه الأدبي، يؤهله لأن يتفرغ عاماً لكتابة عمل ما!

وكانت "زقاق السيد البلطي" لا تزال بين يدي... أجلس اليها يوماً، وأغيب عنها أياماً، كانت الحياة تطويني طيا... ولم يكن الأستاذ يعرف شيئاً - في تلك اللحظات - كنت أملك كل المؤهلات اللازمة للحصول على هذه المنحة... وكان الأستاذان اللذان رشحاني لها، هما أستاذنا الراحل دكتور محمد مندور، وأستاذنا الحنون دكتور عبد القادر القط أطال الله بقاءه.

كانت الأوراق كلها جاهزة وتوقيعا الاستاذين اللذين كانا عضوين في اللجنة، جاهزين... لم يكن باقياً سوى التقدم بالأوراق كي أحصل على المنحة.

لكن شيئاً ما أوقفني.

شئ غريب وغامض كان يصدني ويمنعني.

ولكن... هذه قصة أخرى، فلنختم حديثنا عن الأستاذ اذن!

٧

كان هذا الحوار الذى دار بينى وبين نجيب محفوظ ذات صباح ربيعى فى كازينو أوبرا بمثابة فنار يهدى فى الظلمات.. .كنت استمعت إلى الكثيرين، وناقشت الكثيرين، وجادلنى الكثيرون...

إلا أن بساطة الكلمة وعفويتها ـ ربما ـ وعمق المعنى، تلازمت دائما فى حواره معى...وفيما عدا مرة واحدة احتد فيها على، شاركه فى الاحتداد والغضب أستاذنا الراحل توفيق الحكيم، كان حواره دائما يحمل من المعانى ما يجعلنى أنكب على التفكير فيما وراء الكلمة المنطوقة لا المكتوبة فقط.

وقد أتطلع أو أتطاول إذا ما قلت إن نجيب محفوظ كان من أوائل الأدباء الكبار الذين كان أملهم فىّ كبيرا...ومنذ لقائى هذا معه وأنا أشعر انه دائما هناك يرصد خطواتى المنشورة، حتى إذا ما التقينا، كانت أسئلته لى بمثابة مصابيح كاشفة تضئ لى الطريق!

غير أنى وقد انتظمت فى الندوة، رحت أرقبة بإمعان، استمع إليه، واستخلص من آرائه وأحاديثه ما أعاننى كثيراً على معالجة الأدب معالجة علمية...كانت تلك متعة خفية أمارسها وحدى لا أحدث عنها أحداً، ولا أتحدث عنها إلا مع نفسى إذا ما خلوت إليها فى الهزيع الأخير من الليل كما تعودت...لكننى وسط هذا كله كنت دائما أشعر شعوراً خفيا أن الرجل

يعيش في عالمه الخاص بعيدا عن الآخرين...عالم صنعه هو لنفسه، صنعه في دقة لو أننا تأملنا حياته لأذهلتنا هذه الدقة...وفي صرامة لو أننا تأملنا تصرفاته، لأدهشتنا هذه الصرامة...كان مع الآخرين سمحاً بسيطا متواضعا لا يعرف للتعالي طريقا...أقصى ما يمكن أن يفعله إذا لم يعجبه رأى أن يطلق نكتته، أو يحكى طرفة...يطل بهذه أو تلك على العالم الخارجي كي يعود مرة أخرى إلى كهفة العتيق!!

□ □ □

حتى صدر كتابي الأول، وكان مجموعة قصص تحمل عنوان «الخوف» وكان همي أن أهدى الكتاب إلى ثلاثة :

يوسف إدريس.
ونجيب محفوظ.
وفؤاد دوارة.

ولقد كان فؤاد دوارة هو أول من حرصت على أن أهديه النسخة بعد الصديق عبد الفتاح رزق الذى كان يلازمني في تلك الأيام بفرحة صادقة، وكأن الكتاب كتابه والقصص قصصه... وإذا كان فؤاد دواره هو الرجل الذي أنفق عمره في الغضب والتذمر ـ كما كنت وما زلت أداعبه ـ فلقد كان لغضبه هذا وتذمره ذاك، فضل كبير على أداء جيلنا كله... هذه حقيقة لا بد من الاعتراف بها وتسجيلها، إن فؤاد دواره من نفس الجيل، وهو مثقف لا يرى في الفن سوى لونين هما: الأبيض والأسود، أبيضه هو وأسوده هو، ولقد كان دائما ـ ولايزال ـ صريحا قاطعا صادقاً مثيراً للجدل والعراك في آن.

جاء يوم الجمعة، وحملت معي عدداً لا بأس به من النسخ كي أوزعها على الأصدقاء والرفاق من رواد الندوة... غير أن نسخة بعينها كانت هي الأولى التي قدمتها إلى الأستاذ الذي كان في ذلك الوقت المبكر وحده!

عندما قدمت الكتاب إليه ملأت وجهه ابتسامة شملت الملامح كلها، قال: «مبروك» وهو يفتح الكتاب، وقبل أن يقرأ الإهداء الموجه إليه، قرأ الإهداء المطبوع، وكان: «إلى كل أب مثل أبي !»، رفع رأسه نحوي وقال باسماً:

«ما هو كل أب زى أبوك يا بو الصلح !»

كانت هذه هي المرة الأولى، وربما الأخيرة، هي التي ناداني فيها باسم التدليل هذا... وعلى كل فلقد رددت قائلا:

«بس مش كل أب زى السيد أحمد عبد الجواد !»

كانت الثلاثية قد صدرت حديثا، وأذكر، أن أول من كتب عنها، كان الاستاذ الكبير أحمد بهاء الدين الذي حملها معه إلى الأسكندرية في إجازة صيف، وكتب عنها مقالاً في صباح الخير مازلت أذكر كلماته حتى اليوم... ولقد قلب الأستاذ صفحات الكتاب، ساد الصمت لدقائق، رفع رأسه بعدها نحوي قائلا:

«عملت إيه في الرواية اللي كلمتني عنها ؟!»

كان شيئا مذهلاً هذا الذي حدث... ليس لأنه كان قد قرأ بعضا من قصص الكتاب عندما نشرت في المجلات والصحف، ولا لأنه حدثني عن المستقبل، وبين يديه وليدي الأول... ولكن لأني لم أكن الأديب الوحيد الذي يجلس إلى الأستاذ في ندوته، ولم أكن واحداً من بضعة أدباء يحيطون به، بل كنت نفرا في جيش من الأدباء والنقاد والشعراء الذين يحيطون به في

ندوته كل أسبوع، فكيف تذكر الرجل أنى ذات مرة حدثته عن رواية أزمع كتابتها؟!...هل كنت بالنسبة إليه أعنى شيئا؟!...أم أنه كان يرى فىّ روائيا يبشر بمستقبل؟!

وعلى كل فلقد أخذتنى المفاجأة، فلم أكن أتصور أن يتذكر الأستاذ حديثنا ذاك عن الرواية والذى كانت سنوات قد مضت عليه...قلت ـ مدافعاً

ـ إنى كتبتها للمرة الثانية، لكنى لست مرتاحاً لها، ويبدو أنى سوف أكتبها مرة أخرى!

سرح ببصره قليلا ثم قال :

«إديها شوية من وقتك!»

كان عملى فى الصحافة يأخذ من وقتى الكثير، زيادة على إحساسى، وأنا فى صدر الشباب، بتفجر الحياة من حولى ومشاركتى فى هذه الحياة بحماس وحب عظيمين...ولذلك، فعندما قال ما قال لزمت الصمت، وأرخيت البصر!

... ...

... ...

عندما اكتملت الندوة، وتناقل الحاضرون الكتاب فيما بينهم، أعلن الأستاذ أن مناقشة الأسبوع القادم سوف تكون لمجموعة «الخوف»!

كان هذا امتحانا عسيراً بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وإذا كان فؤاد دوارة كان أول من تناول المجموعة فى مقال زاخر، فإن طرح الكتاب فى الندوة كان بالنسبة لى أمرا عسيرا بحق!

قبل أسابيع كانت الندوة قد ناقشت مجموعة قصص «داوود الصغير» أول كتب عبد الله الطوخي، الذى كان أسبقنا جميعا فى

إصدار الكتب، كما ناقشت مجموعة قصص «الديك الأحمر» للراحل فاروق منيب... وكنت أنا ثالث ثلاثة صنعوا فى الساحة الأدبيه فى شتاء عام ١٩٦٠ لغطاً استمر لأسابيع، ولقد توج هذا اللغط، بمقال كتبه أستاذنا الراحل والرائد دكتور محمد مندور، عندما تناول المجموعات الثلاث فى مقال شغل أغلب صفحة كاملة من جريدة الجمهورية، ولقد أفرغ الرجل فى مقاله هذا كم من الحب لجيلنا لما يصادفنى بعده!

ولقد نوقش الكتاب فى الندوة، أدار الأستاذ الحوار ببراعته المعهودة... ولست أذكر إن كان قد أدلى برأيه أثناء المناقشة أم لا، غير أن الذى أذكره يقينا أن فارس الحوار بلا منازع كان فؤاد دوارة...

كان ذلك زمنا متوهجا، فبالرغم من المآخذ والآراء، كان الترحيب يمثل دفئا حقيقيا ومشجعا، فإذا الكتاب مثلما كان كتابا عبد الله وفاروق، وكأنه عروس تزف لآلهة الأدب... وعندما شارفت الندوة على الانفضاض نظر إلىّ نجيب محفوظ قائلا:

«أنا فى انتظار الرواية!»

وإذا كان يوسف أدريس ـ رحمة الله عليه ـ هو الذى دفعنى إلى كتابة زقاق السيد البلطي ـ وقد كانت قصة قصيرة ـ كرواية... فإن نجيب محفوظ كان مثل سوط يلهب خيالي ويشجعنى على إنجاز العمل... فهل كان صوته هو الذى جاءنى فى ذلك الصباح الشتوى وسط اللغط والاحاديث والمناقشات، يحمل رنة عتاب... أم أنى توهمت ـ ومازلت ـ ذلك ؟!... لقد ساءلت نفسي بعد أن خلوت إليها... هل ألقى الرجل بجملته هذه مجاملة، أم أنه ـ كالعادة ـ كان يعنى شيئا ؟!

ومرت ثلاثة سنوات كاملة، كتبت زقاق السيد البلطى للمرة

الثالثة..وطوال تلك السنوات، كان الرفيق والصديق حقا هو الأديب عبد الفتاح رزق...هذا حديث آخر يطول شرحه..ولكن الرواية في النهاية وصلت إلى الندوة، وتحدد موعد مناقشتها.

كانت المناقشة حامية، والآراء تثرى العقل والوجدان معاً..كما كان الترحيب بها مبعث سعادة حقيقية شملتنى لأسابيع طويلة، كتب عنها الكثيرون، ورحب بها الكثيرون، وأشاد بها الكثيرون فيما عدا ناقداً واحداً هو الاستاذ أحمد عباس صالح، الذى لم ير فيها عملاً يستحق الإعجاب مثلما رأى الآخرون!

فى الندوة لزم نجيب محفوظ الصمت، كان يعلق على رأى بكلمة، أو قفشة، لكنك تشعر يقينا أنه دائما هنا، يتابع، ويحض،.. حتى إذا ما شارفت الندوة على الانتهاء، وجه إلى سؤالاً!

كنت أجلس قبالته تماماً، أذكر هذا اليوم وكأنه كان بالأمس القريب،فإذابه يسأل:

«لكن أنت مع التقدم والاضده؟!»

كانت أحداث الرواية تدور فى شاطئ فقير، يملك أصحابه قوارب صغيرة للصيد،يكسبون عيشهم يوماً بيوم...حتى صعد رجل منهم استطاع أن يكون ثروة، وبهذه الثروة شارك رجل انجليزى - وكان هذا وقت الاحتلال وللانجليز مالهم من سطوة وسلطان - لشراء سفينة صيد كبيرة تستطيع أن تصيد من الأسماك فى رحلة واحدة ما كان سكان الشاطئ يصطادونه فى أسابيع طويلة، وكان معنى شراء مثل هذه السفينة هو خراب حياتهم بالكامل...كان سؤال الاستاذ موجه إلى بؤرة الصراع فى الرواية كلها، ذلك

الصراع الذى تحدد حول قضية بالغة الأهمية...هل يتمسك الناس بما فى أيديهم من أدوات بدائية، أم يرحبون بالجديد القادم فى شكل سفينة هائلة، حتى ولو كان الشريك هو المستعمر الذى يمتص خيرات الوطن كله لا الشاطئ وحده؟!

كانت اجابتى واضحة ومحددة: أنا مع التقدم ومع شراء السفينة على أن يجتمع رجال الشاطئ للولوغ فى العصر الجديد، والمشاركة لشراء سفينة جديدة...وهذا ما كانت الرواية قد انتهت اليه بالفعل... استمع إلى الأستاذ حتى إذا ما انتهيت قال:

«كده كويس!!»

هل كانت كلماته هذه رأيا ؟!

لم يحيرنى الأمر طويلا...فبعد شهور قليلة جاءنى رأيه فى صورة إهداء على مجموعة قصص «دنيا الله»...وكان الاهداء يقول: «مودة لشخصه، وإعجابا بزقاقه!»

وأصبحت إهداءات الأستاذ لى، رسائل أعتز بها وأفخر...فبعد عامين كنت قد نشرت رواية الكذاب ... فاذا به يرسل لى مجموعة قصصه التالية التى تحمل عنوان "بيت سيئ السمعة" ، وكان الاهداء يحمل نوعا من التوجيه، كان يقول " تحية لروحه الملهمة، وفنه المقتحم ! "

ثم نشرت رواية "السجين"، وقد كان لهذه الرواية شأن مع أستاذنا الراحل توفيق الحكيم، وكالعادة حملتها إلى الأستاذ نجيب... كانت الندوة قد توقفت عن الانعقاد لأسباب أمنية - !!!- غير ان الوصول الى الأستاذ لم يكن صعبا ... كان يكفى أن أتحدث إلية هاتفيا كى يحدد لى موعدا ... وفى الموعد ذهبت إليه، قدمت له الكتاب ، فإذا رأيه يأتينى مع

مجموعة قصصه التالية التى تحمل عنوان "شهر العسل"، وكان الإهداء هذه المرة مختلفا ... فلقد تعود أن يبدأ اهداءاته لى بقوله: "الاستاذ صالح مرسى"

ولكنه هذه المرة خالف القاعدة وكتب : أخى صالح مرسى
«رمزا للغة القلب الواحد !! "
وكان هذا ، حتى الآن فوق طاقتى حتى على الشكر !!

□ □ □

وماذا بعد ... ...

هل باعدت بيننا الأيام ، أم أن الأحداث جرفتنى فتركت نفسى لها ، أم أنى – كما قال عنى أستاذنا الراحل يحيى حقى فى إحدى الندوات – كنت أبحث عن قطة سوداء فى غرفة مظلمة ؟!

لست أدرى .

وليس هنا مجال الحساب على أية حال، انما هى ساحة العمر التقط منها بعضا من ذكريات عزيزة!

مثلما رأيت وجهه مشرقا يوم أتم الخمسين من عمره، وكان هذا فى عام ١٩٦١ ...

فلقد أقام له الأدباء حفلا للاحتفال ببلوغه النصف قرن ، ولقد حضر الاحتفال كل أدباء مصر وعلى رأسهم توفيق الحكيم ... كما حضره لفيف من الفنانين، وعلى رأسهم سيدة الغناء العربى أم كلثوم !

كيف أنسى إشراقة وجهه. وضحكته تلك الصافية كمياه غدير، عندما قدم له توفيق الحكيم هدية فى يوم مولده ذاك طبق من فضة، قال الحكيم وهو يقدمه له :

" لقد اشتريته من حر مالى !! "

ودوت القاعة بالتصفيق، ورددت في جنباتها ضحكات الجميع .

ومع الذكريات ملاحظات تلفت النظر ... فعندما يجلس الإنسان فوق قمة عمر يسعى نحو الأفول... هل يملك وهو ينظر إلى الماضى، إلا أن يدهش، لأن هذا الرجل ، لفرط انغماسه فى أدبه، لم يدخل فى حياته معركه أدبيه واحدة ... وبينما كان أبناء جيله. كإحسان والسباعي والسحار وباكثير وعبدالله، يخوضون معارك أدبية مع من يختلفون معهم في الرأى والرؤى ... كان هو وحده، قادرا على اكتساب الجميع، من كل القيادات والمدارس بلا استثناء !!

المواقف – عبر السنين – كثيرة ومتعددة ... لكن بضعة منها لا تزال تحمل بريق اللحظة ، وعبير الزمن الخالي ... من المواقف، موقفان، للمصادفة ... كانا فى الأسكندرية !

يكاد الدمع – تأثرا – يطفر من عيني وأنا أتذكرة جالسا ذات صيف على رصيف أحد مقاهي الأسكندرية ... أعبر الطريق بسيارتي العتيقة فألمحة، كان الليل يزحف نحو منتصفه، الزحام والناس والأضواء والصيف السكندرى على الكورنيش بكل بهجته ..

وإذا هو، وحده، جالس فى ركن منزو، صامت سابح فى ملكوت لايعرف كنهه الا الله... أتوقف،أترجل، أسعى إليه، كعادته – ياالله – يبتسم لمرآى، يهتف هتافه هذا الصادق :

" أهلا !! "

استأذن في الجلوس إليه، يأذن ... أجلس ، يأخذنا الحديث إلى ماكان يجرى من حولنا من أدب أو ثقافة أو سياسة ... حتى إذا ما انثنى بنا إلي

القصة والرواية، التفت نحوى ... أطلت علىّ عيناه من خلف منظارة الطبى، كأنهما تستشفان ماوراء الوجود الملموس ... وإذا به يقول :

"أستاذ صالح ... خلى بالك من نفسك !"

كالعادة ... كانت الجملة بسيطة الكلمات عميقة المعنى والمغزى ... الزم الصمت ... أشعر بالحرج ... كأنه يخاطبنى عاريا حتى من أفكارى، كأنه – والحال كذلك – يضع أمامى مرآة ويطالبنى بالنظر إلى ذاتى ... ولم يكن هناك مايمكن أن أقوله سوى :

" تصبح على خير ياأستاذ نجيب ! "

" وانت من أهله ! "

ثم ذلك الموقف الذى هزنى حتى الأعماق فى مقهى بترو ذات صباح صيفى .

كان صديق العمر الاستاذ راجى عنايت قد تولى رئاسة تحرير مجلة الكواكب ... نحن الآن فى عام ١٩٧٠ ، وكنت قد سألت راجى عما يمكن ان يطلبة منى للمجلة، فسألنى بدوره : "انت تقدر تعمل لى أيه ؟! "
فى الوجدان اثنتان من فنانينا كانت لكل منهما بصمة أثرت على الفن فتأثربها... تحية كاريوكا، وليلى مراد ... قلت لراجى إنى أريد أن أكتب قصة حياة كل منهما.

لم تكن كاريوكا مجرد راقصة، أو فنانة ... بل كانت مؤسسة فنية وسياسية فى آن ... جلست اليها أسجل - بصوتها - قصة حياتها ... ذلك المشوار الرائع الذى بدأته من الاسماعيلية، طفلة فى الثانية عشر من عمرها ، حافية القدمين، لايسترها سوى رداء لايقيها برد الشتاء القارس، تضع نفسها فى قطار يحملها إلى القاهرة ... القاهرة وميدان باب الحديد .

والزحام وغول الضياع الفاغرفاه... وإذا بهذه السيدة الرائعة تفرغ ذاتها في عدد من الساعات يزيد علي العشرين ... تاريخ كامل وحافل بالاسماء والنجوم والأضواء والوزراء والملوك والصعاليك معا ... و ... وكتبت قصة تحية كاريوكا ... ونشر الفصل الأول ، وصدرت الكواكب تحمل على غلافها عنوان الحلقات " كاريوكا " ... في هذا اليوم، كنت أسعى - كما تعودنا في تلك الأعوام كلما كان الواحد منا في الاسكندرية - إلي مقهى بترو.

عندما وصلت كان الوقت مبكرا... وكان المشهد الذي طالعني غريبا.

نجيب محفوظ يجلس إلي جوار توفيق الحكيم ... أمامهما البحر بكل امتداده، والكورنيش الخالي من السيارات في ذلك الوقت من الصباح ... وفي المقهى عدد من الرواد لايزيد على عدد أصابع اليدين ... عندما اقتربت كان كل منهما ساهماً، وكل منهما يضع تحت يده ، فوق المائدة ، عدد من الكواكب التي كانت قد صدرت في هذا اليوم.. ألقيت بالتحية ، فجاءني الرد فاترا، جلست إليهما فإذا الفتور يسري اليّ... ظننت أن ثمة مايشغلهما ، فهممت بالانصراف ، فإذا توفيق الحكيم يهتف بي غاضبا:

" ايه اللي انت عملته ده يا استاذ ؟! "

كان الرجل قبل عامين من هذا اليوم قد طلب أن يراني ، وكان الوسيط هو فؤاد دوارة، وكان بيننا حديث وأحاديث ... وعندما سألته في ذلك الصباح عن سبب غضبه، صاح رحمة الله :

" ليه سميت اللي انت كاتبه ده كاريوكا ! "

" لأنها كاريوكا ياتوفيق بك ! "

قال نجيب محفوظ والأسى يقطر من بين شفتيه :

" طب ماتسميها قصة راقصة ياأخى ! "

نظرت إليهما غير فاهم ، انهال على التقريع من توفيق الحكيم ، كان يحدثنى عن أعمالى ، عن قصصى ، عما أستطيعه ، عما تنتظره الرواية على يدى ... عن ... عن..

وإذا كان راجى عنايت يطلق على لقب " المندهش دائما " ، فلقد كانت دهشتى فى ذلك الصباح صارخة ... كنت أعرف ما الذى يحمله لى هذا الرائد العظيم ، كنت أعرف رأيه فى أعمالى القليلة... كنت أعرف هذا غير أن ماقاله لى - غاضبا - فى ذلك الصباح كان يمثل لى تاجا أعتز به مدى الحياة!!

وعلى كل ... فلقد رحت استمع اليه فى صمت وإجلال وأنا أتساءل: هل أستحق حقا كل هذا الغضب ؟

حتى إذا ماكانت لحظه ، مال "الاستاذ" نحوى كى يلقننى واحدا من أعظم أسراره الفنيه وهو يشير إلى المجلة الراقدة فوق المائدة :

" اللى أنت كاتبه ده أدب ! "

" ياأستاذ نجيب... ... ..."

فى حده قاطعنى :

" انت كاتب أدب ! "

لذت بالصمت انتظارا للحكمه القادمه ... مالبث أن قال :

" أنا لو سميت اللص والكلاب " محمود سليمان " ماكانتش بقت رواية!"

أحسست أن جسدى كله يتفصد بالعرق ، مع السعادة حزن غامر ، مع الفرحة شعور غريب بزوالها.

كان نجيب محفوظ يشير إلى قصة محمود سليمان الذى أطلقوا عليه فى الستينات لقب السفاح ، والذى كان قد تحول بين يوم وليله إلى أسطوره تحدثت بها مصر من أقصاها إلى أقصاها ... كان هذا الاعتراف وحده ، كنز - بالنسبه إلى - لايوزن بكنوز الأرض جميعا !

عاد الهدوء إليهما أخيرا ... أشعل نجيب محفوظ سيجارة حل موعدها ، علت وجهه - وقد لحظ شحوبى وسهومى - ابتسامة حانية ، قال :

" وبرضه كانت حاتبقى كاريوكا ، مش حد تانى ! "

* * *

كان آخر ماقاله لى فى مكالمه تليفونيه وكان هذا بعد صدور رواية "رأفت الهجان " :

" الو يا أستاذ نجيب ! "

" أهلا بالهجان ! "

تحيه كانت ... أم إنها تذكرة ؟!

سؤال لم أجد الإجابة عليه حتى الان !

يوسف إدريس

١

حاولت أن أجد عنوانا لهذه المرحلة الأدبية من عمري فتعبت ... انتقيت عنوانا ، ثم رفضته ، وعثرت ذات ليل أوغل حتى مشارف الفجر على عنوان آخر ، فوضعته علي الورق واستغرقت فى النوم راحة ورضا ... كان العنوان هو " الأول " ... ذلك أن صاحب هذه المرحلة ، أضناه الصراع المروع مع نفسه كى يتفوق عليها ، كى يسبق ذاته ... غير أنى عندما استيقظت من النوم ، وجدت أنه حتى هذا العنوان ، لاتصل دلالته إلى مستوى صاحبه!

كان العنوان الوحيد الذى يصلح لهذه المرحلة ، والذى ظل يلح على إلحاحا متصلا، وكأن صاحبه، من العالم الآخر يهمس به فى أذنى ... هو صاحب المرحلة نفسها، هو ... هو يوسف إدريس!!

وعندما وضعت العنوان فوق الورق ، ارتاحت نفسي!

رحمك الله يا أبا حجاج . فلكم أبدعت في حياتك وفنك معا، ولكم عانيت فى حياتك ومن أجل فنك، خائضا هذا الصراع الذى يدمي الأنامل والنفس معا، هذا الصراع القدسي الذي لايعرفه ، ولاينال منه سوي قلة مختارة من بنى البشر ، خلقوا كى يضعوا علامات علي الطريق ، مجرد علامة يضعها الواحد منهم فى سلم البشرية الصاعد أبدا... ثم يمضى مثخناً بجراحه !

ولست أعتقد أن هناك إنسانا - أيا من كان - اقترب من يوسف إدريس، واحترق بناره ... إلا وكانت لهذا الذي رحل عنا مبكرا ، مكانة خاصة في قلبه ، مهما باعدت بينهما الأيام ، ومهما احتدمت الخلافات ، أو ... أو اصطنعها الآخرون !

وإذا كان نجيب محفوظ يمثل بالنسبه إلى ذلك الرائد الذي اهتديت بخطاه، فلقدكان يوسف إدريس هو القنبله التي فجرت من حولي كل ماكنت قد أقمته من أبنية فنية أو أدبية ، كان في البدايه انفجارا بفنه ... ثم أصبح زلزالا بشخصيته تلك الفذة ، والتي من الصعب أن تتكرر !

في السنوات الأولى من حياتي الأدبية ، التقيت ذات مساء بالكاتب المسرحي الراحل " نعمان عاشور " ... كان نعمان رحمه الله نوع من البشر الذي يطلق اراءه دون تحفظ أو مجامله ... وكان قد أصدر في ذلك الوقت ، مجموعة قصصية واحدة بعنوان " عم فرج " ، ثم أعطى ظهره للقصة القصيرة نهائيا، واندفع نحو المسرح ، كي يضع اللبنات الأولى في تلك النهضة المسرحية التي شهدها النصف الثاني من العقد الخامس، والنصف الأول من العقد السادس من هذا القرن ... كان قد قدم " الناس اللي تحت" ، وبعدها " المغناطيس"... عندما سألته ذات مساء -وكنا نقف في باحة المسرح القومي أيام كان هذا المسرح يمثل صرحا فنيا رفيعا بحق، وكان هذا المسرح يستعد في تلك الأيام لتقديم مسرحيته " الناس اللي فوق "... سألته ليلتها.. لماذا كف عن كتابة القصة القصيرة، فإذا به يندفع في القول:

" قصة قصيرة ايه ؟! ... ازاي أكتب قصة قصيره وفيه يوسف إدريس !"

كان نعمان على حق تماما فيما يقول ... ذلك أن يوسف إدريس - في القصة القصيرة بالذات - كان شيئا متفردا ، لا بالنسبة لجيله فقط ، وإنما

بالنسبة للقصة القصيرة منذ أن كانت فى العالم العربى وحتى الآن !

غير أن فن يوسف إدريس - من وجهة نظرى - لاينفصل ولايبتعد قيد أنملة عن شخصيته... وعندما رحل الرجل عن عالمنا ، كتب عنه الكثيرون ، لكن أحدا لم يقترب من تلك الشخصية الفريدة... كانوا جميعا ، وأرجو أن يغفروا لى ذلك ، كالفراش يحوم حول رماد ما زالت جذوته تتأجج ... كاتب واحد رسم الخطوط العريضة لتلك الشخصية ، وقد كان يملك أن يفعل أكثر، هو صديق عمره الكاتب الكبير أحمد عباس صالح.

وعندما جلست كي أكتب عن يوسف إدريس، عن الكتاب ثم الكاتب... وجدت نفسي أخوض في بحر من الأحداث، أحداث بعضها قريب ، وبعضها يبعد عنا بأربعين عاما كامله ... يطاوعنى القلم حينا ، ويخذلنى حينا آخر،كأن هناك معركه فيما بين العقل والقلب ، أتوقف عن الكتابة للحظات، ثم تشدني الذكريات إلي الورق شدا... ولقد طال الصراع واحتد واحتدم ، حتى فكرت فى العدول عن الكتابه ، لولا أن الحقيقة راحت تفرض نفسها على فرضا لافكاك منه ... تلك الحقيقة التي تقول : أن "ارخص ليالى" كان هو الكتاب الثاني الذى هزني حتى الأعماق ... وكان يوسف إدريس ، هو الشخصية الفريدة التي التقيت بها ، فوجدتها تمارس وجودها وحقها في الحياة ، بحرية قلما وجدتها في انسان غيره .

هل هو الصراع فيما بين الإنسان عندى ، وبين رحيقه الفذ من الفن ؟!

ربما ...

غير أنه فى النهاية ، لابد من الإمساك باللجام جيدا ، حتى يستقيم الأمر ، ويتخذ مساره المفروض!

كان الوقت صيفا، وكنا فى الأيام الأولى من شهر أغسطس عام ١٩٥٤،

وكنت عائدا لتوى من رحلة إلى الشرق مررنا فيها بالسودان وعدن والسعوديه وباكستان والهند ومن بعدها كولومبو فى سيلان التى أصبح اسمها الآن "سيريلانكا"... كانت رحلة مضنية بكل ماتحمل من معنى ، اقتربت بي السفينة لأول مره من خط الاستواء ، كما طالت أيامها حتى اقتربت من الأشهر الأربعة... تبدو لي الذكريات الآن وكأنها نوع من الحلم كان، ففى كل ميناء من تلك الموانئ التي رست فيها السفينة ليومين أو ثلاثة كانت لي ذكريات عن إنسان أو حدث أو واقعة... غير أن ميناء بومباى بالذات ، مثل لى شيئا خاصا تماما... ومنذ اليوم الأول فى هذا الميناء الفريد لابد وأن تشعر أنك هاهنا فى عالم مختلف تمام الاختلاف عما شاهدت فى بلادك أو بلاد الآخرين، أنت فى الهند يداخلك هذا الإحساس الغامر بأنك في عالم ليس له شبيه ، مهما تجولت ورأيت وشاهدت ... وفى بعض الأحيان ، عندما يجلس الانسان متفكرا فيما شاهد ورأى، يشعر وكأن الهند قطعة من كوكب آخر انتقل إلى كوكبنا ووضع فى هذا المكان كي يمثل حضارة بالغة التعقيد والعمق فى نفس الوقت!

في ذلك اليوم من أيام أغسطس عام ١٩٥٤ ، غادرت البيت وقت الغروب... كان إحساسي بالحنين إلى الوطن عنيفا وشديدا ، ولم أكن أدري، وأنا أقطع شارع محرم بك نحو ميدان "محطة مصر" بالاسكندرية، إلى أين أنا أذهب ... كان عقد الفرسان الثلاثة قد انفرط بعد أن انشغل علاء في أعماله التجارية ، وبعد أن تعددت سفريات حسن الحداد وطالت أيامها إلى شهور بعد شهور ، فكنا اذا ما عاد لأيام نلتقي لقاءات عابرة، وقد نقضي معا ليلة أو ليلتين كي يودعني بعدها عائدا إلى السفينة...

أما الدريني فلقد انتقل إلى سفينة أخرى وسرعان ماخبت لديه هواية

الأدب بعد أن أوشك على الزواج وراح يستعد له ... غير أنى فى واقع الأمر لم أكن أعانى من الوحده ، فلقد كان هناك دائما ذلك الصديق الذى رافقنى منذ أن كنا فى الثانية عشر من العمر وحتى يومنا هذا ، كان المهندس فوزى عامر رجل الأعمال السكندرى المعروف قد هجر البحر بعد أن وقع فى الحب وتزوج ، وكان لزواجه هذا قصة لاتزال نحكيها حتى اليوم متندرين بأحداثها وبالدور الذى لعبته فيها... كما أنى كنت قد تعرفت قبل عامين على ذلك الصديق الذى كان لصداقته فضل عظيم على هوايتى للفلسفة وعلم النفس...

ذلك هو تحسين مصباح الذى التقيت به ذات مساء فى نادى "الاسبرانتو"، وكان وقتها مدرسا للفلسفه وعلم النفس فى مدرسة العباسية الثانوية... التقيت بتحسين فى ذلك المساء فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٥٤ فلم نفترق حتى رحلت عن الأسكندرية إلى القاهرة... ومع قراءاتى غير المنتظمة مع حسن الحداد فى الفلسفة وعلم النفس ، فلقد كان تحسين مرشدى ودليلى فى " منهجة " المعلومات التى كنت قد حشوت بها رأسى ، حتى إذا ما التحقت بكلية الآداب - بتشجيعه - أحسست أن تلك البعثرة المتناثرة فى الذهن ، تتحرك كى يوضع كل شئ فى مكانه، فتكتمل الصورة لما كان عليه الفكر الانسانى الرفيع منذ أن كان الإنسان ... ولطالما قضينا - تحسين وأنا - ليال طويلة فى مناقشة هذا الفيلسوف أوذاك ، أو الحديث عن مدارس علم النفس التى ظهرت بعد سيجموند فرويد دون أن نشعر بالملل أو الشبع ... أما فوزى عامر فلقد كان دائما مايسخر من تلك الشطحات الذهنية التى لاتسمن ولاتغنى ، كان - كرجل أعمال انخرط فى السوق وخاض غماره - لايرى فائدة من وراء هذا الذى كنت أضيع فيه وقتى!!

ولقد ظل هذان الصديقان يمثلان لى جانبى الحياة أو جناحيها ... أماهما فلم يلتقيا سوى مرة واحدة كانت يوم أن قررت ترك عملي في البحر ، فاتفقنا - لأول مرة - على ألا أغامر بمستقبل مضمون من أجل مستقبل لاأعرف ماذا أنا فاعل فيه !

وهكذا وجدت نفسي بلا رفيق أدب أو صديق قصة ... وفى حقيقة الأمر ، فلقد أفادتني هذه الوحدة الأدبية فائدة جمة ... ذلك أني عثرت - عند بائع كتب قديمة - على تلك السلسلة البديعة من الترجمات التى كانت تصدر في الثلاثينات عن " دار الكاتب المصرى " ، والتى كان يرأس تحريرها عميد الأدب العربى دكتور طه حسين ... ورغم ارتفاع أسعار هذه الكتب - كان ثمن الكتاب يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين قرشاً - وهو مبلغ في ذلك الوقت فوق فداحته ، كان يكفى لشراء أربع أو خمس كتب - فلقد رحت أقتنيها ، بنصف الثمن ، كتابا بعد الآخر ، وإذا كان عظيمنا الراحل طه حسين كان في حد ذاته جامعة ناطقة وكاتبة ، وإذا كان " حديث الأربعاء " ، قد مثل لى نافذة على الأدب الإسلامي والغربي معا ، فلقد كان كتابه " ألوان " ، من أكثر الكتب التي تركت علامات لم تزل ذات أثر في نفسي حتى اليوم ... ولقد تبنى الرجل فى ترجمات " دار الكاتب العربى " ، مجموعة من الشباب المثقف راح يترجم لنا روائع الأدب العالمى ، وعلى رأسهم " الأستاذ " لويس عوض الذى ترجم ضمن تلك السلسلة تحفة اوسكار وايلد " صورة دوريان جراى " .

وهكذا وجدت نفسي أنهل من هذه السلسلة ، وأتعرف من خلالها على هـ.ج.ويلز ، والدوس هكسلي، وتشيكوف ، ومورياك ، وبيرينوا ، وفولتير، واندريه جيد ... فإذا ما أضفنا إلى هذا سلسلة الكتاب الذهبى

التى قدمت كل ألوان القصة والروايات المصرية المعاصرة . من طه حسين وتوفيق الحكيم ومحفوظ واحسان والسباعي إلى اسماعيل الحبروك وصلاح ذهنى مع جيل الشباب الصاعد من أمثال يوسف الشاروني ونعمان عاشور..وهكذا وجدت نفسى مع صدور سلسلة جديدة وثمينة تحمل اسم " كتابى"، ويصدرها الأستاذ الكبير حلمي مراد ، أحصل بسهولة على غذائى الأدبى إلى جوار تلك الوجبات الفلسفية والنفسية التى كانت تشبعنى ، بل وتغذينى مع تحسين مصباح!

... ...

... ...

لم يكن فوزى أو تحسين يعرفان بعد أنى عدت من رحلتي تلك الطويلة إلى الشرق ، وكانت العائلة قد انتقلت من طنطا إلى الأسكندرية منذ عام وبعض العام ، واستقر بنا المقام فى منزل بالشارع الرئيسى فى حى محرم بك ... وهكذا قطعت الطريق من البيت إلى الميدان حتى توسطته ، ذات لحظة توقفت، كنت فى شوق إلى الصديقين معا ، كما كنت أشعر بفراغ غريب ليس له مايبرره ، ربما كان السبب أنى فى ذلك المساء لم أكن فى حاجة لمن يفلسف لى الحياة ، ولم أكن فى حاجة أيضا إلى من يلهينى عنها ، أو يلهينى بها ، كنت فى حاجة لمن أبثه ذلك الفيض من الأحاسيس والأحداث التى حملتها بين جوانبى وأنا عائد من رحلة كانت الأولى من نوعها ... كنت فى حاجة إلى الحديث مع نفسى!

جاءت وقفتى فى وسط ميدان " محطة مصر "، أمام كشك لبيع السجائر والجرائد، تشدنى رغبة فى السعى نحو فوزى ، ورغبة موازيه فى السعى نحو تحسين الذى كان بيته فى متناول اليد ... وفيما أنا حائر بين هذا

وذاك وقع بصرى على العدد الأخير من الكتاب الذهبى ، على عدد أغسطس !

كنت قد أوصيت قبل السفر ، بشراء الكتاب الذهبى فى أول كل شهر... وقد كان ، عدت لأجد ثلاثه أعداد من تلك السلسله الثمينه حقا ... غير أن العدد الجديد كان يحمل عنوانا غريبا ، هو"أرخص ليالى" !

بداية .... كان العنوان يحمل خطأ إملائيا ، فلقد كتبت كلمة "ليالى" بدلا من "ليال" ، ثم كان اسم المؤلف غريبا علىّ وغير متداول فى ذهنى، كان اسمه " يوسف إدريس "

وكان هذا هو المخرج لى من حيرتى !

ابتعت الكتاب ، وقفلت عائدا إلى البيت !

◻ ◻ ◻

ثمه أشياء تلتصق بالذاكرة لاتبرحها مهما مضت السنوات أو الأعوام... أذكر الآن تلك الليلة الغريبة فى ذلك المسكن الواسع فى الدور الخامس من تلك العمارة البيضاء فى شارع محرم بك ... دلفت إلى غرفتى - وكانت فى مواجهة الباب تماما - فتحت النافذة على مصراعيها ، فإذا الدنيا من تحتى تشقى بالحياة... الأهل فى الداخل فى جلسة فى الشرفة المطلة على الشارع ، وأنا ... أنا وحدى حبيس ذاتى ، فى غرفة ليس فيها سوى فراشى بجواره كومودينو فوقه أباجورة أنيقة ، ودولاب متوسط ، ومكتب صغير تجاوره مكتبة متواضعة ومعلقة على الحائط ... وبين يدى كتاب جديد .

إلى جوار النافذة وقفت ، رحت أقلب صفحات الكتاب كما هى عادتى كلما وقع فى يدى كتاب جديد ... كنت أقرأ عناوين القصص وأنا أبحث

في ذهني عن اسم " يوسف إدريس " عبثا ... كنت موقنا أشد ما يكون اليقين أني قرأت له قصة هنا أو قصة هناك ، وعلى كل ... فلقد انتهيت من تلك الطقوس التي تعودتها مع كل كتاب جديد ، أعددت لنفسي كوبا من الشاي ، استلقيت فوق الفراش، أشعلت سيجارة ، وفتحت الكتاب !

ومن أول سطر ، اجتذبتني الكلمات في تركيب غريب ، هممت جالسا كي أعطي انتباهي كله إلى هذا الفيض الجديد من الأدب ، فيض كان وراء ماوراء من أحداث !

٣

تلك كانت ليلة من ليالي العمر الحميمة ، ذلك أني، منذ السطر الأول ى القصة الأولى انتابني ذلك الإحساس الذي يغمر البحار إذا ما اكتشف ارة جديدة... قارة طال التنقيب عنها في بحار الأدب ومحيطاته ، حتى لو كان هذا التنقيب في اللاوعي لديه !!

كانت قصة " أرخص ليالي " – أولى قصص المجموعة – مثل ضربة اضية... ربما لأني قضيت طفولتي وصباي وصدر شبابي الأول ، في مدن سغيرة تحيط بها القرى وتتناثر من حولها أينما توجهت... ذلك أن "عبد لكريم" – صاحب أرخص ليالي ، والباحث عن ليلة لا تكلفه قرشا أو مليما - كان هوهو، دون وصف لملبسه أو شكله ، ودون تعليق أو فذلكة، نفس لفلاح الذي كنت أراه في كفر الزيات أو طنطا ... وكانت القريه التي ألقى بها يوسف إدريس على الورق ، دون ذكر اسمها أو كسمها ، هي هي نفس لقريه التي كنت أراها في كل قرية مزروعة في قلب الدلتا من حولي !

كان شيئا محيرا هذا الذي قرأته ، غير أني ، ما إن انتقلت إلى قصة نظرة " حتى توسمت العبقريه البكر في أجلى صورها !

... ...

... ...

عندما وقعت عيناي على " نظره " ـ وأنا أقلب صفحات الكتاب في البداية - دهشت ... فكيف تكون هذه الطقطوقه الصغيره - أكاد أقول الدقيقه فلقد تمثلها ذات لحظة جسدا!!!- قصه ؟!... وجرت عيناى على السطور بحثا ، غير أنى انتزعتها انتزاعا حتى يحين موعد القراءة المنتظمة... وعندما انتهيت من أرخص ليالى، كان من الصعب أن أتخلص من محتواها وأسلوبها وبراعة القص فيها ، تلك البراعة التى تشير بأن هاهنا منجما من الموهبة الخالصة ، موهبة لاصناعة فيها ولا اصطناع لحدث أو تركيب لجملة... مضت دقائق ، حتي إذا ما تناولت الكتاب مره أخرى، وانزلقت عيناى على السطور الأولى من " نظرة " ، حتى اهتززت !

ذلك أنى منذ أن رأيت : - من الصعب أن أقول قرأت - تلك الفتاة الصغيرة الدقيقة الحجم التي تحمل فوق رأسها صاجات الكعك والقرص، وسنساءة - لعلكم تستطيعون قراءة الاسم ونطقه!- تلك الخادمة التى كانت فى مثل سنى تماما ، والتى عاصرت طفولتي وواكبتها وأثرت فيها حتى لكأنها - حتى اليوم - قطعه منى لاتتجزأ... سنساءة هذه ، كانت صاحبة نظرة ، كنت فى مثل عمرها ، لكنها كانت أكبر حجما ، كنت أحظى بما لاتحظي به من رعاية وعناية، لكنها كانت دائما الأقوى والأقدر، كانت ترتدى جلبابا بسيطا ، وكنت ارتدى القميص السكروتة والشورت المصنوع قماشه فى انجلترا ، لكنها كانت أجمل ... كنت في أوقات اللعب ألعب ، وكانت هي طوال الوقت تعمل ... كانت تكنس وتمسح وتنظف البيت وتشترى الخضار وتغسل الأطباق ... و... وتحمل الصاجات فوق رأسها فى المواسم والأعياد إلى الفرن ، وتعود بها مخبوزة!

خفق قلبي مع كاتب نظرة وصاحبتها ، كما خفق قلبى مع صاحب قصة

"الشهادة "ومريض «على أسيوط» الذي دوخه الروتين في مستشفي القصر العيني حتى كاد يذهب بساقه المعطوبة ، فطالب بالعوده إلى مسقط رأسه دون علاج ...

دخت !!

دخت مع " أبو سيد " الذي قدم لي " الجنس " - ربما لأول مره فيما قرأت من قصص أو روايات - كما يمارسه المصريون البسطاء ، لا كما يتخيله الأدباء والفنانون ، جنس طبيعي بلا هالات ولاسهوم ولا أطر مخملية من خيال ، جنس لازواق فيه ولا أحلام مخدرة... وعندما عدت - أثناء كتابتي لهذه السطور - إلى الكتاب ، نفس النسخة التي ابتعتها ذات أصيل من ميدان محطة مصر بالأسكندرية منذ أربعين عاما بالتمام والكمال - وقرأت قصة " أمنية " ، استغرقني التفكير ... فمن من أبناء هذا الجيل يتصور ، أن مجرد الحديث في التليفون ، ووضع السماعة على الأذن ، كانت أمنية إنسان في مصر في يوم من الأيام ... أمنية ، ما إن تحققت ، وتم الاتصال مع المركز ، حتى قال صاحب الأمنية رأيه بلا مداراة:

" يلعن أبوك يا مركز !! "

وإذا كان نجيب محفوظ هو المؤرخ الأدبي للقاهرة في القرن العشرين لايباريه في تأريخه أحد... فإن يوسف إدريس كان ، في هذه المجموعة الأولى ، هو الفنان الذي انتزع الفلاح المصري بكل ذكائه ودهائه وطيبة قلبه وغراباته ، من عمق طين الدلتا ، كي يضعه فوق الورق ، كما هو كائن بلا رتوش!

تلك كانت ليله من الليالي المرهقة حقا ... والممتعة بكل ما تحمله

الكلمة من معنى " المتعة "... حتى خلتنى وقد انقضى من الليل نصفه ، وصنعت لنفسى فنجانا رابعا أو خامسا من الشاى الداكن اللون كى يعيننى على الاستيقاظ والانتباه ، خلتنى وأنا أقرأ قصة " مشوار " ، أن براعة هذا الكتاب، تعدت الرسم بالكلمات البالغه البساطة ، والتى تحمل " العامية " فيها معنى وقيمة وتتحول بين اصابعه إلى أدب خلاق ... إلى عمق الإنسان المصرى البسيط ، إلى عمق الحضاره الأخاذة التى ورثناها عن الأجداد ، ونكاد اليوم أن نبددها !!

وإذا كان " أبو سيد " - فى القصة التى تحمل اسمه - شرطى مرور نزع عنه يوسف إدريس رداءه الميرى كى يحكيه لنا ويقصه انسانا بسيطا يمارس غرائزة فى رفعة، كما يمارس ضعفه فى عظمة تتجلى فيما أراد أن يورثه لولده سيد ... فما لا يستطيعه الأب الآن ، سوف يحققه الابن فى المستقبل بدلا منه ... فالآباء قد يستسلمون لعجزهم إذا ماكان الأمل فى الأبناء قائما ، حتى ولو كان هذا الأمل مجرد جماع متعذر مع زوجة !!

اذا كان أبو سيد شرطيا نزع عنه يوسف إدريس رداءه الميرى، فإن "شبراوى " صاحب قصة "مشوار"، كان من أول القصة حتى آخرها، شرطيا فى كامل هيئته الميرى، تلك الهيئة التى تحوى فى داخلها إنسانا قادرا على انتزاع اللقمه من فمه ، كى يعطيها لضعيف بلا حول له ولا قوه !

وأين نحن من قصة " رهان "، وصاحبها الأعرابى الجائع ، الذى التهم ما التهم من حبات التين الشوكى كى يسكت آلام الجوع الضارية ، فاذا به يقبل أن يحشو أمعاءه بمائة حبة من التين الشوكى ، مما سبب له - وهو ينصرف - آلام مغص حاد ... فإذا به يدرأ الألم بالألم... فأين المفر من فقر

مدقع لايجد فيه الانسان مايتبلغ به ، حتي ولو كان حبه تين شوكي قد تعثر عليها ملقاه علي الجسر وأنت سائر في الطريق !

هل كان الفقر في روايات نجيب محفوظ هو البطل ؟!

نعم ...

ولكن البطل في قصص يوسف إدريس ، كان " الإنسان الفقير" !

إنك عندما تقرأ قصة "مظلوم" ، سوف تكتشف أن كاتب هذه القصة، من المحال إلا أن يكون جراحا يمسك بمشرط إلا لكي يعالج أو يشرّح، ولكن لكي يخرق ويكشف المستور ويعري الحقيقه حتي تصبح مجرده ـ كما هي ـ أمام عينيك !

عندما لاحت تباشير الصباح في الأفق ، كنت قد انتهيت من الكتاب... وقفت في تلك النافذة المطلة علي أسطح ذلك الحي السكندري العريق ، وأنا مضعضع الحواس ، منهكا ، سعيدا ، منفعلا فرحا... كنت كتلة من الأحاسيس المتضاربه... وسؤال واحد يدور في رأسي كالطنين : كيف استطاع هذا الكاتب أن يصل إلي ما وصل إليه ؟!

... ...

... ...

كانت الساعة قد شارفت علي الخامسة صباحا ، ولم يعد أمامي سوي ساعتين كي أغادر البيت إلي السفينة ... ألقيت بنفسي فوق السرير لعلي أغفو لساعة أو بعض الساعة عبثا... كان السؤال يلح علي الحاحا متصلا ، وعشرات الأفكار تضطرم في رأسي وتضطرب ... ولست أدري حتي اليوم، ان كان الذين كتبوا عن يوسف إدريس أو درسوا أدبه ، قد انتبه أحدهم إلي مكمن العظمه في هذا الأدب..

هل كنت فى تلك الليلة ، أفكر فى هذا المسار أو بهذا القدر من الوعى والمعرفة؟!

الجواب قطعا بالنفى ...

لكن كل هذا - بالقطع - كان يمر فى ذهنى ووجدانى بشكل غامض .

ذلك أن القصة قبل يوسف إدريس ، كانت شيئا آخر تماما غير هذا الذى أبدعه الرجل... لم تكن قصصه من نوع قصص راحلنا العظيم دكتور طه حسين ... فأنت فى مجموعه " المعذبون فى الارض " – على سبيل المثال – تقرأ عن الفقر والفقراء حقا ، تستمع إلى سوناتات شجية ، يلهيك النغم المتدفق واللغه الجليله عن حقيقة الشكل ... انت مع طه حسين تقرأ لاستاذ وعلامه ينبئك بنبأ هؤلاء المعذبين الذين يتحدث عنهم ، فإذا أنت تستمع إليه فى خشوع ، لايعنيك بالدرجه الأولى مايعانونه من فقر أو عذابات بقدر مايعنيك حسن الاستماع والاستيعاب !

وأنت عندما تقرأ قصص يوسف السباعى، تنتقل من الواقع الذى تعيش فيه ، إلى عالم حالم ، عالم يحلق صاحبه بأجنحة من خيال مزركش ... وعلى العكس كانت قصص إحسان عبد القدوس القصيرة، يجتذبك باسلوبه الساحر هذا ، كى يكشف فى براعة عيوب طبقة مترفة، ثم يزيح الستار عن غرابات المرأة فى مجتمع محافظ تسيطر عليه تقاليد كالسلاسل ... هناك حلم وأحلام وردية ، وهنا قضية تبحث عن حل.

وحتى إبراهيم الورداني الذى كان يغمس قلمه فى مشاكل الشعب ، ثم يحيلها على الورق إلى نوع من الإبداع فى الأسلوب ، تقرأ القصه فتعجب

بتعبير هنا وتخريج لغوى هناك ، حتى إذا انتهيت، لاتجد بين يديك سوى هذا السوار من الكلمات تزين به الورق ... ولقد كان سعد مكاوى - رحمه الله عليه - استاذا فى فن القصص ، لكنه استاذ بلغ به الوقار حدا يقف بينك وبين مايقول ... تقرأ قصصه عن الفلاحين أو حتى سكان المدن ، فلا تشعر أن هناك أحدا غيره ، انه يذيب شخصياته فى ذاته، يذيبها كي يقدم فكر سعد مكاوى عن "السائرون نياما" ، هذه الرواية الجميلة التى تعد من أشهر أعماله... فإذا ما انتقلت إلى الجيل الجديد ، جيل يوسف إدريس نفسه ، فلسوف يطالعك أول مايطالعك من هذا الجيل ، ذلك الفيلسوف الذى امتطى قلم أديب ، إن "يوسف الشارونى" كان شيئا - وما زال - قائما بذاته ... يكتب عن " زيطة صانع العاهات " ، احدى شخصيات نجيب محفوظ فى زقاق المدق - فيشرح ، ويفسر، ويقارن، ويقص ... ثم يجمع هذا فى فكرة يطرحها ، أو فلسفة يسخر بها مما كان يحيط بنا... فإذا ماانتقلت إلى محمود السعدنى ، طالعك الولد الشقى وهو يحكي لك عما رآه أو قراه أو حدث له... تحاول أن تقترب من إحدى شخصياته ، فيقف أبو حنفى بينكما كي يتحدث هو بالنيابة عنها ، وهو... هو ملك الكلام فى جيله بلا منازع !

فى ذلك الوقت كان صلاح ذهنى مديرا أو سكرتيرا لدار الأوبرا ، وقصاصا يقص عليك قصصه وهو ممسك بمبسم ذهبى للسجائر ، يرتدى مع الفراك بابيون لاربطة عنق، أنيق اللفظ والجملة... تقرأه، فكأنك أتيت من

الريف كي تشاهد أوبرا لفيردي أو بوتشيني ، ويصبح عليك أن تحملق متفرجا فاغر الفم ، وليس مهما بعد ذلك أن تفهم !

حتى إذا ماوصلنا إلى إسماعيل الحبروك ، هذا الذي اختطفه الموت مبكرا ، وجدنا أنفسنا أمام أول تلامذه احسان عبد القدوس ، وعندما رحل لم يكن نموه الفني قد اكتمل بعد...

أما الخميسي فلقد كان يكتب – دائما – "قمصان الدم" – اسم مجموعه قصصية له –وكعادته في الحياة، كانت قصصه تهتف وتصيح وتصرخ ... فإذا أنت بعد قراءة قصة له ، تشعر وكأنك خارج لتوك من مظاهرة تهتف بحياة الوطن ، وبسقوط الانجليز !!

وماذا بعد ؟!

هل نسيت أحدا ؟!

فليكن ... غير أن هذه هي الساحة التى نزل إليها يوسف إدريس.

هنا مكمن العظمة وموطنها في هذا الفنان الفريد... انه لم يكن مثل الآخرين ، لم يقلد أحدا، ولم يؤثر في أدائه أحد ... وكأنه – لفرط ماقرأ الجميع بامعان – لم يقرأ لأحد!

كنت أشعر – في ذلك الصباح الباكر – أن هذا شاب – كان يوسف يكبرني بعام وبعض العام – يسبق سنة ، ويسابق تجربته ... ويغمس قلمه في قلب الناس ، ثم يكتب بدمائهم أو عرقهم دون تدخل منه ، دون أن يحول بينك وبينهم ، هو يقدمهم لك ثم يمضي إلى حال سبيله ، حتى ولو كان هو القاص والحاكي معا!

□ □ □

كان لابد أن أعود إلى الحياة مرة أخرى ، كان أمامي يوم عمل طويل

ومجهد ... وقفت تحت الدش وتركت الماء البارد ينساب على جسدي الملتهب بحرارة أغسطس وانفعالات كانت تضطرم في جسدي ... غير أني عندما عدت إلى غرفتي ، وارتديت ملابسي الرسمية، وجدتني أجلس إلى القلم والورق ، وأكتب :

عزيزي الدكتور يوسف إدريس .

كان الخطاب بكل كلماته وسطوره ، يدور حول سؤال واحد :

كيف وصلت إلى ماوصلت اليه ؟!

ولقد كتبت الخطاب ، وأرسلته على عنوان روز اليوسف بشارع محمد سعيد قبل صعودي إلى السفينة... وماهي إلا أيام لم تتعد السبعة ، حتى جاءني الرد صاعقا... كان.... كان شيئاً لايخطر على البال أو الخاطر!....

٣

عندما عدت إلى ذلك الخطاب الذى وصلنى من يوسف إدريس فى الأسبوع الثانى من شهر أغسطس عام ١٩٥٤ ، وعندما جرت عيناى على السطور اجتاحتنى دهشه شديده .

ذلك أن الأيام كانت قد طمست من الذاكرة الكثير من تفاصيل ذلك الخطاب الغريب ... كنت يومها عائدا من سفينتى ، وكانت الساعة قد جاوزت الثالثة بعد الظهر بدقائق ... كان الوقت صيفا والحر شديدا والأسكندريه مزدحمة والمواصلات أكثر ازدحاما ... ما إن دخلت إلى غرفتى، حتى وجدت – فوق مكتبى الصغير ـ خطابا ـ دهشت ... فلم يكن هناك من أنتظر منه خطابا ، زيادة على أن الخط الذى كتب به الاسم والعنوان ، كان غريبا على، كان طعام الغداء جاهزا والعائلة فى الانتظار ، فتحت الخطاب لا لكى أقرأه ، ولكن لأعرف فقط من هو المرسل ... كان الخطاب مكون من خمس صفحات من القطع الصغير، وكان الإمضاء فى نهايته : يوسف إدريس .

طرت من الفرح .

ذلك أنى عندما كتبت خطاب الإعجاب ذاك إلى صاحب "أرخص ليالى" ،

لم يخامرني الظن بأنه سوف يرد ، واذا كان يوسف إدريس هو الأديب الثاني الذى راسلته من الاسكندريه ... فلقد كان أول أديب أكتب إليه، دون انتظار الرد ، هو الراحل يوسف السباعى رحمة الله عليه ... وبقدر ماكان رد السباعى على مفاجأة سارة ، كان وصول خطاب من يوسف إدريس مفأجاة أكبر ... ولم يكن ممكنا بطبيعه الحال أن أترك الخطاب كى أتناول طعام الغداء ، اعتذرت للعائله لدقائق قليله ، أغلقت باب الغرفة ، وبدأت فى القراءة ... وامتدت الدقائق حتى المساء !!

ذلك أن الخطابَ لم يكن مفأجاة فقط ، بل كان صاعقة أصابتنى من حيث لم انتظر !!

"عزيزى صالح مرسى صالح:
تحياتى
وصلنى خطابك ، وأنا رجل أقول كل ماعندى ، وأقوله بصراحة ، ولكنى أشفق عليك من صراحتى... »

وتوقفت عن القراءة ذاهلا ... ماهذا ؟!

إن الاسم اسمى ، والعنوان عنوانى ... لكن الخطاب الذى أرسلته إلى هذا الفنان ليس فيه كلمة واحدة تستحق أن يكتب إلى بمثل هذا الجفاء ...

"وبعد ...

«لاشك أنك مشروع ناجح لكاتب ولاشك أن لديك موهبة فقد قرأت قصتك ولم تعجبنى ، ومع ذلك رأيت فيها موهبتك ، ورأيتك تمتهن نفسك، وتمتهن موهبتك وقلمك وفنك وتمرمغهم جميعا فى وحل قصة تريد بها إثارة غرائز القارئ ... وأنت معذور، لأن الأدب الذى يغمر "السوق" كله أدب جنسى، ولأن الكتّاب الذين يغمرون السوق كلهم صناع عاهرات وحسب،

فقلت إن هذه هى الوسيلة للوصول فكتبت ماكتبت!! "

إلى هنا ، وكان الأمر فوق احتمالى... ذلك أن التعريف بيوسف إدريس، والذى نشر مع صورته فى الغلاف الداخلى للطبعة الأولى من مجموعة "أرخص ليالى" كان يقول أن روز اليوسف قد اختارته – تقديرا لموهبته – مشرفا على باب القصة فيها... فرأيت بعد أن كتبت الخطاب ، أن أرسل له إحدى قصصى ، وقد فعلت !

وأنا اليوم لا أذكر هذه القصة ، وربما كان يوسف إدريس على حق فيما ذهب إليه ، فليس هذا مهما، غير أن الذى أذكره جيداً ، أننى كتبت له أنى أرسل القصة، لا للنشر وإنما لأعرف رأيه فيها إن كان لديه بعضا من الوقت يقرأ فيه قصة مبتدئ !... وعلى كل فلم تكن هذه هى المفاجأة ، كانت المفاجأة فيما جاء بعد ذلك :

> «... ثم تكتب لى بعد هذا خطابا كله حقد ومرارة وكله أسف لأننى "وصلت" ، وتتساءل: "كيف وصلت"

يا ألطاف الله ... إن الرجل لم يقرأ خطابى ، أو قرأه بعين ثائرة لسبب لا أدريه ... نعم ، كان خطابى كله يدور حول " وصوله " الى هذا المستوى الفنى الرفيع ، أما هذا الوصول الآخر الذى يتحدث عنه ، فلم يخطر لى على بال ... وكان لابد وأن أعود إلى سطور الخطاب وأنا فى أشد الحالات اضطرابا وغضبا :

«إننى وصلت ياعزيزى –!! – لأنى لم أرد أن أصل ، وصلت لأنى لم أتملق غرائز القراء ، أو غرائز رئيس التحرير وصلت لأنى لم أحقد على أحد ، ولم أحاول شنكلة غيرى لأصعد على أكتافه !"

وتوقفت عن القراءة وقد تملكنى الغضب تماما .

توقفت لأن هذا الطبيب الشاب كان يقذفنى بأبشع التهم ، ثم يكتب "ياعزيزى"... ولابد أنه كتب الخطاب لإنسان آخر ، ربما أخطأ فى العنوان، وربما خلط بين خطابى وبين خطاب معجب آخر ... ربما... ثم ... ثم مالى أنا وتلك الشنكلة التى يتحدث عنها ، فأنا بعيد بعيد، لا أعمل معه ولايزاحمنى ولا أزاحمه فى عمل حتى أحاول شنكلته ...

حاولت استيعاب مايقول لكن الغضب كان قد استبد بى استبدادا...

ورغم هذا كان لابد من مواصلة القراءة :

«أهذا كلام يصدر من فنان أو كاتب ؟

«أهذه المراره كلها يحتملها قلب إنسان ؟

«أأنت حزين ياصديقى -!!! - لأنى وصلت ؟»

وتوقفت أمام كلمة صديقى وقد استولت على مع الغضب حيرة شديدة .

كنت الآن أمام شخصية فريدة بحق ... شخصية بالغة الخصوصية تحتاج إلى كثير من الجهد كي يفهمها الإنسان ويسبر أغوارها ... لم يكن الأمر فى حاجة إلى تفكير كي أكتشف أن ها هنا لغزاً لابد من حله ، فلقد كانت الكلمات التى كتبها بعيده كل البعد عما كتبت ، وعن تلك الفرحة التى زغردت فى صدرى عندما قرأت كتابه !

كانت كلمات الخطاب تكشف - ربما دون قصد منه - عن كم المعاناة التى يكابدها هذا الكاتب، هنالك فى القاهرة ... كانت تكشف لى - مبكرا - عن طبيعة الصراع فى هذا المجتمع الذى كنت أنظر اليه من موقعى البعيد ، وكأنه مجتمع من أحلام وردية ...أدركت وسط عواصف الغضب المتفجرة فى صدرى ، والتى كانت تدفعنى لأن أمسك بالقلم وأرد عليه بما يستحق ، إنى أمام إنسان يتعذب ... داخلنى إحساس صارخ بأن يوسف إدريس كتب

خطابه هذا في لحظة ثورة على شئ ما ... كان الخطاب بركانا من لهيب لا علاقة له بخطابي الذي أرسلته اليه ، لا علاقه له بهذا الفيض من الأحاسيس الذي تفجر في صدري منذ قرأت هذه المجموعة القصصية التي أراها - حتى اليوم - فريده ، تقف على قمة وحدها ، حتى بالنسبة لما كتبه يوسف إدريس بعد ذلك !

ولقد تأكد إحساسي هذا وعيناى تجريان على السطور :

" ... ... أما الإشراف على باب القصة فأنا منه براء ، وسوف اتخذ موقفا حازما من هؤلاء الناس الذين يضعون اسمي كمشرف على الباب وهم في الحقيقة المشرفون الحقيقيون ، إنني ياصديقي -!!! - لاناقة لي ولاجمل في هذا الاشراف ، ولو كنت مشرفا حقيقيا لما نشرت قصتك للاعتبارات التي ذكرتها لك ! "

وتوقفت مرة أخرى عن القراءة ... كانت الرغبة في التأمل والتفكير تطغى على الغضب ، كان الفنان في هذه السطور أوضح من البحث أو التنقيب ، وإن كان هذا الشاب الذي لايتجاوز عمره الخامسة والعشرين يدخل مثل هذه المحرقة النفسية مع صدور كتابه الأول ، فماذا عن الغد ؟!

وعلى كل فلقد كان لابد من مواصلة القراءة:

" ... ... وأقول لك دع الوصول للوصوليين ، واكتب أشياء تحسها فعلا ، وأكتب ماتنفعل به نفسك وليذهب القراء ورؤساء التحرير والمشرفون كلهم الى الجحيم ، قل ماعندك يارجل... وقله بشجاعة ولاتقف كالصايع على باب المجلات والصحف منتظرا أن تتصدق عليك وتنشر لك!"

كان الموقف غريبا كل الغرابة ... عاد الغضب كي يحتدم في صدري ممتزجا بحيرة لاسبيل إلى الفكاك منها ، وجدت نفسي غاضبا من أسلوبه

معجبا بما يقول في نفس الوقت ... راجعت نفسي مرات ومرات، فلقد يكون الرجل على حق لكن يقيني لم يتزحزح . كان أريج تلك القصص العشرين التي تضمها مجموعة أرخص ليالي ما زال يعبق عقلي ووجداني... لم يقلل خطاب يوسف إدريس من إعجابي بفنه، على العكس تماماً، ظل الإعجاب شامخا متعاليا متحدياً كل غضب!

مرت ساعة، وساعتان .

قرأت الخطاب مرة ومرة ومرات .

لم يكن فيما قاله يوسف إدريس عن الفن شيئا جديدا ... كان ثمة جيل جديد بزغ وأشرق في أواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات يحمل دما جديدا وفكرا راح يبشر به في كل الصحف والمجلات.. ومع احتدام المعارك السياسية التي شهدها هذا العام - عام ١٩٥٤- بالتحديد في مصر، كانت هناك معارك أدبية وفنية أرست دعائم فن جديد لم يكن معروفا قبل هذه السنوات ... كان الجنس الذي تحدث عنه يوسف إدريس بهذا القدر من الازدراء ، ثورة في حد ذاته ، كان تعبيرا عن رغبة في تغيير المجتمع الذي كان قد وصل إلى حد الاهتراء ، كان اقتحاما لمجالات لم يكن الأدب العربي الحديث قد طرقها أو خاض فيها بعد ... وانقضى الوقت فهدأت نفسي قليلا ، وجدت أنه من الأصوب أن أؤجل الرد إن كنت أنوي الرد فعلا حتى تهدأ نفسي تماما ... غادرت البيت إلى حيث تركت نفسي لشوارع الأسكندرية ، رحت أضرب فيها على غير هدى ... ثمة مكان - حتى اليوم- إذا ما لجأت اليه صفت نفسي صفاء غريبا ... هذا الشاطئ الصخري القابع تحت قصر رأس التين... عند سفح تلك الصخرة الشامخة التي بني فوقها ذلك القصر العتيد ، كنت أشعر وكأني ألج إلى عالم

أسطوري رحيب، صيفا وشتاء. كنت ألجأ إلى هذا الشاطئ إذا ما احتدمت في النفس أزمات أو أفكار... ركبت الترام وركنت إلى التفكير مستسلما لكل مايعن لي ... أحسست في لحظة أن الخير كل الخير في الصمت، دفعني الغضب إلى القول بأن الخطاب لايستحق حتى مجرد الرد عليه ... وإذا كان الخطاب في حد ذاته إهانة ، فلست على استعداد لأن أدخل معركة بلا جدوى ... لم يكن قد دار بخلدي – حتى ذلك اليوم – أن أترك عملي في البحر قبل أن أنال الليسانس من كلية الآداب!

كنت قد قدمت أوراقي للالتساب إلى كلية الآداب ، وكانت البشائر تزف إلى نبأ القبول، كنت أستعد لمرحلة جديدة في حياتي ، مرحلة ليس من بين طموحاتي فيها أن اكون كاتبا أو صحفيا أو قصاصا... كان لابد أولا من اجتياز أولى المراحل ، وهي الحصول على " اعتراف " من الدولة – على حد قول صديقي تحسين مصباح – بما أحمله في عقلي من معلومات ، ليس الأمر أمر شهادة اذن بقدر ماهو اعتراف رسمي ...ولقد كانت هذه الجملة التي قالها لي تحسين في معرض المناقشة حول جدوى الحصول على " شهادة" كافية لأن تحسم ترددي في التقدم للالتحاق بالكلية ... ففعلت !

ما ان استقبلت البحر عند صخرة رأس التين الشامخة ، وما أن وجدت مكاني المفضل حتى كانت الشمس تميل نحو الغروب هابطة ، حتى عادت إليّ نفسي ورحت أفكر بشكل مختلف ، كان لابد لي من انتزاع نفسي من ثوره غضب عارم ... لامس قرص الشمس حافه الأفق المائي فصبغ المياه بلونه الأرجواني وبدأ لي مثل بوابة اسطورية تقود

إلى عـالم من النعيم الفكرى ... عندمـا اختفى قرص الشمس كنت قد اتخذت قرارى .

□ □ □

عـدت إلى البيت وجلست إلى المكتب ـ دون طعام منذ الصباح ـ ورحت أكتب ، قد اكون أسأت التعبير ، لست حاقدا لست حاسدا فأنا فى غنى عن هذا وذاك ، أنا ياسيدى معجب أراد أن يسألك - كطبيب - عن " روشتة " للفن الرفيع الذى جادت به قريحتك ... أصابنى خطابك بغضـب هائل وكدت أجلس إلى الورق كى أرد بحمم غضبى ، لكنى أمام فنك هذا الذى أمتعنى وفتح لى أبوابا جديدة ، قـررت أن أوضح لك الأمـر لا أكثـر . إن كنت قـد آذيتك فـأرجوك أن تغفر ، وان عدت إلى خطابى ولم تجد فـيه مـا وجدت ، فليس عليك جناح وصافى يالبن حليب يا قشطه !

فى صباح اليوم التالى أرسلت الخطاب بالبريد وعدت إلى حيـاتى وقد قررت نسيان الأمر برمته... رغم توفيقى فى الرد بهدوء وتعقل إلا أن الجرح كان عميقا ... مضت أيام نسيت فيها كل شئ ، وضعت الخطاب فى مكان قصى وفى نفسى تصميم ألا أعود إليـه أبدا ، ولقد استطعت أن أفـعل هذا طوال أربعين عـامـا حتى جا ءنى وقت كتابة هذه السطور ، كنت أعلم أن مجرد قراءة الخطاب - حتى بعدما حدث ماحدث - كفيل بأن يبعث بلهيب الغضب فى صدرى جامحا ... وبالرغم من كل شئ ، كان فى داخلى يقين أن هذا الفنان له وجه آخر ، وجه شديد الرقة والعذوبة والانسانية معا... فلا يمكن ومن المحـال ، أن يكتب مـثل هذه القـصص التى تسـيل الانسـانيـة كـالندى العذب من سطورها ، سوى انسان فى داخله قلب يحمل أرفع القيم وأعظمها ... ومن كان منابلا خطيئة فليرمه بحجر !!

أرسلت الخطاب ولم يخطر ببالي أنه سوف يكلف خاطره الإمساك بالقلم... غير أنه خيب ظني، ذلك أني ، قبل انقضاء أسبوع واحد تسلمت منه خطابا آخر!

كان الخطاب غريبا ، كان ... كان هذا هو يوسف إدريس الذي عرفته فيما بعد، وصادقته، واحببته ... و... و... ولماذا نسبق الأحداث ؟!

"أخي صالح

"قبل أن يصلني خطابك ، وبعد أن وضعت لك خطابي في البريد ، وثابت نفسي من ثورة غضبها انتابني أسى شديد ... لا لشئ إلا لأني كتبت الخطاب في نوبة لاتستحب الكتابة معها ، وقلت كلاما كثيرا كان يصح أن أقول غيره .

«واليوم وصلني كتابك، فإذا بي أراك شخصا آخر، وإذا بي أعثر فيه على كنز إنساني مخبوء تسرعت في الحكم عليه واتهمته ، وأغلظت له في القول ... »

كان هذا يكفيني تماما ... أدركت أنني كنت على حق ، وأن هذا الوجه الذي يطل على من خلال خطابه الذي استغرق صفحتين فقط، هو الوجه الحقيقي لهذا الفنان الفريد... ولقد ختم خطابه بقوله:

" ... ... يكفيني أني عرفتك من خطابك ، بل أقول إنني أحببت خطابك وأحببتك ، وهذه يدي ياأخي أمدها إليك ، ليس فيها صفح ولاغفران ولاشئ من هذا القبيل ... كل مافيها حب ، كل ما فيها صفاء .

" وأرجو أن تكتب لي وتكتب كثيرا ، وتقول أشياء مما يعمر بها قلبك والسلام ."

□ □ □

كان من الممكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحد ، كانت الأيام تمضي بي سريعة فيما بين سفريه هنا أو هناك وكان على أن أستعد للكليه ، كان على أن أعرف طبيعه المقرارات ، وأن أشتري مايلزم من كتب، وأن أقرأ فيما

يمكن أن أتلقاه من محاضرات ، ولقد كانت التجربة - تجربة الانتساب إلى الكلية - ممتعة بحق ... قدمني تحسين مصباح لعدد من تلاميذه الذين التحقوا بالكلية في نفس العام... وكانت الخطابات بيني وبين يوسف إدريس تفعل فعلها فنياً ... تتواصل أحيانا ، وتتباطأ أحيانا لكنها لاتنقطع أبدا .

وبدأت الدراسه بالكليه ... وكان رؤسائي في البحرية كراما معي فنقلت في البداية إلى " المحروسة " اليخت الملكي الرابض على الرصيف الذي عرف باسمه - دون سفر أو سفريات حتى أستطيع مواصلة الدراسة ... وكان آخر خطاب وصلني من يوسف بتاريخ ١٩ يناير ١٩٥٥ ، وهو خطاب يقول فيه:
" ... ... هذا ثالث خطاب أكتبه لك ، ولقد عزمت عزما أكيدا أن أرسله في صباح الغد ... ."

في هذا الخطاب كان يبثني بعضا من همومه ، فهل أستطيع أن أقول إننا أصبحنا صديقين ؟!

ربما ...

وربما لم يكن وقت الصداقه قد حان بعد .

كانت العائلة قد انتقلت من محرم بك إلى مسكن جديد في كيلوباترة حمامات ... وكان هذا الحي - في ذلك الوقت - هادئا وموحيا في نفس الوقت ، خاصة ، وأن المسكن الجديد ، أتاح لي غرفة منفصلة عن بقية غرف النوم أو المعيشة ... حتى إذا كان يوم من أيام فبراير عام ١٩٥٥ ، عدت إلى البيت، فإذا بي أجد في الانتظار خبرا غريبا :

" دكتور يوسف إدريس عدى عليك من ساعتين !"

كانت المفاجأة سارة بكل المعاني ... وصل يوسف إلى الاسكندرية ، مر علي في البيت ، ولما لم يجدني ترك عنوان الفندق الذي نزل فيه .

وقضينا معا أياما كانت - بكل المعاني - من أجمل أيام الصداقة في العمر كله!

٤

لابد لي من الاعتراف ، أنه بالرغم من تواصل الخطابات بيني وبين الراحل يوسف إدريس على مدار مايقرب من ستة أشهر ، ورغم انشغالي - بعد بداية العام الدراسي - في التحصيل بكلية الآداب وكنت بمعاونة رجال مازلت أحمل لهم الكثير من العرفان قد استطعت أن أنتظم إلى حد ما في حضور المحاضرات، بل والانجذاب إلى عدد من الأساتذه الذين أفرزهم الفكر المصري فإذا هم على درجة رفيعة من العلم ، والقدرة الفائقة على الصبر ... بالرغم من كل هذا فإن شخصية "يوسف إدريس" كما تبدت لي من خلال خطاباته ، كانت واحدة من همومي !

كان - رحمة الله عليه - نوعا من البشر من الصعب أن تسبر غوره، أو تعرف بالضبط من هو؟... أو ماذا يريد؟ ... ثمة خطاب كان يصلني منه حاملا إلى سرح الدنيا كلها، يتلألأ فيه الأمل بكلمات كحبات الماس المتألقة خطاب آخر تراه فيه متجهما ، تشعر وكأنه يتمزق ، أو يقف في مفترق طرق لم يتم اختياره لطريق منها بعد ...

وكان هذا – بطبيعة الحال – مثار مناقشات بريديه كانت تدور بيني وبينه ...

وكثيرا ماطلب منى الرجل أن أخطف رجلى إلى القاهرة ـ خميس وجمعة ـ كى نلتقى ، وقد كان من الممكن أن يحدث هذا ، لكن انشغالى فى الكلية – والغربال الجديد له شدة!! ـ وإجازاتى المحدودة بالبحرية، كانت تقف حائلا بينى وبين تحقيق تلك الرغبة...

حتى إذا وصلنى منه ذلك الخطاب الأخير قبل وصوله إلى الاسكندرية، والذى أرسله بتاريخ التاسع عشر من يناير عام ١٩٥٥ ، وكنت قد أديت لتوى امتحان الفترة الأولى ، أحسست أن هذا اللقاء لابد وأن يتم!!

«عزيزى صالح

هذا ثالث خطاب أكتبه لك، ولقد عزمت عزما أكيدا أن أرسله فى صباح الغد، وعلى ألا يلقى نفس المصير الذى انتهى إليه الآخران ... ولاتحسب هذا إهمالا منى أو تقصيرا ، فالحقيقة أن ماحدث لخطاباتك ، هو جزء من أعراض الأزمة النفسية والفكرية التى مررت بها فى الأسابيع القليلة الماضية، والتي لازلت أمر بها إلى الان ، أما الأزمه وماهيتها وأسبابها فأنا للأسف لا أستطيع أن أحدثك عنها لانه لاتوجد هناك أسباب أو ماهية ، هناك فقط لحظات من الحياة، تحس فيها بالاختناق واللامبالاة ... سميتها أنا أزمه ، وسمها أنت ماتشاء !! »

إلى هذا المستوى الحميم كان حوارنا معا قد وصل واتصل ، وإن بقية

سطور الخطاب لازالت تثير دهشتى حتى الآن ، فهو يسألنى عن امتحان "التيرم" الأول ، ويسألنى إن كنت قد كتبت قصصا جديدة أم لا ، ويطلب منى أن أرسل إليه إحداها !

وفى حقيقة الأمر إننى لم أكف عن كتابة القصة فى أية ظروف ووسط أيه مشغوليات ... كان إحساسى بالقصة القصيرة وانتمائى لها يتعاظم يوما بعد يوم ... ذلك الإحساس الذى يحتويك ويتسلل إلى قلبك وعقلك ووجدانك دون أن تشعر ، فإذا القصة القصيرة بالنسبة اليك ، نوع من التنفس الطبيعى ، تمارسه دون أن تنتبه أو تشعر ، لكنك إن توقفت عنه ، غادرتك الحياة !!

كان ثراء الدنيا من حولى فى السفينة أو على الشاطئ ، مع البحارة أو وسط الصيادين والفلايكية وأصحاب القوارب ، فى أزقة حى بحرى والأنفوشى ورأس التين ووسط زحام حلقة السمك والنداءات والمزادات والرزق الطازج والسعى وراء لقمة العيش... وحتى فى شوارع الاسكندرية وحواريها ، ومع مجموعة من شباب الكلية – من تلاميذ تحسين مصباح – كالمسلمانى والأديب عصام الجمل ، والذين كانت مداركهم تتفتح فى تلك الأيام على عالم جديد كانت أساساته السياسية والاجتماعية توضع... وسط كل هذا الزحام كنت أعيش مع الناس بإحساس المحب الولهان ، القصة بالنسبة إلى هى كلمات غزل أبثها لهم بينى وبين نفسى وفى درج مكتبى... وربما ، ربما كان للخطاب الأول الذى أرسله الى يوسف إدريس أثره المؤلم فى نفسى ولذلك فلم أفكر – على الإطلاق– فى أن أرسل له قصة رغم طلبه، ورغم ثورته فى بعض الأحيان خوفا من أن أكون قد ودعت كتابة القصة وانشغلت بكلام الفلاسفة !!!

بهذه الأحاسيس الغزيرة والمتداخلة ، استقبلت نبأ وصول يوسف إدريس إلى الأسكندرية ومروره على في بيتي مثل زغرودة فرح ... بهذه الأحاسيس كلها ، كان على أن ألتقي به !

... ...

... ...

في بعض الأحيان ، يشعر الأنسان أنه لابد من تلجيم القلم ، وكبح جماح الحقيقة حتى لايتهم بالمبالغه ... ولو أن الرجل كان على قيد الحياة لما لجمت قلما أو كبحت جماح الحقيقة ، غير أنه في رحاب الله ، فهل أقول إنني ماأن نقرت على باب غرفته في الفندق - وكانت الساعة تقترب من السادسة - حتى فتح لي الباب وكأنه كان في انتظار تلك النقره ، وأن اللقاء بيننا منذ اللحظة الأولى كان حميما بكل ما تحمله الكلمة من معنى؟!!

لم يكن يوسف إدريس قد رآني من قبل ، ولم أكن قد رأيت سوي صورته تلك التي نشرت على كتابه الأول ... ولكن، ولكنه استقبلني بذراعين مفتوحين ، كما استقبلته بقلب كان - في تلك اللحظات - يسع الدنيا ومن فيها !

هذا هو يوسف إدريس !!

فلاح مصرى من قلب الريف الذي كتب عن انسانه ببلاغه معجزة ... رغم بشرته البيضاء وعينيه الملونتين ، رغم كلمات الطبيب المثقف ، وتعبيرات الأديب وتخريجات اليسار المصرى لما أصبح اليوم جزءا من لغة كل يوم ... رغم كل هذا كانت رائحة الشرقية تفوح منه كالعطر الأخاذ ... بدا لي سعيدا كما كنت سعيدا ، راح ينظر إلى باسما ضاحكا وهو يقول :

" انت بقى صالح مرسى ؟! "

ولقد أستطيع اليوم أن أصف ماكنت أشعر به ، لكني لاأستطيع إلا أن أصدقه عندما قفز - كان يجلس على حافة الفراش - ناهضا ، وهو يسدد نحوى نظره برقت بها عيناه فكأنهما قطعتان من الماس لهما ألف ضوء وألف لون ... وضع يده فوق جبهته ، ثم نزل بها إلى ذقنه ، ثم تمايل في وقفته وعيناه تجوسان في الهواء كمن يبحث عن شئ ... ثم استدار نحوى بغتة وهو يقول بلهجته تلك التي لم تفارقه حتى رحل عن عالمنا :

" ياراجل انت ماتعرفش قد ايه أنا حبيتك ! "

كنت أجلس فوق مقعد في وسط الغرفة ، عاد إلى مكانه على حافة الفراش قائلا :

" يا أخي أنا ندمااااان جدا على جوابي الأول ليك ! "

قلت :

" بس ماتنساش حاجة يادكتور ! "

" أيه هي؟ ! "

" إن لولا الجواب ده ، ماكناش التقينا النهاردة ! "

اندفع نحو آله التليفون هاتفا:

" نشرب شاي !"

قلت :

" الكلام بين أربع جدران وفي الاسكندرية حرام ! "

أعاد السماعة إلى مكانها هاتفا :

" يلا بينا ! "

... ...

... ...

كنا نسير على الكورنيش بحذاء محطة الرمل ، وكنا قد استغرقنا في الحديث عن القصة والأدب والفن والفلسفة أيضا ... عند نقطة بعينها توقفنا ، التفت نحوي فسألته إن كان قد نال قسطا من الراحه ، أبدى دهشته للسؤال فقلت إن أمامه ليلة طويلة ، عليه أن يستعد لها من الآن ، لكنه قبل الاستعداد عليه أن يختار .

أشعل سيجارة واستدار نحو مياه الميناء الشرقي ، كان قرص الشمس قد هبط حتى لامس محيطة الخارجي حافة الأفق البعيد ، وكانت قلعه قايتباي تبدو في ظلال الضوء الشاحب مثل شبح أسطوري ... و الرياح رقيقة وإن حملت لسعة برودة محتملة ، رأيته وقد غمس عينه في قرص الشمس الذاوي، ظللنا الصمت حتى غاص القرص في لجة السديم البعيد ، خلت أنه لم يسمع ماقلت فتركته لتأملاته، كسا الدنيا ذلك اللون الرمادي الآسر عندما التفت نحوي قائلا :

" عاوزني اختار بين إيه وإيه ! "

" سهرة مع الناس أو سهرة مع ولاد الناس ! "

" قصدك ولاد الكلب ! "

ضحكنا معا فأمسك برسغي ودق نظراته في عيني وهو يسأل :

" تفتكر أنا أحب السهرتين ؟! "

" في راقودة !! "

ابتسم وأطلق ذراعي ، ذلك أن راقودة كان اسم القريه التي فتن موقعها الإسكندر المقدوني فبنى مكانها هذه المدينة التي تحمل اسمه ، سألني فجأة:

" إلا قول لي يا راجل انت ! "

" خير يادكتور ؟! "

" انت بطلت كتابة قصة ؟! "

قلت هاربا من السؤال :

" ايه رايك لو سهرت في شارع بيحتضر ؟! "

برقت عيناه ، مرت ثوان افتر بعدها ثغره عن ابتسامه سعيدة... كانت ثلاث سنوات قد انقضت منذ قيام الثوره ، وكانت هناك فيما حول ميناء الاسكندرية ، أضواء مشعة راحت تخفت يوما بعد يوم.

" اسمه ايه الشارع ده ؟! "

" السبع بنات ! "

واصل يوسف ضحكه... وانطلقنا سيرا على الأقدام نحو الشارع الذى - فى تلك الأيام - كان يلفظ أنفاسه قبل الأخيرة !

□ □ □

حول كل ميناء فى الدنيا يمتد شارع يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم... فى هذا الشارع الذى لايعرف للزمن معنى ، ولا للنوم طعما ، يجد البحارة كل مايحتاجون إليه آناء الليل وأطراف النهار... ثمة سفن تصل إلى الميناء فى جوف الليل ، وأخرى تصل فى عز النهار ، وثالثة تصل مع الغروب أو الشروق وربما فى الضحى ... ومهما كان الوقت ، ومهما كانت جنسية السفينة أو لغة بحارتها ، فإنهم يتلهفون ، إذا رست إلى بر ، ويندفعون إلى هذا الشارع كى يعبون من الحياة عبا وكأنهم مبحرون بعد ذلك إلى حيث لا عودة !

كان هذا الشارع فى الأسكندرية - فى ذلك الزمن البعيد - هو شارع "السبع بنات "، الذى يمتد من ميدان المنشية كى يحملك إلى أقصى المدينة، حيث الورديان والمكس والدخيلة وفيما بعدها العجمى وتلك الضواحى

البسيطة التي نمت مع نمو المدينة ... غير أن شارع "السبع بنات" كان ينتهي عمليا ، عند أول شارع " باب الكراسته " ... وهو شارع قصير يبدأ من حيث كان كركون - قسم - اللبان وحتى باب ١٤ ، هذا الباب الشهير في الميناء . والذي منه كان يدخل البحارة ويخرجون !

على امتداد الشارعين كانت تتناثر المحلات والحانات والمقاهي مفتوحة ليل نهار ، لاتعرف توقفا عن العمل ، ولاتتوقف فيها الموسيقى عن العزف ، ولاتموت فيها الضحكات أو الإحداث ... تمتلئ ببحارة سفينة جاءت من أقصى الشرق ، حتى إذا ما امتلأوا بما أرادوا ، وإذا ماحان وقت الرحيل ، سلموا الأماكن إلى بحارة سفن أخرى جاءت من الجنوب أو الشمال أو أقصى الغرب...

هاهنا في هذين الشارعين كنت تستطيع أن تسمع كل لغات الدنيا ، كما تستطيع أن ترى أنماطا من البشر من كل لون وجنس ، كأنهم في يوم حشر !

في تلك السنوات الأولى من الثورة ، كان ثمة قوانين توضع كي تحد من نشاط الشارعين ، قوانين كانت تمنع وتحدد ... وفيما بين المنع والتحديد ، تخف أقدام البحارة عن الإرتياد ، وتخفت الأضواء ، وتغلق المحلات ... وفي تلك الأيام الأولى من عام ١٩٥٥ كان شارع السبع بنات مع شارع باب الكراستة يبدوان لمن عرفهما وارتادهما في الزمن القديم ، وكأنهما يحتضران يوما بعد يوم ، ويلفظان أضواءهما الأخيرة وزحامهما وبهجة الحياة فيهما !!

وهكذا رحنا نخطو - يوسف إدريس وأنا - إلى شارع السبع بنات... كانت عيناه مفتوحتان وكأنهما لاتعرفان للغفلة معنى ... ثمة مجموعة من البحارة كانوا يعبرون الطريق وقد أطلقوا عقائرهم بالغناء ، ومجموعة أخرى

كانت تستعد لليلة ليلاء ، والموسيقى من خلف الأبواب تصدح وكأن الكون كله يعزف تلك الأغانى الصاخبة ... كان يسير إلى جوارى وهو ينتفض بالحياة، والرغبة فى الاستزادة ... فى منتصف الشارع توقف هاتفا:

"طب مش نعرف إية اللى بيحصل جوة المحلات دى؟! "

دلفنا إلى حانة كانت تعج بالبحارة ... ارتد مع أول خطوة، خطوة إلى الوراء ... كان المشهد أمامه غريبا بكل المعانى ، فلقد كان المكان رغم اتساعه بالغ الضيق بمن كانوا فيه ، الموائد متناثرة فى كل مكان وكأنها ألقيت دون ترتيب أو نظام ... الأضواء خافتة، والرجال فى كل مكان، جالسين أو واقفين لكنهم جميعا كانوا يجأرون بالغناء ، فى صدر المكان منصة امتلأت بالعازفين الذين كانوا ينتقلون من لحن إلى أخر ومن أغنية إلى أخرى حسب طلب هذا البحار أو ذاك ... التقطنا، لحظة دخولنا الجرسون وهو يهتف:

"مرحب ياقبطان ! "

" مساء الخير ياكفاليكو ! "

كان كفاليكو هذا صديقى ، تعودأن يرانى - وحدى دائما - بين الحين والحين ، يعرف ماذا أريد وما أبغى ، قادنا بسرعه وسط الزحام إلى حيث مائدة فى ركن المكان استطاع أن يدير لنا مقعدين ـ بصنعه لطافة ـ نفس المائدة التى تعودت الجلوس إليها كلما ارتدت المكان ... المتعة الحقيقية هنا ، أن تعيش ما يحدث لا أن تشارك فيه ، الرجال هنا عرايا مهما ثقلت ملابسهم ، الحياة فى مثل هذه الأماكن، تنفجر فى كل لحظة بما لا يخطر ببال عاقل... قد يأتيك بحار متحدثاً إليك بلغة لا تفهمها لكنك بالقطع

سوف تعي ما يريد أن يقول ... قد يشكو لك هماً ، أو يتحدث عن أم أو زوجة طال الشوق إليها ، يبعثر ما يملك من مال بلا حساب ، يتركك فجأة إذا ما عن له أن يحدث إنساناً غيرك، عليك بالاستسلام دون مقاومة وإلا حدث مالا تحمد عقباه...القوة هي المقياس الوحيد للبقاء،والغربة هي النغم السائد على الجميع، المال لا قيمة له والعملات من كل نوع تجد سوقاً رائجة...أما الغناء فبكل اللغات!

ما إن استقر بنا المقام حتي قال يوسف :

«أنت ازاى ما بتكتبش ده؟!»

لفنا الصخب عندما طلب أحد البحارة أغنية يونانية، كانت أغنية الراحلة «ميلينا ميركورى» فى فيلمها الذى اشتهر فى تلك الأيام عالميا: «ابداً الأحد!»...وسرعان ما شارك الجميع فى الغناء...كان شيئا مذهلا أن تسمع نفس الأغنية ونفس اللحن فى نفس المكان بأكثر من لغة... الكل يشارك، والكل يغنى وأنت...أنت كرة تتقاذفها الأحداث فى فضاء المكان المعبق بدخان التبغ السابح كالضباب، صعد البعض إلى المنصة كى يرقص، ووقف البعض فوق الموائد عارضا مهارته فى الإيقاع بقدميه، وتمايل البعض نشوه وحبا...وهتف يوسف إدريس منتفضا:

«مش ممكن،مش معقول!»

لكن غير الممكن أو المعقول لم يكن هذا الذى سمعناه، كان المذهل هو انتقال العازفين من لحن إلى آخر لأغنية أمريكية سادت فى تلك الأيام...تمضى الدقائق وتنقضى ساعة وأخرى، يدخل رجال ويغادر رجال ولا يتوقف الغناء وكأن العازفين يحفظون قاموسا لكل أغنيات العالم...وكان

الصديق الجالس إلى جوارى قد احتواه التأثر، كانت عيناه مثل آلتىْ تصوير وتسجيل، وكان هو...كان ينتفض بالانفعال!!

ذات لحظة أحسست أن الخطر يدنو !

صرخ بحار صرخة دوت فى المكان، نهض واقفا فإذا هو عملاق مفتول العضلات، انطلقت كلماته بلغة لم نفهمها وهو يوجه حديثا لبحار آخر فى الطرف المقابل من المكان، نهض الآخر متحديا قاذفا إياه بكلمات لاعلاقة لها بلغته... كلمة من هذا وكلمة من ذاك، فجذبت يوسف من يده هاتفا:

«يللا بينا يابو حجاج !»

حاول التمرد صائحا :

« على فين يا راجل أنت ؟!»

جذبته من يده مع أول زجاجة اخترقت الفضاء كالقذيفة قاطعة المكان من أقصاه إلى أقصاه...وعندما احتوانا الطريق، كان المكان فى الداخل قد تحول إلى معركة جهنمية !!

□ □ □

رغم ما كان يصل إلينا فى الخارج من أصوات، بدا وكأنه غير مقتنع...راح يدثر صدره بسترته اتقاء للريح البارد الذى احتوانا فى الخارج وهو يسأل :

«احنا ليه خرجنا ؟!»

قلت :

«لأن ميعاد أبو جمعة قرب !»

«مين أبو جمعة ده؟!»

ولم أجبه...ورحنا نقطع الطريق نحو باب الكراسة!!

٥

رحنا نسير في الشارع المزدحم بالبحارة ورجال الشرطة والباحثين عن الرزق هنا وهناك، ورغم أنتصاف الليل، فلقد كانت الحياة تدب في كل شئ، في المقاهي والمطاعم والحانات وحتى الباعة المتجولون كانوا يسعون في ذلك الوقت من الليل وراء الرزق.... كان يوسف إدريس يسير الى جواري كالمكتشف الذي أكتشف قارة جديدة كانت في متناول يده دون أن يدري... عاد يسألني الى أين فرحت أمهد له الطريق الى العالم الذي حملني اليه ذات يوم قبل عامين أو ثلاثة، الريس حديدي!

والريس حديدي هو قبطان الفلايك والكواتر الذي لا يشق له غبار، وصاحب السمعة ذات الرنين في خوض المياة وسط العواصف والأنواء، لا يخاف ولا يتراجع... يتحدث الى الرياح كما يحدث الأمواج، عقد أواصر صداقة مع الطبيعة فروّضها بمهارة شهد بها الجميع، فاستكانت له وخضعت مهما كانت ثورتها أو غضبتها ... ربع القوام هو، مدكوك البنيان ، عريض الكتفين متوسط الطول منحوت الوجه ببراعه خالق لايبارى ... عيناه كحبتي ترمس لكنهما تحملان في أعماقهما نظراً حاداً لايخطئ ، تحت الأنف الواسع الفتحتين شارب هائل غير مشذب ، رمادي مسترسل مثل

زرع نابت فى أرض لاتزال بكراً، فوق الرأس لاسه لاتعرف الإعوجاج أو الحركة وكأنها قدت من لحم الرجل فأصبحت جزءاً من رأسه، كفان مثل كفى حوت تحول الى انسان ، قدمان لاتعرفان للنعال معنى ، بين كل اصبع من اصابعهما مسافة تسمح للقدم بأن تتحول الى يد تساعد فى جذب حبال الشراع وتوجيه الدفة ... رجل هو ولا كل الرجال ، صنديد ، يواجه العواصف بقلب لايعرف الخوف أو التردد ... صديقى هو ، صديق حميم عرفته فأحببته وعرفنى فأحبنى ، ولأن صداقتنا أصبحت حميمة ، فلقد صحبنى الى هذا المكان الذى لايرتاده سوى اصحاب الدماء النقية من بقايا أهل راقودة !

كنا قد وصلنا الى بداية شارع باب الكراسته ، على الضفه المقابله لكركون اللبان توقف يوسف متسائلا:

" انت عرفت الحاجات دى ازاى ؟! "

ابتسمت وانا اجيب على سؤاله بسؤال :

" وانت بقيت دكتور ازاى ؟! "

كان علينا ان نقطع شارع باب الكراسته حتى قرب نهايته ، ثم اذا ما انحرف شريط الترام ، مع سور الميناء ، يمينا ... ولجنا على اليسار زقاقا ضيقا معتما الى حد أن الكثيرين لايلحظون وجوده ... هو شق فيما بين الجدران التى امتلأت بالمحلات والحانات والأضواء ، فاذا ما اخترقت هالة الضوء الصاحى ، استقبلك ظلام شبه دامس ، الزقاق قوس مرسوم بين البيوت ، من خلفك تأتى أصوات الباعة وأغنيات البحارة ونداءات الناس على الناس ... خطوة بعد خطوة تخفت الأصوات كلما ابتعدت موغلا فى التاريخ ، حتى اذا مالاح لك بصيص من ضوء يتسلل من

باب خشبي نصف مغلق ، كان عليك ان تعرف انك وصلت الى " بوظة " شلوفه !

ها هنا أولاد الاسكندرية الحقيقيون ، هؤلاء الذين تمسكوا بالأرض والدم لا يبرحون ، يتزاوجون فيما بينهم ، ويعيشون في بيوت على ضفاف أزقه تمتد متفرعة من باب الكرامته صاعدة الى حي رأس التين والأنفوشي ... أزقة تتلوى بين البيوت حيثما اتفق ... بيوت بالغة البساطة ، تحتفظ بقاياها حتى اليوم بذلك الطابع السكندري العريق ... المشربيات الخشبية بارزه خارج الجدران معلقه في الهواء ، حتى يستطيع ساكن جانب من الزقاق ان يصافح جارة الساكن قبالته في يسر ... داخل هذه البيوت التي يسكنها الصيادون والفلايكيه وأصحاب الدماء النقية من أهل راقودة العريقة ، تعيش الأسر حياه شبه مشتركة ... الجار للجار حقاً وعملا ، والخصوصيات لها في النفوس مكانها المحترم ، غير انك اذا ما كنت في الطابق العلوى ، وصل اليك ، ببساطة مذهلة ، صوت جارك وهو يعاتب زوجته أو يعاقب ولده في الطابق الأرضي... هاهنا بذره واحدة زرعت من قديم الزمان كي تتفرع وتتفرق بصنع السنين ، لكنك اذا ما خالطتهم ، ووجدت بينهم مكانا ، وضعوك في حبات العيون كرماً وشهامة وجدعنة لانظير لها ... الرزق يوم بيوم ، واللقمه الهنية تكفي مائة من البشر لو كانوا متحابين!

كنا قد وصلنا ، يوسف وانا ، الى مدخل الزقاق ، وكان على أن أقوده عبر هالات الضوء الى حيث الماضي السحيق ، مثل هؤلاء الرجال يا أبا حجاج لا يجدون متعتهم مع " الخواجات " الذين غزوا المدينة منذ قرنين من الزمان ... مثل هؤلاء الرجال رفضوا تقليد الأجانب أو الحديث بلغتهم أو

ارتداء ملابسهم كما فعل الآخرون من المخلطين من أبناء المدينة ... الزى الرسمى هو الصديرى العتيد ، واللاسة فوق الرأس والسروال الفضفاض القابض على رسغ القدم الحافية غالباً المنتعلة مركوبا اذا ما فاض الرزق وشبع العيال ... ها هنا ، فى بوظه شلوفه ، حيث الموائد متراصة فى استطالتها ، يجلس الرجال متقابلين ، متسامرين ، ضاحكين مغنين متجادلين فى الرزق والبيع والشراء والقوارب والشباك والصيد واتفاقات اللقاء فى الصباح الباكر مهما امتد بهم السهر ... حتى اذا ما انتصف الليل ، حان وقت الاستماع الى " أبى جمعة ! "

عندما دلفت الى هذا المكان لأول مرة ، أحسست انى أدلفت الى مغارة فى جبل اسطورى ، صاحب "البوظه " أجنبى من الصعيد ، عاش سنوات بين الرجال كى يحصل على إذن بالإقامة ، وسنوات أخرى كى يحصل على الجنسية بشرط ، الا يتزوج من بنات الناس ، أو يزوج بناته من أولاد الناس حتى ولو وقعوا فى الحب !

عند عتبه الباب نصف المغلق توقفنا ، كان علينا كى تدلف الى الداخل، ان تنحرف باجسادنا فالفتحه بين دلفتى الباب كالشق ، هتف بي يوسف أدريس وقد داخله شئ من تردد :

" ياراجل انتا اااا ... ... "

قاطعته :

" ما تخفش يادكتور الدار أمان ! "

ما إن خطا الى الداخل ، حتى توقف محملقا فى المكان غير مصدق ! من السقف ، فوق الموائد التى ازدحمت بروادها ، كانت تتدلى شباك

قديمة مثل عرائس أسطورية، وشراع هنا وآخر هناك مزقته عاصفة أو تأكل السنين ، بجوار الحيطان على مدار المكان ، كانت تقف صوارى مكسورة ومجاديف بالية ... فى أقصى المكان كان ثمة قارب صغير محمول على عرائس خشبية ... فوق الحيطان علقت اسماك محنطة من كل نوع وصنف، أما فى صدر المكان ، فوق المنصة مباشرة ، كان ثمة رأس هائل لسمكة عملاقة فاغرة فاها عن أسنان مدببة تبعث الرعب فى قلب أعتى الرجال .

ما إن وقفنا بجوار الباب حت تلفتت نحونا كل الأعناق ... رحت أبحث بعينى عن الريس حديدى وسط سحابات دخان المعسل المتكاثف ... من وسط الضباب جاءنى صوت الحديدى كالزئير وكأنه ينبه الجميع الى أنى، مع الضيف ، فى حمايته :

" مرحب يا جبطان ! "

كان الجميع قد اعتادوا ، بين الحين والحين ، ان يرونى وسطهم جالساً، أدخن السجائر لأنى "افندى " ، واحتسى اكواب الشاى أو القرفه أحيانا ... راح الحديدى يخترق الممرات بين الموائد هاتفا بكلمات ترحيب وقد فطن الى ان الضيف المصاحب يعنى بالنسبة إلىّ شيئا ، زحف الصمت كموجة هادئه حتى غطى المكان كله ، ما إن وصل الحديدى الينا ، حتى قدمت له ضيفى قائلا :

" آهو ده ياسيدى دكتور يوسف أدريس ! "

كم كانت فرحه يوسف غامرة ... أجتاحت ملامحه عاصفه من سعادة ما رأيتها هنالك ، فوق تلك الملامح ، بعد ذلك أبداً ، أخذ يردد البصر بينى وبين الحديدى غير فاهم ، فحسمت دهشته بقولى:

" الريس حديدي صديقي وهو اللي حايمتحنك يوم في الميناء مش حاتنساه عمرك ! "

مد الحديدي يده نحو يوسف قائلا :

" نورت المطرح يا دكتور ! "

تراقص يوسف في وقفته طربا ، صافح الرجل في حرارة وهو يقول :

" المطرح منور باصحابه ياريس حديدي ! "

أومأ الحديدي نحوي قائلا :

" الافندي كلمني عنك كثير يادكتور بس انا لي معاك كلمتين ! "

سألت الحديدي :

" الريس جمعه حايطلع على النصبه امتى ؟! "

لم يجب الحديدي ، لكنه قادنا الى حيث طرف مائدة قريبه من المنصه ، ما ان جلسنا حتى سأل :

" برضك شاي والا نقوم بالواجب ؟! "

قلت :

" شاي ياريس حديدي والواجب اللي عليك خليه لبعد بكره ! "

" آني خدام ! "

غادرنا الرجل ، ورأيته يخترق المكان نحو " أبو جمعه " ، وكان يجلس عند الطرف الآخر من المنصة... مال يوسف نحوي متسائلاً في شغف مغموس في عتاب من لم يعد في استطاعته الصبر :

" ايه الحكاية دي يا استاذ ؟! "

قلت :

" دلوقت تعرف ، ودلوقت تسمع ، ودلوقت تشوف ! "

ما أن انتهيت من كلماتي حتى اجتاحت المكان عاصفة من صوت كان وكأنه يهبط من عليا ء جبل اسطوري !

□ □ □

كان من عادة " أبو جمعة " ، قبل أن يصعد الى المنصة التي وضع فوقها أريكتين متقابلتين ، احداهما ذات طراز خاص ، وشلته يجلس فوقها ، والأخرى لمن يريد المناظرة أو المشاركة أو التحدي في إلقاء الشعر ... كان من عادته ان يطلق عقيرته الصادحة بليالي أو موال يسري في المكان مثل نذير يأمر بالصمت ، سابحا فوق الجميع كسحابة تظللهم وتحنو عليهم وتخاطب فيهم ذلك الشوق الكامن في قلوبهم لتحية شعرية تأتي من هذا الشاعر الذي يعترفون له جميعا بنقاء البصيرة ومعرفة الوجع حتى يداويه بأبياته المرسلة لساعتها دون ترتيب مسبق أو توليف محترف ... هو نوع من الشعر يطلقه صاحبه لساعته ، فما تدري - اذا ما خاطبك بالاسم - من أين له معرفة موطن الوجيعة فيك فيعزيك، أو بريق الفرح الكامن قلبك ان كان حبا أو غراماً أو حتى ربحاً من تجارة ... شعره المرسل هذا لايتكرر أبداً ليلة بعد ليلة ، قد يحفظه الآخرون ويرددونه ، أما هو فلا ... ذلك انه دائما ما يحمل جديداً ، مثل منجم لا تنفذ كنوزه .

ولقد أدركت في تلك الليله عندما تركنا الحديدي واتجه نحو أبو جمعه ، ان ثمة تحية قديلقيها الرجل الينا - يوسف وأنا - فداخلتني سعادة غامرة ، سعادة يشعر بها الانسان في نقاء ماء المطر، فاذا ما انهمر الشعر، اذا ماصال الرجل وجال، اذا ما احتدمت العاطفة، قد يجد الرجل من الحاضرين شاعراً يريد المشاركة ، وقد يريد المساندة ، وقد يبغي المجاملة ... وقد يتطاول الى التحدي ! !

هنا، في تلك الليالي التي يصل فيها الأمر الى التحدى ، من المحال ان ينتهي هذا المهرجان الشعري، قبل ان يلعلع آذان الفجر من فوق أقرب مئذنه... ودائما ، دائما ما يخرج " أبو جمعه " من المباراة منتصراً... فتنهال عليه الدعوات ، وترسل اليه القصعات والكيزان وأرغفه الكيده السكندريه ذات المذاق الخاص ... وهو مع الجميع مشاركاً ، يأكل ويشرب وقد يدخن ،ولكن حذار ، حذار ان تطلب منه المزيد ... ذلك أن الطلب لا يُلبي مهما كانت مكانه صاحبه ، إنما التلبيه تأتي في لحظة وجد تملأ وجدان الرجل، فاذا به يترك كل شئ ، كي يعود ساريا بصوته الجبلي هذا ، صادحاً بشعره ، منتزعاً الآهات من الحناجر ، والتصفيق من الأكف ، وربما الدموع من أعين مست صاحبها أبيات قصيدة مفعمة بحنان أو عزاء .

بجوار " أبو جمعه " يجلس دائماً عازف ربابه لا يطلق لقيثارته العنان إلا في وقت معلوم ... في لحظة يحتاج فيها القول الى نغم مصاحب ... هي لحظة غريبة ، كأن ثمة تخاطراً يحدث بين الرجلين دون ان يتحدثا أو يشير أحدهما للآخر ، أو حتي يتبادلا نظرة ... فاذا ما انتهت اللحظات ، كفت القيثاره من تلقاء نفسها ، وتركت للصوت الصادح الساحة كي يجتاح النفوس والقلوب جميعا بحلاوته وطلاوته وجمال كلماته !

في تلك الليله ، وعندما أطلق " أبو جمعه " عقيرته بافتتاحيته تلك ... أحسست بيوسف ادريس الى جواري وكأن مساً كهربياً قد أصابه ... سرى الصوت في سماء المكان فصمت له الجميع واستكانوا ، تلفت يوسف يمينا ويساراً بحثا عن صاحب الصوت عبثا ... تركته لإحساسه دون تدخل مني أو مقاطعة... عندما كفت كل الأصوات وسكنت كل الحركات واستعد الجميع للقاء الرجل نهض "أبو جمعه" واقفا!!

كان المفروض – وهذا ما كان يحدث دائماً – أن يصعد الرجل درجتين حتى يعتلي المنصة في صدر المكان ، لكنه في تلك الليله لم يفعل ، راح يخترق الممرات الضيقة بين الموائد ، عابرا الطريق من مكانه في ناحية من المنصة ، الى حيث كنا – يوسف وأنا – نجلس عند الطرف الآخر ... دون توقف كانت الليالى تنساب من حنجرته عنيفة هادرة ، حتى اذا ما وصل الينا توقف أمامنا ، ختم الليالى ختاماً انتزع صياح الاستحسان من الحناجر... واذا ما عاد الهدوء تماماً، انطلق ينشد :

وطبيب أريد اسألك
عندكش دوا ينطال
للمغرم اللى عامل كفوفه للدموع منطال !!

رأيت يوسف ادريس في تلك اللحظات ينتفض وقد امتلأت مآقيه بالدموع ، فلقد أدرك الرجل، بحساسيته المفرطة ، إن التحية جاءته – كضيف – دون توقع ... نهض يريد استقبال الرجل الواقف أمامه ، لكن أبو جمعه أعاده بحنان الي مقعده... عاد ينشد نفس الأبيات وهو يصعد الى مكانه من المنصة ، حتى ما إذا انتهى التفت نحونا وكأنه في انتظار جواب لسؤاله ... التفت يوسف نحوي ، حاول ان يقول شيئا ، لكن أبو جمعه راح يهدر ، وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح ، منشداً :

يايوسف أصبر
ياشيخ ده الصبر للأبطال
منين أجيب لك دوا ينشف عليك دمعك .
من كتر تعبك على احبابك تقل سمعك .
من غير حبيبك ، جميع الطب للأبطال !.

والتهب المكان بصياح الاستحسان ، وراح التصفيق يدوى فى الآذان كهزيم الرعد ، أدركت ان الحديدى أسر لأبى جمعه بأمر صديقى الذى كنت قد تحدثت اليه عنه فى إحدى جولاتنا فى الميناء ... ولم أكن أدرى أن هذه الليلة ، فى غالبيتها ، ستكون تحية للضيف القادم على غير موعد ، ولم أكن أدرى، ان هذه الليلة سوف تكون بداية لصداقة جد حميمة حتى أتاها هادم اللذات ومفرق الصداقات ، ولم أكن أدرى أنى سوف أضع تلك الأبيات بنصها فى " زقاق السيد البلطى " ، تحيه للرجل الذى دفعنى الى تحويلها من قصة قصيرة الى رواية... غير أنى كنت أعيش ليلتها فيما فوق السعادة بفراسخ... ذلك أن يوسف ادريس ، مع المقطع الأخير ، لم يستطع صبراً ، نهض معتلياً المنصة مصافحاً أبا جمعه ضاماً الرجل الى صدره فى حرارة والدمع يملأ مآقيه ... قبل ان يغادر المنصة عائداً الىّ ، سبح فى سماء المكان صوت منشد آخر أراد المشاركة فى الترحيب ... كان هذا هو الريس بندارى صاحب الفلايك التى تملأ سطح مياه الميناء كالحمائم السابحة ... بدأ بندارى إنشاده وهو فى مكانه ، استمر فى الانشاد حتى صعد الى المنصة ووقف أمام الضيف ، كان باسماً وصوته السارى يجأر بالشكوى :

انا رحت لطبيب مداوى يكشف على جسمى
كشف الطبيب على المرض ونسى فى الكشف اسمى
سألته ليه ياطبيب ما كشفت على العليل جسمى
قال لى الطبيب خليك على الباب لما تنطلب رسمى

كان هذا الذى حدث شيئا مذهلاً بحق ، كانت هذه الأبيات التى أنشدها الريس بندارى عفو الخاطر ، تحية لهذا الشاب الذى كان الآن يقف حائراً

سعيداً منفعلاً ، هي هي ، تكاد تكون تلخيصا عبقريا لقصة "على اسيوط" التي ضمتها مجموعه "أرخص ليالي" .

ولم يستطع يوسف ان يحتمل أكثر من ذلك ، قال للريس بناري :

" انا عارف ... عارف ... والله عارف ! "

ثم اندفع مغادراً المنصة كي يجلس الي جواري ، ولم نتبادل بعدها كلمة، حتى لعلع صوت المؤذن مناديا المؤمنين لأداء صلاه الفجر ! !

□ □ □

حملتنا السيارة الأجرة الي حيث الفندق ، قبل أن يغادرني يوسف نظر اليّ طويلا ، أحسست أنه يريد أن يقول شيئا فقلت :

" ماتقولش حاجه ! "

سألني عن الغد فابتسمت ، فلقد كنا في الغد فعلا ، فابتسم قائلا :

" الساعه سته كويس ؟! "

" تصبح علي خير ! "

ولم يكن يعرف ، ان ثمة مفاجآت أخرى في الطريق اليه .

٦

في الصباح، كان لابد لي من لقاء الريس حديدي لترتيب رحلة في الميناء نقضي فيها - يوسف إدريس وأنا - يوماً كاملاً... كانت الغيوم تملأ السماء والرياح خفيفة وإن كانت باردة، وسطح المياة يتلاعب في أمواج صغيرة راحت تضرب حافة الرصيف الصخري في مداعبة لا تنبئ بخير... وجدت الحديدي في المقهى الزجاجي الذي يطل على الرصيف وهو يدخن البوري كعادته في مثل هذا الوقت من اليوم، عندما تخف "الرجل" - بكسر الراء وسكون الجيم - ويقل عدد الذين يريدون اجتياز الميناء الي سفنهم الراسية على أرصفة بعيدة... دثرنا المقهى بدفئه، وتناثرت أصوات الرجال وهم يلعبون الكومي ويدخنون البوري ويحتسون الشاي والقرفة بالحليب... استقبلني الرجل بترحاب كعادته، غير أن نظرة في عينيه أنبأتني أن ثمة ما يريد البوح به، شكرته لما لقيناه بالأمس من حفاوة فرماني بنظرة عتاب هربت منها بسؤاله عن رأيه في رحلة في الغد...

قال وهو يرمي ببصره نحو الرصيف:

"احنا نعملوا اللي علينا والباقي عليه هو!"

كلمة "هو" عند أهل الأسكندرية تعني المولى عز وجل، أردت أن أحدد له

ا أريد في الرحلة لكنه طلب مني ألا أحمل هماً، احتسيت كوب الشاي هممت بالانصراف عندما بادرني قائلاً:

"صاحبك ده؟"

"ماله يا حديدي؟!"

"حايموت ناقص عمر!"

داخلتني دهشة شديدة، كان التعبير يوحي بالكثير لكني كنت أعرف الحديدي جيداً فسألته:

" ليه بتقول كده؟!"

وضع مبسم البوري جانباً واعتدل في جلسته ورشف من كوب الشاي رشفة أتت على نصفه ثم قال:

" شوف يا فندي... أنت تعرف معزتك عندي شكلها إيه... وآني نعرف من كلامك أن الجدع ده غالي عليك حبتين مع أنك ما عرفتوش الا من قريب!"

هممت بالحديث لكنه رفع كفه العريض أمامي فلزمت الصمت، عاد الى الحديث:

" أنت من غير مؤاخذه في مقام ابني لازمن نقول لك كل اللي في قلبي، ده عيش وملح اللي بيننا!"

لزمت الصمت ولم أعلق ، عاد يقول مردفاً:

"الراجل ده بياكل عمره بايديه وأسنانه يافندي!"

ران الصمت قليلا ثم سدد الى عيني نظرة نافذة وأردف:

"آني بتقول لك الكلام ده لأجل ما تخلي بالك، وبكرة من النجمسة حاتلقاني مستنيك!"

هكذا حسم الحديدى الموقف فنهضت منصرفا!!

لم يكن الحديدى عجوزاً، بل كان رجلا تخطى الخامسة والأربعين بقليل وإن كان يبدو فى الثلاثين، غير أنه ـ معي ـ كان إذا تحدث فتح قلبه وأفرغ ما فيه ببساطة آسره... وكان دائماً ما يقول لى :

" ربك مش رايد يدينى ولد، تزعل لو حطيتك مطرح اللى لسة بأحلم بيه؟!"

كنت أعلم أن الحديدى لم ينجب، لا لأنه عاجز عن الإنجاب ، ولكن لأنه رجل قام بواجبه حيال عائلة وأولاد استعاض بهم عن تحقيق حلمه... لذلك، فعندما كان يقول ما قال، دائماً ما كان بدنى يقشعر، أملأ عينى بوجهه المنحوت هذا، وأصمت لا أنبس ببنت شفة!

□ □ □

عدت إلى البيت فى الترام، أعطيت لنفسى فرصة التفكير فيما قاله الحديدى، كان السؤال الذى طرح نفسه على بشدة وإلحاح هو: من هو يوسف أدريس هذا؟!

حاولت استعادة كلمات الحديدى دون جدوى، تغلبت رغبتى فى الهرب من التفكير على رغبتى فى معرفة كنه ما قال الرجل الذى تعودت منه الحكمة نقية كمياه بحر... وأنا اليوم، بعد مرور أربعين عاماً كاملة، وعندما أتذكر حديث الحديدى معى، تصيبنى الدهشة، فكيف تأتى لرجل أن يقرأ وجه إنسان منذ اللحظات الأولى التى يلقاه فيها... وكيف أننى لم أعط لكلمات الرجل حقها من التفكير!!

□ □ □

فى السادسة مساءً التقيت بيوسف، وبدا لى وكأنه مشحون بطاقة لا قبل

له باحتمالها . كان يريد أن يعرف، يريد أن يفهم، يريد أن يغوص في قلب تلك الليلة التي قضيناها معاً... سرنا من الفندق حتى محطة الرمل دون أن يكف عن الحديث ... كان يتحدث عن شارع السبع بنات، عن الحانة والبحارة، عن الرجال وبوظة شلوفة... هذا عالم أسطورى لابد وأن يقدم للناس، الحياة ثرية وثراؤها فاحش ونحن لا نزال محصورين داخل جدران فكرية لابد لنا من التحرر منها... الفن هو أسمى شئ فى الوجود ، ولذلك يمارسه الناس كما يمارسون التنفس، منبهر هو بأبي جمعة وشعره المرسل، غير أن الحديدى بالنسبة اليه، فهو رجل خطير!!

كانت الاسكندرية في ذلك الزمان مثل غانية تتزين بألف قطعة من الحلي، كنت تستطيع أن تقضي ليلتك في أى مكان تتوق اليه نفسك، في محطة الرمل التقى يوسف مصادفة بالراحل ابراهيم عبد الحليم وقرينته، كان اللقاء بينهما وبين يوسف حميماً، وعندما عرفت أن هذا الرجل هو صاحب "دار الفكر"، وجهت اليه الدعوة كي يصطحبنا في الغد. كانت الدار ـ قبل أسابيع ـ قد أصدرت الديوان الأول للراحل صلاح جاهين والذى كان يحمل عنوان " كلمة سلام"... ودعنا الرجل وقرينته على موعد في الغد، وعندما سألت يوسف في أية دولة أوربية يريد أن يسهر فيها، نظر الى باسماً وهو يقول:

" اليونان!"

وكانت التافيرنا أمامنا على بعد خطوات... هاهنا، في هذا المكان، كنت إذا ما خطوت خطوة الى الداخل، أحسست اني عبرت البحر من الاسكندرية الى أثينا... فكل شئ فيه، من الموائد الى الحيطان واللوحات والطعام والموسيقى والأغنيات، كان يونانيا صرفاً... اخترت مائدة في ركن المكان،

وحتى الثانية صباحاً لم تكف عن الجدل أو المناقشة... كان يوسف أدريس في تلك الليلة متفجراً بالحياة وكأنه اكتشف فيها كنزاً كان مخبوءاً، من الفلسفة الى علم النفس الى الفن طاف بنا الحديث وجال.. كنت متحيزاً الى الفلسفة لأنها علم العلوم، وكان هو متحمساً للفن لأنه روح الحياة... اختلفنا واتفقنا في كثير وفي قليل، لكن حرارة اللقاء ضمتنا في تلك الليلة وأغرقتنا بالدفء... كلا منا غريب عن الآخر لا يزال، وكان كل منا يسبر غور صاحبه ويحاول الاقتراب منه... وأنا اليوم، وعندما أعود الى خطابات يوسف ادريس التى كان قد أرسلها قبل هذه الزيارة وبعدها، وقد مرت أربعون عاماً، أشعر بأن ثمة قدر أراد لنا أن نقترب في زمن ما.... غادرنا التافيرنا ورحنا نقطع الطريق الى الفندق سيراً على الأقدام....

من الصعب ان يتذكر الانسان، خاصة إذا ما كان مهملاً في تدوين ما حدث قبل أن يغوص في قاع الذاكرة، تفاصيل ذلك الحوار البالغ الفائدة... غير أن الغد كان يحمل لنا الكثير مما لا ينسى!!

□ □ □

ولقد جاء الغد مشرقاً لا سحب فيه ولا رياح وكانت الشمس ساطعة والجو دافئاً وسطح البحر يبدو ساجياً وكأنه يرحب بالمبحرين.... في الحادية عشر كان " الكوتر " . الكوتر هو قارب كبير يكاد يكون يختاً شعبياً، فأنت فيه تجد مكاناً لكل شئ، من الطعام الى الشراب الى مواد التسلية الى الوسائد المريحة الى كل وسائل الراحة . وكان الحديدى هناك في الانتظار وقد امتلأ اليخت الصغير بأعواد القصب وصندوق الشراب البارد والترمس والحمص و... وكل ما يحتاج اليه اثنان لنزهة يقضيانها ليوم كامل.... فوجئ الحديدى بأن العدد قد زاد بوجود الراحل ابراهيم عبد الحليم وقرينته،

تبادلنا نظرة أكد الرجل فيها أن كل شئ سيكون على ما يرام، وبينما نحن ننتقل من الرصيف الى القارب الكبير كان الرجل يصدر أوامره بان يلحق بنا مزيد من التسالي في قاربه الصغير.... "طس" القارب - أي بارح الرصيف - الي عرض الميناء في جو شتائي دافئ كالحلم... بدا يوسف إدريس مثل طفل سعيد وهو يقف في منتصف القارب المبحرمتلفتاً يمنه ويسره، وجلس ابراهيم عبد الحليم في المؤخرة وهو ينظر الي الدنيا - كعادته - من عل...

بدأ اليوم بأكواب الشاى التي أعدها الحديدى بعد أن تسلمت منه زمام "الدفة" وحبال الشراع، تناثرت الاحاديث بين الجميع دون أن يشارك فيها الرجل، مرت ساعة ولحقنا القارب بمزيد من القصب والترمس وورقة ملفوفة بدت لي غامضة... كنا منهمكين في مص القصب عندما هتف الحديدى فجأة:

"الا قولي لي يا دكتورا"

التفت يوسف نحوه رافعاً حاجبيه:

"خير يا ريس حديدي!"

" إلا أنت - لا مؤاخذه يعني - عاوز من الدينا ايه؟!"

كان السؤال مباغتاً، لم أكن قد نقلت الي يوسف ما قاله الحديدى عنه، تلاقت نظرات يوسف بنظرات ابراهيم الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، هربت بنظراتي الي بعيد متشاغلاً بالدفة وملء الشراع بالهواء....

كان الحديدي يجلس الان في مقدمة القارب وهو يشعل نار الراكية كي يعد لنا قليلاً من الكبد الاسكندراني نتبلغ بها حتي يحين موعد الغذاء، كانت اللفافة الغامضة تحوى كمية من الكبد الطازج... في وسط القارب مائدة امتلأت بما لذ وطاب، طال الصمت لثواني قال بعدها يوسف:

" طب انت عاوز منها إيه يا ريس حديدي؟!"

" عاوزها تديني على مهل وتأخذ منى بالراحة!"

هتف يوسف متحدياً:

"وإذا ما اديتكش؟!"

"نحايلها!"

وقال ابراهيم عبد الحليم:

" وليه ما تاخدش حقك بالدراع!"

التفت الحديدي نحو ابراهيم فتلاقت نظراتهما لثوان، انتقل الرجل بعينيه نحو يوسف فهتف هذا:

" ماترد ياريس!"

ترك الحديدي ما في يده واستدار بجسده كله نحو يوسف، قال:

"لا مؤاخذة يا دكتور ، آني لسة ما فكيتش الخط قراية وكتابة، وانما الدنيا علمتني ازاي نقراها !"

سأله ابراهيم:

"وقريت أيه يا ريس حديدي؟!

نهض الرجل واقفاً، استقام عنقه فبدا في هيئته تلك وكأنه صاري آخر زرع في قلب القارب، تلفت حوله فإذا رأسه كرأس سمكة عملاقة، زفر زفرة حارة قال بعدها:

" البني آدم منا فيه قوة تهد جبال، والافندي - قالها مشيراً نحوي - بيقول أن القوة هنا - وأشار الى رأسه - لكن آني بنقول أن القوة دي على قدها مهمن كانت.... القوة التي تخليك قادر على الموج وراكب الريح وآمر البحر، هنا!!"

قال هذا وهو يشير الى صدره ، ثم عاد الى ما كان فيه مستطرداً:

" لكل أجل كتاب على عيني وراسي وده كلام مفيهوش كلام يتقال... انما الكتاب لحد ما تخلص أيامه، ازاى تاخد الدنيا فى حضنك وتهننها لأجل ما ترضى عنك وتهننك؟!"

سأله يوسف وقد ساد الصمت:

"أنت عندك كام سنة؟!"

"قدك مرتين!"

هم يوسف بالحديث فأردف الرجل:

" ده حساب السنين!"

كانت الجملة حاسمة، كما كانت واضحة المعنى سافرة القصد ، لكن يوسف سأل مكابراً:

"تقصد إيه؟!"

عاد الرجل الى الراكية المشتعلة من جديد وهو يقول:

"آني ركبت البحر وأنا ابن سته!"

هم يوسف بالحديث فالتفت الحديدى نحو ابراهيم عبد الحليم سائلاً:

"تقدر تكلم الموج؟!"

"يعنى إيه؟!"

هكذا سأل ابراهيم، فقال الحديدى:

" آني بتتكلم مع الموج وبنشخط فى الريح تكن!"

قال هذا ثم دق فوق خشب القارب مستطرداً:

"وبيني وبين الخشب ده، ود ما يعرفوش الا اللى خلقنا سوا!"

كنت أعرف هذا ، كنت قد رأيته وسط الرياح العاصفة وهو يقود القارب

بحذق لا يستطيعه سواه، كان يحدث الريح، اذا ما اشتدت، متحديا، ويواجه الموج كموجه لا يشق لها غبار... كان يخوض بقاربه الصغير عواصف لا يستطيع الآخرون مواجهتها، وما من مرة خرج فيها مهزوماً.. بينه وبين الطبيعة حوار لا ينقطع، حتى اذا ما كانت الرياح مواتية والبحر ساجيا، كنت أشعر يقينا أن بينهما غزلاً ومحبة... هذا هو الحديدي الذى قال فجأة مواجهاً يوسف إدريس وهو يضع أمامه طبق الكبد الاسكندراني الشهى، مع أرغفة خبز طازج:

"شوف يا دكتور، كلمة حطها في ودنك حلق ما تقلعوش .... خلي بالك من روحك وبلاش تستعجل على الدنيا... خد منها على مهل، تاخد أكتر!!"

وكان يوسف في تلك اللحظة، ينظر الى الحديدي وقد اتسعت عيناه دهشة ترجمها الى ضحكة مجلجلة أطلقها في سماء الميناء... ورغم انقطاع الحوار، الا أن الحديدي، بعد الغذاء استأنفه من طرف واحد، وكان أستاذاً في علم الحياة!

To: www.al-mostafa.com

٧

الذى لا شك فيه، أن الحوار الذى دار بين يوسف ادريس والريس حديدى فى ذلك اليوم ، كان شيئاً بالغ الأهمية بالنسبة لى... ففى تلك الأيام، كان العلم هو الراية التى يرفعها المثقفون فوق رؤوسهم، كما كانت الاتجاهات السياسية هى الحاكمة لكل شئ... وإذا كان الرواد العظام مثل طه حسين وهيكل والمازنى وأحمد أمين والعقاد والحكيم والزيات قد قاموا بواجبهم فى مرحلة سابقة، فلقد كانوا الآن فى ذروة رجولتهم وعطائهم أيضاً... غير أن جيل الشباب كان يبزغ مثل شمس حارقة، وكان لشباب الثورة دورهم المؤثر فى تلك الحركة المتأججة... ولقد كان يوسف أدريس واحداً من هذا الجيل الذى أنتمى اليه، ولم يكن تميزه بسبب موهبته أو أفكاره السياسية فقط، ولكن التميز جاء من احتكاكه مع تلك القمم فى القاهرة.... ومهما كان القول، فلقد كانت القاهرة بوتقة تنصهر فيها كل مقومات الفكر والحياة بشكل يختلف تماماً عن الأقاليم بما فيها الاسكندرية... ولذلك، فلقد كانت المباراة بينه وبين الريس حديدى، شيئاً ممتعاً بحق... فهذا طبيب مثقف اعتصرته التجربة ـ رغم صغر سنه ـ فى القاهرة فأضافت اليه الكثير... وهذا رجل يملك من التجربة الانسانية ما يجعله فى موقف الند، بل قد ترفعه تلك التجربة الى مستوى "التفلسف" دون أدنى قدر من المبالغة!

أما ابراهيم عبد الحليم. فبالرغم من مشاركته الجزئية في الحوار، الا أنه كان ينظر الى الاثنين معاً، وكأنهما طفلان يتناظران أمامه، وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله لم يهتم الحديدي كثيراً بعد الحوار اليه!

من العبث أن أتذكر تفاصيل الحوار، وإذا كان هناك تقصير في الأمر، فأنا أعترف أني لم أدون حرفاً مما جرى اعتماداً على ذاكرة كانت ذات يوم قوية، فإذا ما وجدت فيها - في الذاكرة - مناطق شاسعة قد خلت ، وإذا كانت التفاصيل قد ابتلعتها الأيام... الا أن الخطوط العريضة لا زالت هناك تتوهج في الوجدان غير قابلة لأن تتحول، رغم السنين، الى رماد!

□ □ □

وعلى كل... فلقد كانت ضحكة يوسف إدريس تلك التي أطلقها فسبحت في سماء الميناء، إيذاناً بافتتاح وقت للمرح انبعث من حيث لا ندري... رحنا نأكل ونشرب وغص القصب ونطلق النكات والقفشات... ومضت ساعة وساعة والقارب يبلط - يروح ويجيء - بنا في الميناء لا يتوقف، وأنتصف النهار وأوغل فيما بعد انتصافه فشاع الدفء في الدنيا، وإذا نداء يأتينا تحمله ريح رخية:

"يا ريس حديداااي!"

رفع الحديدي رأسه متجها بها الى حيث جاء النداء ملبياً:

"مرحب يا حودااا!"

وكان حودة مبحراً بالقارب الصغير نحونا حاملاً طعام الغداء مع مزيد من المشروبات الباردة والتسالي... وكانت المناورة، فيما بين الكوتر والفلوكة مثل غزل يمارسه القاربان فوق سطح مياة مستكينة، تراقص كل منهما حول الآخر، حتى اذا ما حانت لحظة اندفع كل منهما في عكس اتجاه

صاحبه، كي تتلامس الأجناب فيمسك هذا بالفلوكة، ويمسك ذاك بالقارب، وسرعان ما انتقلت وجبة السمك إلينا!

"بسم الله!"

هكذا قال الحديدى وهو يفض الأوراق عن وليمة سمكية فيها ما لذ وطاب... اندفعنا الى الطعام وكأننا لم نأكل منذ أيام ، تعالت الضحكات وكان المرح هو السيد فى تلك اللحظات، لم يشاركنا الحديدى الطعام فاحتججنا لكنه قال:

"ما هو لازمن واحد تبقى عينه على السكة لأجل الباقى ياكل وهو مطمئن!"

هل كان الرجل يعنى ما يقول ، أم أن قوله جاء عفو الخاطر؟!

ظل جالساً فى مكانه عند مؤخرة السفينة ممسكاً الدفة بيد، جاذباً حبال الشراع باليد الأخرى، مساعداً يديه إذا ما احتاج الأمر بأصابع قدميه... بدا لى الحديدى فى تلك اللحظات برأسه المشرعة وجسده الراسخ مثل تمثال عبقرى لفنان لا يبارى... عندما شكره يوسف قائلاً أن السمك كان لذيذ المذاق، قال الحديدى:

"ده صيد البكارى يادكتور!"

وكان يعنى أن السمك تم اصطياده فى الصباح الباكر قبل أن تلقى فى المياة شبكة أو سنارة... رحنا نبحر هنا وهناك قاطعين الميناء شرقاً وغرباً، رسونا على حاجز الأمواج لدقائق تسلقنا فيها الحجارة كى نواجه البحر المفتوح أمامنا الى مالا نهاية، ثم مالبث الحديدى أن اندفع نحو باب البوغاز حيث المياة هنالك تتلاطم عند ذلك الممر الضيق، داهمتنا موجة رفعت مقدمة القارب الى أعلى فتناثر رذاذها كالمطر فانطلقنا ضاحكين فى سعادة

خالصة، كان يوسف أدريس مرحاً كطفل أدخلوه مدينة العجائب، طلب مني الحديدي أن أحل محله ففعلت، في دقائق خاطفة، عاد المكان الي ما كان عليه... بعد الطعام يحلو الشاي خاصة إذا ما صنع فوق راكية تتوهج نيران الفحم فيها كحبات من زمرد متقد ... ران علينا، مع الشاي، سكون هادئ، راح كل منا يغرق فيما كان فيه، وإذا الحديدي، علي غير انتظار يطلق عقيرته بالإنشاد بصوت كهزيم رعد موسيقي:

يا زارع الصبر غربله ونقيه
دا المركب اللي انشرخ إوعك تسافر فيه
لو كان مركبك دهب، الموج حايلعب بيه!!

ازداد الصمت صمتاً والسكون سكونا والتفتنا نحو الحديدي وقد استولت علينا دهشة مفعمة بالامتنان، عندما التقت نظراتي بنظرات يوسف وجدت عينيه تبرقان وكأنهما تحولتا الي مصباحين مضيئين، ترددت نظرات ابراهيم عبد الحليم بيننا متسائلة، لكن الحديدي عاد ينشد من جديد:

ناس تداريها الهدوم
ولا حد يعرف جوه الهدوم إيه؟!

كانت الشمس الآن تميل نحو الغرب، والقارب الكبير قد سدد مقدمته فى طريق العودة... ومن حولنا كانت القوارب الصغيرة متناثرة فوق سطح المياه والرجال «بريشون» غدوا ورواحاً، هذا وقت صيد العصاري، حيث يسعى سمك المياس خلف الصنارة الخالية من الطعم المكسوة بريشة تبدو، مع أندفاع القارب، وكأنها سمكة صغيرة... هذا هو صيد المياس المثالي، تخرج السمكة من المياة مثل عروس في ليلة زفاف، قوام متناسق لا ترهل فيه ولا

دهون... بكر هي، جسد مشدود ولحم شهي، وتتعالى في الفضاء أصوات الرجال في تحية واجبة:

"مساء الخير يا برعي!"

"ترزق يا معلمي!"

"عامل أيه يا قوتلي؟!"

"كله على اللي فوق!!"

ويأتي من بعيد نداء يطلب من الحديدي المزيد من الإنشاد:

" سكت ليه عن القواله يا ريس حديدي؟!"

ويأتي رد الحديدي انشاداً كأنه تراتيل عابد:

ابعد عن الشر تصبح من الشرور خالي
وابعد عن الشر يصبح مكانك عالي

هتف ابراهيم عبد الحليم وقد أخذته النشوة:

"الكلام ده لازم يتنشر"

فرد عليه الحديدي:

يا فاعل الخير بكرة الخير حا تشوفه
واللي تسيبه اليوم بكرة حاتشوفه
وما دام تعادي الشيطان، الشر ما تشوفه!

وراح القارب الكبير يجتاز بوغاز النورس حيث الرصيف العتيد يمتلئ في مثل هذا الوقت من كل يوم، بعشرات من طائر النورس. تطير وتحط وتصفق بأجنحتها وتصيح صياحاً يتحول، إذا ما دققت السمع، الى نغم سماوي...

كنا جميعاً صامتين لانملك أمام هذه التراتيل الفنية الا الاستماع في

خشوع... وبينما كان القارب يدور دورته الأخيرة حتى يحاذى الرصيف ويرسو عليه، كانت عقيرة الحديدى تلعلع:

يا عابد المال هو المال بيعلى
دا الدنيا لما تولى لا تبقى و لا تخلى
يابن آدم اعمل حسابك... قبل الدنيا ما تولى!!
... ...
... ...

تمايل يوسف إدريس كعادته إذا ما كان فى حالة نشوة، وأنا أودعه أمام باب الفندق وهو يقول:

«أنا مش عاوزك اشكرك! »

« ولا أنا عاوز تشكرنى !! »

«أشوفك.... ... .. »

قاطعته:

"بكرة على الغداء، عندى فى البيت!"

فابتسم، وضمنى اليه!

□ □ □

فى اليوم التالى جاءنى يوسف ادريس حاملاً حقيبة ملابسه الصغيرة، فلقد كان قد انتوى السفر فى قطار الرابعة والنصف...

وقف فى منتصف غرفتى متأملاً المكتب الصغير والمكتبة المتواضعة، جلس على حافة الفراش فى استرخاء وراح يتحدث معى عما عاشه فى الأيام التى انقضت... كانت عبقرية يوسف إدريس تكمن فى قدرته الفذة على التقاط أبسط الاشياء وربما أصغرها حجماً - إن صح التعبير - ثم ترتيبها

وضعها في نسق لا يستطيعه سواه... تحدث طويلاً عن شارع السبع بنات وبوظة شلوفة وأبي جمعة والحديدي وهذا الشعر المرسل... كان كتاب «الفلسفة اليونانية» للراحل العظيم يوسف كرم، موضوعاً فوق المكتب، أمسك بالكتاب وقلب صفحاته ثم رفع رأسه نحوي سائلاً:

"أنت ناوي تكتب قصة امتى؟!"

وابتسمت، أحسست قلقه من أن تكون دراستي في كلية الآداب قد اجتذبتني بعيداً عن الفن، فقلت:

" مانا بعت لك قصة من حوالي أسبوع حسب طلبك!"

لست أدري كيف أرسلت له هذه القصة التي كانت تحمل اسم "الطريق الطويل"... ربما كنت أريد أن أعرف من أنا من كتاب القصة، ربما لأنه طلب ذلك مراراً في خطاباته... وعلى كل فلقد فاجأني بقوله:

«يعني كل الشهور دي ما كتبتش الا قصة واحدة؟!»

لم أجب على سؤاله ، لكني فتحت درج مكتبي وأخرجت منه صفاً هائلاً من القصص، هتف في دهشة:

«ايه ده ؟!»

"قصص!"

"كل دي قصص؟!"

قلت وقد داخلني ذلك التوتر الذي يصيب المبتدئ:

«أنا بحب كتابة القصة يابو حجاج!»

«أنا ما كتبتش قصص كتير بالشكل ده!»

«وهي المسألة مسألة كم ولا كيف؟!»

كانت المعارك الأدبية المستعرة في تلك الأيام تدور حول الكم والكيف

والشكل والموضوع... وفي هذا الزمان، كانت تلك المصطلحات الفنية لا زالت جديدة على الأذهان، ما أن قلت ما قلت حتى هتف ساخراً:

"طب ما تدينى شوية من اللى أنت كتبته!"

ترددت لثوان، ضايقتني سخريته، غير أني حسمت الأمر بيني وبين نفسي،"ليكن ما كتبته بلا قيمة، ليكن مجرد أحاسيس مراهق كما قال لي في خطابه الأول... كنت أريد أن أعرف حقاً، من أنا؟!

انتقيت أربع قصص وقدمتها له قائلا:

"أنا لي رجاء!"

"اتفضل!"

"أنا مش في حاجة لأي مجاملة!"

تناول القصص دون أن يجيب... وكان موعد الغداء قد أزف!

... ...

... ...

كان الوداع في العصر رقيقاً... قبل أن يصل القطار التفت نحوي متسائلاً:

"أنت قاعد في اسكندرية تعمل ايه؟!"

وكما كان السؤال مباغتاً، فهو أيضاً كان يخاطب حواراً في صدري راح يحتدم يوماً بعد يوم... ولم أرد، مس السؤال وتراً شديداً الحساسية لم يكن هناك من يعرف عنه شيئا حتى أقرب الناس إليّ

... وصل القطار فصعد اليه بعد أن تصافحنا في حرارة، ظللت في مكاني كما ظل في مكانه بالباب حتى تحرك القطار، ما أن ابتعد امتاراً حتى هتف:

« أنا منتظرك فى مصر يا ابو الصلح! »

و... وابتعد القطار!

□ □ □

بعد أربعه أيام فقط، وصلنى منه خطاب من أربع صفحات كاملة.

«عزيزى صالح ...

«بالتاكيد لم يكن فى نيتى ان أكتب اليك الآن على الأقل، ولم يمض على وصولى الى البيت اكثر من ساعه «زمن» ...ولكن ماذا افعل وقد كانت قصتك فى انتظارى...»

«أنا أعرف طبعا أن رأيى فى قصتك الآن أهم لديك من سماع كلمات الشكر التى كان فى نيتى ان أبعثها اليك رداً على الاقامة الجميله التى اتحتها لى فى الاسكندرية، فليكن ... سأقول لك رأيى فى القصة لاريحك! »

وعلى مدى الصفحات الأربع الممتلئة من قمتها الى أدناها، كانت هناك تسعة بنود «قصص» فيها القصة والأبطال والأحداث جميعا... بنود كان لها فضل كبير لا لمعرفتى لحرفيه القصة القصيرة فقط، ولكن، لمعرفه يوسف ادريس نفسه.

غير أنى لم أكن أدرى، أن خطاباً آخر سوف يصلنى قبل انقضاء ثمان وأربعين ساعة، خطاب كان يناقش القصص الأربع ... لكنه، وهذا هو الأهم، حسم ذلك الحوار الذى احتدم فى صدرى طويلا كى اتخذ موقفاً، كان ـ بكل مقاييس هذا الزمان ـ موقفاً مجنوناً!

٨

والآن ...

الآن أجدني أقف عند حد فاصل في حياتي.

حد فاصل بالنسبة للمستقبل كله ...

وحد فاصل بالنسبة لعلاقتي بيوسف ادريس!!

أما بالنسبة لحياتي، فلقد جاءت نتيجة «التيرم» الأول في الجامعة، مفاجأة كاملة لي ... لقد نجحت، وجاءت درجه نجاحي باعثة على السعادة والفخر معاً رغم اني كنت منتسباً ولم اكن منتظما في الدراسة... كان الفضل يعود الى تحسين مصباح الذى لم يكف عن مناقشتى كلما لجأت اليه، وثمة فضل آخر لمحمود المسلماني الذى كان تلميذاً لتحسين فأصبح صديقا لي يمدني بالمحاضرات أولاً بأول، والمناقشات التى كانت تحدث بين الأساتذة والطلبة، والمفارقات والنوادر والقصص ... ثم، ثم كان هناك هذا الشغف الشديد بالفلسفة، ذلك الشغف الذى اشتعل وتأجج وقد أصبحت المعلومات التي كنت قد اختزنتها من قراءاتى ذات نسق واضح ومنهج محدد... أما علم النفس فكان قصة وحدها، وكان علم الاجتماع فرعاً جديداً من العلوم فتح أمامي نافذه جعلت الأشياء - في ذهني - تكتمل تدريجيا لتصبح النظره الي الحياه متكامله !... غير أن هذا - من ناحية أخرى -

جعل حياتي فى البحر أمراً مستحيلا بكل المعاني، لا لأني كنت أميل الى الانتساب لعالم الأدب أو الصحافة فقط، بل لأني كنت قد بدأت أشعر أنني «عالة» على هذا السلاح الذى أبى رجال فيه ان يحدوا من طموحاتي، وأبوا الا أن يعطوني الفرصة كاملة كي أتفرغ لما كنت قد استغرقت فيه!

ومهما كان الأمر، فتلك معركة لم تكن سهلة، وكان السؤال الذى يطرح نفسه دائما هو:

وماذا بعد؟!

ماذا بعد أن أترك البحر؟!... ماذا أفعل ؟! ... أين أعمل؟!

وإذا كانت الكتابة هي هوايتي، والقراءة هي غذائي، فهل هناك من كان يضمن لي أن أجد عملاً يحفظ على هذه الهواية، ويحفظ لي هذا الغذاء؟!

عشرات الاسئلة كانت توجه الي من كل المحيطين بي... والغريب فى الأمر، الغريب الذى كان يمزقني حقاً، هو ان الجميع بلا استثناء رفضوا ما كنت أميل اليه بما فيهم تحسين مصباح أقرب الجميع الى عقلي، اما فوزى عامر، فلقد كانت ثورته عارمة، واعتراضة صارماً وهو يتهمني بالجنون!

وجدت نفسي أقف أمام سد هائل وربما منيع ، وكان لابد من اتخاذ القرار وحدي!

بعد أسبوع أو أكثر قليلا ... وصلني خطاب آخر من يوسف إدريس.

وهنا، أحب أن أعود الى خطابه الأخير الذى كان قد وصلني عقب سفره مباشرة.

كان هذا الخطاب الذى ناقش فيه قصة «الطريق الطويل» ولازال حتى الآن، يمثل لي ذلك الصدق المبهر والحب الغامر للفن ... كانت ملاحظاته التسع التي أوردها، تتناول كل شئ فى القصة، من الأحداث الى

الشخصيات الى البناء الى الأسلوب، بحيث كان بالنسبة الي في ذلك الوقت، مثل مصباح ينير لي الطريق الى كتابة القصة من وجهة نظر رجل لا تملك ان تشعر بأن حياته ليس فيها سوى هذا النوع من الفن... ولذلك، فعندما ودعته في محطة سيدي جابر قبل حوالي عشرة أيام وكان يحمل معه أربعاً من قصصي، لم يخطر ببالي قط أنه سوف يهتم بقراءة القصص الأربع... واذا كانت قصه واحدة قد استغرقت منه تسعه بنود في أربع صفحات كاملة، فما بالك بأربع قصص ؟!

ولذلك، فلقد كان وصول خطاب آخر من يوسف إدريس بعد حوالي عشرة أيام من رحيلة، مفاجأة بكل ما تحمل الكلمة من معني... ولم تكن المفاجأة انه قرأ القصص جميعا، ولكن المفاجاة كانت فيما حمله الخطاب من رأي!

وأنا، إذ أقدم على نشر هذا الخطاب كاملاً، لا أنشره تيها أو مباهاة، انما انشرة لكي أسجل صورة لما كان عليه هذا الجيل من رواد أدبنا الحديث في التعامل به مع من كان مثلي مبتدئاً لا يعرف بالضبط أين مكانه في هذا العالم الذى كنت أنتمي اليه... وكيف أنهم لم يضنوا أبداً على أحدنا بالمساندة أو التشجيع أو النقد اللاذع اذا اقتضى الأمر...

أني أرى، بعيدا عن ذاتي، أن هذا الخطاب وثيقه توضح للأجيال التي صعدت في سلم الفن درجات، كيف يجب أن يتعامل السابقون مع اللاحقين، وكيف يتعامل المتمرسون مع الذين يحملون مواهب جد غضة، وكيف - أخيراً - كانوا يشجعونهم ويأخذون بأيديهم ويفسحون لهم الطريق.

... ...

... ...

«عزيزي صالح

«قرأت «زقاق السيد البلطي»، و«الحياة تسير» و«خمر وناس» و«الأمواج»، وحين قرأتها تغير رأيي فيك تماما، فأنت لست بكاتب قصة فقط، ولا أنت مجيد فقط، ولكن مستواك غير عادي في الكتابة، انت فنان!

حتى الخطب والحكم التي تبدأ بها قصصك والتي لا داعي لها مطلقا، حتى هذه ضاع أثرها في الفيض الدافق من الاحساسات الحية التي أوردتها في قصصك. أنت بقصصك هذه قد وضعت قدمك على أول الدرج، وبدت فيها موهبتك الفطرية كقصاص، والباقي ليس بالأمر السهل أبداً، الباقي كفاح رهيب لتصعد السلم قدماً، وتضيف الى موهبتك كل ما تستطيع إضافته من تراث البشرية الثقافي، وتضيف الى تجاربك التي لم تزل غضة، تجارب اكثر عمقا واكثر نفوذا في قلب الحياة الملتهب. انت الآن في يدك مادة خام دسمة، وعليك وحدك تشكيلها، قد تصنع منها بهلوانا، وقد تصنع منها مسخاً، وقد تصنع كاتباً عظيماً، وأريدك ان تصنع هذا الكاتب. أريدك ان تقرأ وتعيش وتكتب، وأريدك ألا تمل القراءة والعيش والكتابة، فبهذا وحده ستستطيع أن تضيف الى تراث البشرية الثقافي شيئا، وتضيف الى الأدب الإنساني مادة جديدة!

هذا عن نفسك، اما عن قصصك، فضم الزقاق الى الحياه تسير وأعد كتابتهما وأجهد نفسك كثيراً وابتكر واجعل منها ملحمة واحدة خالدة، سأحاول نشر قصه الأمواج، فقط أرجو أن ترسل لي منها نسخة مكتوبة بخط يدك، أما خمر وناس فهي اكبر من ان تسعها مجلة او صحيفة، ولست

أدري ماذا أفعل فيها، وأرجوك ان أوفق فى اعطائها لاحدى المجلات الأدبية. وأرجو منْ ناحيتك ان ترسل بعض قصصك الى مجله الاديب أو الآداب فى بيروت.

والحقيقة انت لست فى حاجة الى مساعدتى لكى تنشر، ان قصصك فى حد ذاتها تحمل معها بطاقات توصية كثيرة، انى أحييك وأشد على يدك وأرجو ان تبلغ السيد الوالد تحياتى واحتراماتى.

المخلص. يوسف»

اذكر هذا اليوم، يوم وصول هذا الخطاب، جيدا... أذكره واتمثله وأنا أكتب هذه السطور فكأنه حدث بالأمس، ومع الدهشه الممزوجه بسعادة لاحد لها، أحسست بالخوف والاشفاق معاً!

أحسست بالخوف مما يمكن ان يحمله لى المستقبل من مفاجآت... كان ما جاء فى الخطاب يحسم فى صدرى ذلك الصراع الذى احتدم احتداماً شديداً فى الأيام الأخيرة... فماذا لو تركت البحر والوظيفة المضمونة والحياة الآمنة، وألقيت بنفسى فى خضم الغيب الذى لا أعرفه ... ماذا لو انى فشلت؟!

وكان الاشفاق من جهد كنت موقنا انى لابد أن أبذله، لا فى العمل الذى لا أعرف عنه شيئا ان وجد، بل فى التحصيل والمتابعة، وفوق كل هذا، فى المذاكرة لاجتياز سنوات الدراسة فى الكلية!

كنت جالسا وحدى فى غرفتى البسيطة تلك... كان مقعدى خلف المكتب يواجه شرفه صغيرة تطل على الطريق، وكانت الشرفة مغلقة، والصمت عميقاً، والخطاب أمامى عندما دق الباب دقة واحدة فتح بعدها كى يطل منه والدى رحمة الله عليه.

كانت نظرة واحدة منه تكفي لأن يعرف ان في الأمر شيئا ، فظن - هكذا قال لي فيما بعد - ان رأي يوسف في قصص جاء محبطا ، فابتسم متسائلا:

«إيه الحكاية ؟!»

نهضت اليه بالخطاب وقدمته له وعدت الى مكاني، وضع منظاره الطبي فوق عينيه وراح يقرأ... رحت أتامل أساريره التي كانت تنبسط لحظة بعد أخرى، حتى اذا ما انتهى من قراءة الخطاب، تقدم من المكتب، ووضعه فوقه، واطال النظر اليّ طويلا وكأنه استشف ان القرار قد اتخذ وانتهى الأمر.

«ربنا معاك!»

هكذا قال وهو يغادر الغرفة دون كلمة أخرى.

□ □ □

في اليوم العشرين من ديسمبر عام ١٩٥٥، انقطعت كل علاقة لي بالبحر... في هذا اليوم أصبحت حراً، وكان الأمر يتطلب الكثير من الصبر والتفكير كي أتعود على حياتي الجديدة... أرسلت الى يوسف خطابا أخبره فيه بما فعلت، فجاءني منه الرد بعد أيام.

ولابد لي من الاعتراف ان هذا الخطاب هو الوحيد ليوسف ادريس الذي لم أعثر عليه، وان كنت احفظ جملة جاءت فيه عن ظهر قلب... وعبثا رحت أقلب في أوراقي القديمه وتلك الخطابات التي احتفظت بها... غير اني موقن من أن هذه الجملة جاءت في الخطاب : «... ... لست ادري يا صديقي ماذا تفعل في الاسكندرية وقد أصبحت خالي شغل، تعالى الى القاهرة، وارم

بنفسك في البحر ولسوف تتعلم العوم أيها البحار السابق!»

حلاوة الجملة هي التي حفرتها في الذاكرة فلم تغادرها حتى اليوم ... ورغم هذا، فلقد كنت لا أزال متردداً... وطال ترددي نيف وثلاث أشهر، ففي يوم الثالث من مارس عام ١٩٥٦، كنت أحمل حقيبة صغيرة، وأضع نفسي في قطار الرابعة والنصف، وكنت في طريقي الى المجهول!!

□ □ □

ولقد يسأل سائل: لماذا تتوقف في ذكرياتك عن يوسف ادريس عند هذا الحد؟!

واقول دون تردد:

ان هذه الأيام القليلة، وتلك الخطابات المعدودة، كانت هي الأساس الذي بنيت عليها علاقة من أجمل علاقات الصداقة في حياتي... ولقد جرفت كل منا أمواج الحياة، غير أن يوسف ادريس كان دائماً هناك، مهما باعدت بيننا الأيام، حتى اذا ما التقينا هبت من القلب عاصفة من الحب لا تخفى على أحد منا!

غير ان الصدق مع النفس، يدفعني الى التوقف أمام واقعه حدثت بيني وبينه.

ففي تلك السنوات الأخيرة من العقد الخامس من هذا القرن، كانت موهبة يوسف ادريس قد تألقت تألقاً فريداً... وكان يكفي ان تنشر له قصة في أية جريدة أو مجلة، حتى تصبح حديث الناس ... ولقد أثر يوسف في الكثيرين من كتاب القصة، ولقد كنت واحداً من الذين تأثروا به لردح من الزمان ... لم أكن معجباً به فقط، بل كنت مفتونا

بقــدرته الفذة على القص... حتى اذا كان يوم كتبت قصه بعنوان «المولد» ونشرت القصـه فى مـجلة الهدف، ورغم أنى كنت أعمل بالمجلة، ورغم أنى راجعت القصة قبل طباعتها، فما ان صدر العدد حتى رحت أقرا القصة من جديد، هذه عاده لازمتنى حتى اليوم، فانا أول قارئ لى، وأول من ينتقدنى، أقرا لى وكأنى غريب عنى ... هى عادة افادتنى كثيراً، وعلمتنى كثيراً ... ذلك ان عيوب اى عمل، مهما كانت صغيره تبدو لى فى هذه القراءة صارخة وزاعقه!

ولذلك، مـا أن صـدر ذلك العدد من «الهـدف» حـتى رحت أقـرأ القصه، واذا بى أصاب بالفزع؟... وجدت نفسى أمام تقليد يكاد ان يكون محكماً لأسلوب يوسف ادريس... ولقد استغرق الأمر بعض الوقت حتى استطعت ان اتمالك نفسى، رفعت سماعة التليفون وطلبت يوسف، فطلب منى الحضور!

كان يومها يقطن فى شارع محمد عز العرب ... وعندما فتح لى الخادم، وجدته لا يزال فى الفراش، ألقيت عليه تحية الصباح وكانت المجلة فى يده وكان يقرأ قصتى مستغرقاً.

بعد ان انتهى من قراءة القصه، سألته:

«ايه رأيك ؟!»

«كويسة!»

مضت لحظة صمت سألته بعدها :

«مش ملاحظ فيها حاجه؟!»

وإذا به يطلق ضحكه صاخبه خلت أنها تنتزع قلبه انتزاعاً، وسرت عدوى الضحك الى فرحت أنا الآخر أضحك معه حتى دمعت عيناى. وجاء الخادم

بالشاى، فرحنا نحتسيه دون ان نناقش الأمر أو نخوض فيه مرة أخرى .
ولذلك، ففى كل مجموعات القصص التى صدرت لى ، لن يجد أحداً قصه تحمل عنوان «المولد» !!

□ □ □

... ثم يبقى أن أورد ثلاث مواقف حدثت فى السنوات الأخيرة.

فعندما عرضت الحلقة الأولى من مسلسل رأفت الهجان، ومع نزول التيترالأخير، دق جرس التليفون، وكان المتحدث هو يوسف ادريس، جاءنى صوته هاتفا منفعلاً:

«فيه حد كلمك قبل منى؟!»

«أبداً . ده أول تليفون !»

«انا كان يهمنى جداً انى اكون أول واحد يهنيك على العمل الرفيع ده !»

ولدقائق طالت بعض الشئ، راح يوسف يحدثنى عن الروايه التى تابعها عندما كانت تنشر مسلسله وعن قراءته للجزء الأول الذى كان قد صدر فى كتاب أرسلته اليه باهداء يقول:

«الى يوسف ادريس بدون القاب ، فالاسم فى حد ذاته لقب!»

وكنت أعنيها !!

ثم ...

وقبل رحيله الفاجع التقينا ذات مساء فى ندوة عقدت فى احدى القاعات الفاخره ، ولقد فوجئت ذات خلوة غير محسوبه بيوسف أمامى ، وكان الأمر، بالنسبه اليه ايضاً مفاجأة ، وانطلق من كل منا صياح بالحب ... وكان من حظى ان زميلاً مصوراً أدهشه صياحنا ، فلم تفته اللحظه، والتقط لنا صوره لا زلت احتفظ بها فى درج المقتنيات الثمينة !!

أما آخر ما وصلني منه ، فكانت مجموعة قصصه الاخيرة التى تحمل عنوان «العتب على النظر» ، اما الإهداء فكان :

«إلى العزيز عليّ حقا وصدقاً، الى صالح مرسى، امتنانا لموهبته التى أسعدت الملايين، مع حبى ، ولم يكن التوقيع كما تعودت منه يوسف فقط بل كان «يوسف ادريس» مع التاريخ ١٧/١/١٩٨٨

رحم الله يوسف إدريس وغفر له ... فلقد كان موهبه نادره بحق، وكان رائداً ألهب ظهور جيله والأجيال المواكبه واللاحقة بسياط موهبته الفذه ... وكان رجلاً يحمل فى صدره قلب طفل، ولذلك ... فإن هذا القلب لم يحتمل معاناة رجل فى اكتمال فناننا العظيم الذى رحل عنا مبكراً.

يوسف السباعى

الفارس والاديب

١

لعل أديبا معاصراً لم يحظ بمثل اختلاف الآراء من حوله ، مثل الراحل يوسف السباعي ... ولم يقتصر هذا الخلاف على أدبه فقط ، ولكنه تعداه إلى شخصه أيضا ... ولعل شخصية يوسف السباعى وذلك المزيج فيه فيما بين الضابط والأديب ، كانت في حقيقة الأمر مثيرة للجدل فى ذلك العصر الذى عاش فيه الرجل ، تماماً مثل أدبه ... فمن منكر لأيه قيمة لهذا الأدب ، الى مؤيد لقيمته لاهج بالثناء عليه ... وإن أنسى لا أنسى ذلك المقال الذى كتبه عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى الجمهورية ، عن إحدى روايات يوسف السباعى ، وكان الرجل بكل ثقله ووزنه فى عالم الأدب ، يثنى على الرواية ثناء لا يخفى ولايتستر وراء لفظ أو جملة !

ولقد لعبت الأقدار دوراً غريباً فى علاقتى بيوسف السباعى ، فلقد عرفته، بريديا ، فى وقت مبكر ... وامتدت المراسلات بينى وبينه لعامين أو أكثر قليلا ... كنا نختلف ، وكان هو يرحب بهذا الاختلاف ويناقشه ... وفى بعض الأحيان ، كانت خطاباته تغيب عنى لشهر أو شهرين ، لكنى كنت دائما ما أفاجأ بخطاب منه ، و دون اعتذار عن التأخير ، يواصل معى مناقشاته فيما انقطع من جدل أو مناقشة !

غير أنى عندما نزلت الى القاهرة ، كنت حريصا أشد ما يكون الحرص

على أن أكون بعيدا عنه ، ان أرقبه من موقع الأديب المبتدئ ، ثم الأديب الذى وضع قدمه على أول الطريق ... ولقد قدر لى أن أعمل معه - فى البداية - لعامين كاملين ، فلم أفكر ، بل لم يخطر ببالى فى لحظة ان أذكره بما كان بيننا من ود ومناقشات ... حتى اذا ماكتشف هو الأمر ذات يوم ، جاءنى ، وكنت اعمل معه فى السكرتاريه الدائمة للمؤتمر الأفريقى الآسيوى، دهشا غاضبا متسائلا :

" ازاى ما قلتليش من الأول ؟ ! "

وكان جوابى يومها ، كما كان دائما ، صريحا ، حاسماً لا لف فيه ولادوران !

غير أن تلك الفترة التى عملت فيها معه ، واقتربت منه دون أن يكتشف ما كان بيننا من مراسلات ، قد أفادتنى كثيرا ، وأكدت لى ان أحداً ممن ناصروا يوسف السباعي ودافعوا عنه وعن أدبه، أو أحداً ممن ناصبوه العداء وهاجموه ... لم ينظر اليه نظره موضوعيه ... وحتى اليوم ، ورغم عشرات القصص والروايات التى كتبها يوسف السباعى ولاقت رواجاً شديداً بين القراء ، فان أحداً لم يفكر فى ارتداء ثوب القاضى ، وان يضع لنا هذا الرجل ، بكل أعماله ، لا الأدبيه فقط ، ولكن أعماله من أجل الأدب والأدباء ، فى ميزان عدل منصف ... أبداً ، وحتى اليوم ، لم يفعل أحدهم هذا !

ولست أزعم انى فى السطور التاليه ، سوف أضع نفسى فى مكانة هذا القاضى أو مكانه ...

ذلك اننى، أولاً لست ناقداً كى أقيم اعماله ، ثم انى - ثانياً - كنت قريبا منه بالقدر الذى سمحت لنفسى به ، ورغم ترحيبه وصدره المفتوح لى

دائماً ، فلقد كنت وهو فى أوج تألقه ، حريصاً على المحافظة على تلك المسافة اللازمة لامتداد العلاقه دون صداقه حميمة، أو جفاء لا لـزوم له !!

* * *

الغريب فى الأمر ، انني كلما تذكرت تلك السنوات التى قضيتها فى الاسكندرية ، وقد اتضحت لى هويتى الأدبية ، أشعر بحنين طاغ لأن أعيش هذه الأيام مرة أخرى ... ذلك أنه بعد اختفاء حسن الحداد فى رحلاته الدائمة فى البحر ، وبعد انشغال علاء الدين فى اعماله التجارية ، وبعد زواج حسن الدريني ... ورغم العلاقة الثقافية التى ربطتني بتحسين مصباح، الا أن إحساسي بالوحدة كان عارماً... كان فوزى عامر رفيق عمر لكنه لم يكن يهتم بالأدب بأى معنى من المعاني ... كما كان تحسين رفيق درب ثقافي خضته الى جواره وكان خير معين ورفيق ، لكنه لم يكن - هو الأخر - مهتما بالأدب وان كان يرى فيه نوعاً من التعبير " الفلسفى " فى صيغة فنية ، لكنه تعبير لايرقى الى مستوى التفلسف اللازم لإنسان مهموم بالحياة ... وهكذا وجدت نفسى ملازما لى ، لأوراقى وكتبى وكتاباتى ... ما أن أعود الى غرفتى ، حتى اغرق فى تلك الحياة التى كنت أتمثلها سوية ... ولذلك ، فلقد كانت الخطابات ، خاصه اذا ما وجدت رد فعل ايجابى من الطرف الآخر ، تمثل لى نوعاً من الحياة أصبو اليه!

كان يوسف السباعى منذ صدور العدد الأول من الكتاب الذهبى ، قد تعود أن يكتب فى باطن الغلاف عموداً يطرح فيه قضية من قضايا الأدب ، وما أكثرها فى تلك الأيام ... ولكني ، وقبل أن نخوض فى الموضوع ، لابد

من الإشارة الى حقيقة أراها مهمة ... وهى ان يوسف السباعى كان أديباً معروفا قبل قيام الثورة، وهو لم يكن من الضباط الأحرار ، لكنه كان محل ثقة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر... ولقد كانت قصص يوسف السباعى تثير كثيراً من الجدل والمناقشة ... كان يبدو فى تلك الأيام، مثل فارس يخوض معركة الأدب فى حرارة ، وهى معركة كان يواجهها سور الصين العظيم ، هكذا أطلق أحدهم وقتها على الجيل السابق من عمالقة الأدب !!

فى واحدة من تلك المقالات القصيرة التى كتبها الراحل يوسف السباعى، كتب رأيه فى الأدب... وهو رأى رأيت أنى اختلف معه فيه ... ذلك انى كنت ، ومازلت ، مقتنعاً ان الأدب تعبير ذاتى فى لحظة ما ، فى زمن ما ، عن قضية ما ... هكذا كتبت الى يوسف السباعى فى وقت كان الجدل فيه محتدماً بين أنصار الفن للفن ، بزعامه أستاذنا الراحل توفيق الحكيم ، وأنصار الفن للحياة بزعامة هذا الرعيل من اليساريين المصريين وعلى رأسهم الأستاذ محمود أمين العالم ، والدكتور عبد العظيم أنيس ، والفنان الراحل حسن فؤاد .

كتبت رأيى اذن وارسلته الى الرجل ، ولم اكن بطبيعة الحال فى انتظار رد منه ، بل أنى أذكر جيدا ، انى كتبت الخطاب بأسلوب من لاينتظر رداً، لقد كتبته فقط كي أدلى بدلوى وأهمس برأيى الى واحد ممن كانوا يخوضون تلك المعركة الفنيه فى القاهرة !

ولكن ... ما الذى ربطنى بيوسف السباعى بداية ؟!

هل هى مسرحية " وراء الستار " التى صدرت فى العدد الثالث من الكتاب الذهبى ؟!

أم هى تلك القصص التى كنت أقرأها له وأنا صبى فى الخامسة عشرة من عمرى فى طنطا ، والتى كانت تنشر فى مجلة " مسامرات الجيب " ، وكان يرسمها الفنان الكبير " الحسين فوزى " ؟!

الحقيقة ان لا هذه أو تلك ... فلقد كان أول كتاب ربطنى بيوسف السباعى، هو "أرض النفاق" !

كان نظام الحكم قبيل الثورة قد وصل الى درجة من الاهتراء ينذر بالانهيار ، وكانت فضائح الترقيات الاستثنائية والمحسوبية تزكم الأنوف ، وكان النفاق لعنة تلاحق الناس فى كل مكان وكل موقع ... وكانت فكرة الروايه بسيطة كل البساطة ، كان يكفى طرحها فى عمل جذاب مثل هذا الذى كتبه يوسف السباعى ، كى تجعل شابا مثلى يتوسم في هذا الكاتب خيراً كثيراً !

غير ان روايته " السقا مات " ، كانت ولاتزال ، من تلك الأعمال التى تصلح لأن تكون علامة فى حياة أى أديب ... كانت السقا مات من أجمل ما كتب يوسف السباعى ... ولذلك ، فلقد كنت حريصاً أشد مايكون الحرص ، على البحث عن جو هذين العملين فى كل ما كتب هو بعد ذلك !

ولقد مضت أسابيع طويلة منذ ان كتبت ذلك الخطاب الذي أبديت فيه رأيى فى الأدب ، مضت الأسابيع حتى نسيت الخطاب تماماً ، ولكن، فجأة، وبعد صمت طويل ، وصلنى رد منه !

بداية ، كان أول مالفت نظرى فى الخطاب الذى لم يستغرق سوى صفحة وبعض الصفحة من القطع المتوسط ، هو الخط ... كان الخط يوحى بأن الرجل الذى كتبه ، فعل هذا وهو يجرى ... تشعر وانت تقرأ مخطوطات يوسف السباعى ، أن الرجل وراءه من المهام والمشغوليات الكثير ... لكنه ،

رغم هذا، وجد وسط هذه المشغوليات ، أنه من الضروري أن يكتب لك رداً على رأي لفت نظره ... كان الرجل الشهير يتفق معي في أن الأدب ، والفن عموماً، نتاج ذاتي ، لكنه يختلف معي في انه معبر عن مرحلة ما في زمن ما في مكـان مـا ... فهـذا التحديد ، من وجهه نظره ، من الصعب أن يكون حاسماً... والا ، لو كـان الأمـر كـذلك ، فكيف تكتب الروايـات التـاريخية؟!

وعلى كل حال ، فلقد سررت بخطاب الرجل ... كان أكثر ما أعجبني في رده ، هو هذا الاحساس الذي يداخلك فور قراءة كلماته ... فبالرغم من شهرته ، ومكانته ، وعدد الكتب الذي صدر له ... الا أنك تشعر وانت تقرأ كلماته - بالعافية كنت أفسرها ! - ان الذي يتحدث اليك صديق حميم تعرفت اليه وتعرف اليك منذ زمان طويل .

ولقد شجعني هذا على أن أبدى رأيي في بعض ما كان يكتب في مقاله القصير ذاك الذي كان ينشره في الغلاف الداخلي لأعداد الكتاب الذهبي ... وهكذا تبادلنا الرسائل كما قلت لعامين أو أكثر قليلا... حتى اذا مانزحت الي القاهرة ، كان لابد لي بعد ان وجدت عملاً واستقرت الأمور بعض الشيء، ان ارتاد بين الحين والحين " نادي القـصـة "... ذلك النادي الذي أسسه يوسف السباعي مع احسان عبد القدوس ، والذي كانت مكاتبه تشغل شقة في عمارات " سيف الدين " بشارع القصر العيني !

وكان طبيعيا ان أرى يوسف السباعي بين الحين والحين في النادي ... كان يبدو لي ، منذ مجيئه وحتى انصرافه ، مشغولا بعشرات المشاكل ، كان يتحدث الي هذا ، ويداعب ذاك ، ويختلي في أحد الاركان مع واحد من أدباء جيله ، ثم يناقش أديبا ناشئا في أمر من الأمور... و ... و ...

ولقد كان رحمة الله عليه شعلة من الحيوية والنشاط ... ولقد اتاحت لي معرفتي بأبناء جيلي من الأدباء ، وارتياد ندوة نجيب محفوظ ، أن أعرف آراء البعض فيه ... وكان الشيء الذي لفت نظري أكثر من غيره، أن الكثيرين ممن كانوا يهاجمون الرجل في جلساتهم الخاصة هجوماً لاذعاً وحاداً ... كانوا ، اذا ما التقوا به ، كالوا له المديح بكلام مختلف تمام الإختلاف عن هذا الذي كانوا يسلقونه به في ندواتهم !

أذكر ذات ليلة كنا نسهر فيها في مقهى الفيشاوي ، وكانت في تلك الأيام ملتقى العديد من الأدباء والشعراء من كل الأجيال ... وقد التأم جمع مجموعتين من الأدباء في ركن من اركان المقهى، وتحولت الجلسة الى ندوة أدبيه ترأسها أديب لامع ... ولقد دار الحديث ليلتها عن احسان عبد القدوس ويوسف السباعي ، واذا بهذا الأديب المعروف ينهال على الرجلين بالنقد والتجريح ، خاصة يوسف السباعي الذي اعتبره هذا الأديب عقبة في طريق القصة والرواية ، ناسباً شهرته تلك الى منصبه كسكرتير للمجلس الأعلى لرعايه الآداب والفنون ، هذا المجلس الذي جمع فيه الرجل الغالبية العظمى من أدباء مصر كي يعطيهم الفرصة للابداع دون أن تجرفهم الحاجة الى شغل وظائف قد تمتص جهدهم ... ولم يكن فيما قاله ذلك الأديب شيئا من الحقيقة ، فلم تأت شهرة السباعي من مركزه ، بل ربما سعى اليه المركز نتيجة لهذه الشهرة من ناحيه ، ولثقة القيادة فيه من ناحيه أخرى ... وعلى كل ، فلم تمض أيام قليلة حتى كان علي أن أحضر ندوة في نادي القصة لمناقشة كتاب كان قد صدر حديثا ... ولقد حضرت الندوة ، كما حضرها لفيف من الأدباء البارزين ... أما نحن الشبان ، فلقد كنا من الكثرة حتى أطلقوا علينا ذات يوم اسم " ملح الأدب " !

ما ان انتهت الندوة ، وحان للسباعي أن ينصرف ، حتى تحلق حوله جمع من الأدباء ... راح الرجل يهبط الدرج محاطا بهذا الجمع ... كان لكل من أحاط به مطلب ، وكان الرجل يلبي أحيانا ، ويتوقف في لحظة كي يواجه صاحب الطلب بحقيقة للموقف ، والخطأ الذي وقع فيه ... اكتشفت في تلك الليلة أن من صفات يوسف السباعي الغريبة ، هي تلك الصراحة التي لاتعرف في الحق لومة لائم ، صراحة كان يواجه بها أصحاب المطالب إذا ماحاولوا ليّ عنق الوقائع ، مهما كان الموقف جارحاً ، ومهما كان أمام الناس!

في تلك الليلة كان ذلك الأديب اللامع هناك قبل وصول السباعي ، حتى اذا ما وصل كان أول المستقبلين له في ترحاب مبالغ فيه ... غير أني لم أجد في ذلك مايشين ، ذلك أن الاختلاف في الرأي لايجب ان يفسد للود قضية !!!

وحتى تلك اللحظات فلقد رأيت تصرف هذا الأديب متحضراً يرتفع فوق مستوى الاختلاف الي مستوى العلاقات الانسانية.

لكن الأمر – بعد انتهاء الندوة – بدا لي داعيا ، لا الى الدهشة فقط ، بل الى الحسرة أيضا ... ذلك ان هذا الاديب كان ملازما للسباعي أثناء انصرافه من النادي ، وأثناء هبوطه الدرج ... حتى اذا ماكانت لحظة ، توقف فيها الرجل في ذلك البهو الواسع للعمارة الموصل الى الطريق ، حتى انقض على السباعي طالبا منه نشر كتابه الجديد في الكتاب الذهبي !

لم اكن في حاجه الى الاقتراب منهما كي أسمع الحوار ... ذلك ان يوسف السباعي أجابه معتذراً بان هناك عدد كبير من الكتاب في الانتظار ، وان كتاب ذلك الأديب الذي نشر قبل أقل من عام ، لم يوزع ،

وسبب لدار روزاليوسف خسائر محققة ... فاذا بالأديب المعروف ، وفى صوت كان صداه يتردد فى أرجاء البهو الواسع ، يلقى خطبه عصماء فى مآثر السباعى ، وأخلاق السباعى ، وعبقريه السباعى، وأدب السباعى ... و ... وكيف ان الأدباء بفضله أصبحوا آمنين على لقمه العيش ، ثم أن من كان مثله ، يحتاج الى تشجيع رجل فى وزن السباعى ، وإلا ، فأين يذهب ولمن يذهب غير السباعى !

كان الموقف بالنسبة لى غريبا كل الغرابة ... وجدت نفسى أبتعد حتى لا أسمع المزيد ... تذكرت وأنا أخطو فى شارع القصر العينى ، ذلك الكتاب الأول الذى ربطنى بيوسف السباعى كأديب وهو "أرض النفاق " ... كنت فى تلك الأيام حديث عهد بالقاهرة ، أنظر الى الأدباء والفنانين تلك النظرة الرومانسيه التى ترتفع فوق مستوى هذا اللون المتدنى من التعامل ، ولقد سرت من شارع القصر العينى حتى ميدان سليمان حيث البنسيون الذى كنت أشغل إحدى غرفه، وقد ركبنى الهم... فإذا كان الأدباء والمفكرون قادرون على مثل هذا اللون من التعامل ، فمن يلوم من اذا فعل هذا ؟

كان السؤال الذى طرح نفسه علىّ بقوة هو : هل يؤثر النفاق فى صاحب " أرض النفاق " ؟

ولقد جاءنى الرد بعد شهرين من هذه الواقعة ، فلقد نشر كتاب ذلك الأديب فى سلسلة الكتاب الذهبى !!!

* * *

فى الشهور الأولى من عام ١٩٥٧ ، أسند الى الاستاذ أحمد حمروش ، مهمه اصدار مجلة جديدة تصدر عن دار التحرير اسمها " الفجر " ... وكان طبيعيا ان يختارنى حمروش ، مع من أختار من الأدباء الشبان ، للعمل فى

هذة المجلة ، مع احتفاظي ، في نفس الوقت ، بعملي في "الهدف" .

تلك كانت أيام من أجمل سنوات العمر حقاً ، فلقد كانت مصر كلها في حالة فوران دائم بعد تأميم قناة السويس ، وانسحاب قوات العدوان الثلاثي ... كان الحماس يتفجر من كل الناس، غير ان الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن ... ذلك ان الفجر كانت تضم نخبة من كتاب ومفكري اليسار المصري ، ولذلك ، فلقد بدأت العقبات توضع أمام ظهور المجلة ، وسرعان ماصرفت دار التحرير النظر عن اصدارها ... ولما كانت نفس الدار تصدر مجلة " الرسالة الجديدة " ، التي كان السباعي يرأس تحريرها . فلقد تقرر نقل جميع العاملين في الفجر ، الى مجلة الرسالة الجديدة !

وهكذا وجدت نفسي وجها لوجه مع يوسف السباعي لأول مرة منذ وصولي الى القاهرة !

٣

كانت مصر خلال عام ١٩٥٧ ،تشغى بالتيارات السياسية وتحتدم بالآراء المتصارعة ... ولقد ألقت الخلافات السياسية بظلالها على الفن عموماً ، وعلى الأدب بصفة خاصة ... وفي مواجهه التيار اليسارى الذى كانَ يبدو في تلك الأيام عارماً، كان يوسف السباعي يقود الحركة ضد اليسار في الحقل الأدبي ... لم يدّعِ الرجل في يوم من الأيام أنه يساري ، وأن كان له أصدقاء يساريون ... وكان يفرق دائماً بين المذهب السياسي والعلاقة الشخصية ، لكنه كان يهاجم الذين يهاجمونه ويعلن عدم ثقته فيهم أو حبه لهم ... وعلى مدى سنوات طويلة عرفت فيها الرجل . وقدر لي أن أعمل معه بعد ذلك في أكثر من موقع ، وحتى عندما أصبح وزيرا للثقافة في أخريات أيامه ، لم تنقطع علاقتي به ، وربما كان هو الأكثر حرصاً على استمرار العلاقة ، فلقد اعتبرني – منذ اكتشافه لتلك الخطابات التي تبادلناها قبل أن أترك عملي في البحر – أخا صغيراً له ، أو تلميذا في مدرسة الأدب ... ولأني كنت حديث عهد بالوسط الأدبي – لم يكن قد مضى على استقالتي من البحر اكثر من عامين – فلقد رأيت في يوسف السباعي، يوم انضممت الى مجلة الرسالة الجديدة ، ذلك الضابط الذي قد يكون صديقا لك ، لكنه عندما يمس الأمر جانب العمل ، فإنه يصدر الأمر

كي يطاع ، تماماً ... كما كان عليه ان يطيع الأمر اذا ماصدر اليه وينفذه بدقة !

كان يوسف السباعي فنانا ، ليس في هذا شك ، وكان أديبا شغلته عن أدبه تلك المناصب التي أسندت اليه، وكان عليه أن يقوم بمهامها رغم تعددها وكثرتها ، بذهن صاف وعقل مرتب ... ولذلك ، ففي الاجتماع الأول الذي عقده معنا كرئيس لتحرير مجلة الرسالة الجديدة ، كان واضحا كل الوضوح ، حاسما كل الحسم، مدققا لأقصى حد فيما كان يرى فيه صالح المجلة الأدبية الشهرية التي كان يرأس تحريرها .

كنت هناك ، وسط عائلة الفجر ، أستمع اليه وأرقب ردود الأفعال على وجوه من حولي ... وعندما قدمنا له الاستاذ احمد حمروش - قبل بدء الاجتماع - كنت واحداً من الجيل الجديد لا أزال ، وقد خامرني بعض الأمل في أن يتعرف الرجل على اسمي ، لكن هذا لم يحدث ... فقط ، عندما ذكر حمروش انى كاتب قصة ، وان لي قصصا نشرت وحازت أعجاب الناس ، قال السباعي باسماً :

" جحا أولى بلحم نورة ! "

وكان يعني بذلك ، أن صفحات المجلة مفتوحه أمام قصصي وإنتاجي الأدبي ... ولقد كانت هذه لفته كريمه منه دون شك ... وهكذا ، في اجتماع لم يدم لأكثر من خمس وأربعون دقيقة ، كان قد وضع التنظيم الجديد للمجلة ... وكان من نصيب صديق العمر الاستاذ راجي عنايت ، ان يتولى سكرتارية تحريرها !

كان يوسف السباعي في تلك الأيام يشغل ، الى جانب رئاسته لتحرير الرسالة الجديدة ، منصب سكرتير المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون

الذي كان يحتل – ولازال – قصرا في الزمالك ... كما كان يشغل منصب سكرتير السكرتارية الدائمه للمؤتمر الأفريقي الآسيوي ، وكانت هذه تشغل قصراً آخر في الروضة ، فوق انه كان بطبيعة الحال سكرتيرا لنادي القصة، ورئيساً لتحرير الكتاب الفضي!

قال السباعي في هذا الاجتماع ، ضمن ماقال ، انه يعلم أن ثمة خلافاً في الرأي بينه وبين بعض كتاب المجلة ، وهو خلاف لا غبار عليه، فلكل وجهه نظره ، لكنه لن يسمح أن تتحول المجلة الى منبر لترويج أفكار بعينها بخلاف الأدب ... وكان في هذا اشارة واضحة الى اختلافه مع بعض كتاب اليسار، لم ينكر ولم يتنكر له في يوم من الأيام.

توقف قليلا عن الحديث ، ثم أردف :

" وعاوز أقول حاجة مهمة ... اذا أي حد فيكم احتاج لأي حاجة ، باب مكتبي مفتوح سواء هنا أو هنا أو هنا ... ومواعيدي معروفة ، وتليفوناتي خدوها من حسين – يقصد سكرتيره حسين رزق – وفي الأدب مفيش رئيس ومرؤوس ، إنما فيه مجموعة من الأصدقاء ... ومهما اختلفت الآراء بيننا، لازم نحس اننا عيلة واحدة ! "

ساد الصمت لثوان ، نهض يوسف السباعي بعدها وهو يطلق نكتة انفجرنا جميعا ضاحكين لها !

كان عام قد انقضى منذ قررت دار التحرير إصدار مجلة الفجر ... وهكذا بدأت عامي الثاني في نفس الدار وأنا محرر في مجلة الرسالة الجديدة ... ومن الغريب ، أن عاماً آخر كان مقدراً له ان ينقضي، كي تقرر دار التحرير ، أن توقف إصدار مجلة الرسالة الجديدة أيضاً!! ... فلم يكن

التوزيع ولا الإعلانات القليلة تفى بجزء من تكاليف الطباعة أو أجور العاملين ... وهكذا ، ماان جاء يناير ١٩٥٩ حتى وجدت نفسى فى الطريق، بلا عمل ! !

... ...

... ...

كان احمد حمروش قد ترك في هذه الفتره رئاسه تحرير مجلة الهدف ، وتسلمها من بعده ضابط كان يرى الأمور بمنظار جديد ، فقررت الانقطاع عن العمل فيها .

وهكذا أصبح علي ان أبحث عن عمل ، دون ان اعرف أين وكيف ... كنت استطيع بطبيعة الحال أن انشر قصة هنا أو هناك ... لكن الغريب فى الأمر ، أن أغلب الذين كانوا يعملون فى الرسالة الجديدة ، انتقلوا الى العمل بجريدة الجمهورية ، بينما انتقل حمروش الى مؤسسة المسرح التى كانت قد أنشئت حديثا كرافد من روافد وزارة الثقافة ، وأصبح مديراً للمسرح القومى ، بينما انتقل راجي عنايت الى الجمهورية ... وكنت أنا وزميلة لى ، الوحيدين اللذين وجدا نفسيهما بلا عمل .

وفى حقيقة الأمر ، لم يكن هذا الموقف الجديد يشكل لى اى نوع من أنواع القلق ... كنت - بداية - قد حصلت على مكافأة من دار التحرير توازى مرتب ثلاثه أشهر . ثم إن الاعوام التى انقضت كانت قد منحتنى ثقة حقيقية بالنفس، ذلك ان ممارستى للعمل الصحفى فى الهدف ثم الفجر ثم فى الرسالة الجديدة ، كان قد صقل قدراتى الى حد كبير ... فاذا أضيف الى هذا أنى كنت قد أصبحت أديبا معروفا لعدد كبير من الأدباء ورؤساء التحرير ... فلقد كان من الممكن أن أجد عملا لو أنى كنت مسلحاً بقدر

قليل من الاقدام على مثل هذه الأمور ، لكنه ذلك الخجل الذى ابتليت به ، وذلك الإحساس الزاعق بالكرامة ، منعانى تماماً من عرض نفسى على أى من دور الصحف التى كانت فى ذلك الوقت تتكاثر ...

وعلى كل ... فلقد مضى أسبوعان ، التقيت بعدهما مصادفة بالصديق راجى عنايت الذى هتف فور رؤيته لى :

" انت فين ؟! "

كان راجى يبدو قلقاً بسبب اختفائى ، غير أن دهشتى كانت عظيمة عندما قال :

" يوسف السباعى بيدور عليك ! "

سألته عن السبب فى سؤال الرجل فأجاب :

" ما أعرفش ... انما هو سألنى ان كنت لقيت شغل ولا لسه ، قلت له ان اخبارك انقطعت من ساعة ماسبنا الرسالة ! "

قبل أن أسأل راجى مرة أخرى عاد هو يسأل :

" عملت ايه ؟! "

ابتسمت ... وكانت ابتسامتى كافيه لأن يقول راجى :

" اسمع ... انا لسه جاى من عنده دلوقت ، روح له فوراً لانه عاوز يشوفك ! "

" أروح له فين ؟! "

" المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ... مبية المية حاتلقاه لسه هناك! "

***

[redacted]

في الطريق الى المجلس الأعلى ، رحت أفكر فيما يمكن أن يريده منى يوسف السباعى ... لم تكن علاقتى بالرجل رحمة الله عليه ، قد تعدت ذلك الاجتماع الأول والأخير الذى عقده معنا فى بداية انضمامنا الى الرسالة الجديدة ... كان يأتى الى المجلة مرة أو مرتين كل شهر ، فاذا تصادف ورآنى تبادلنا التحية فى اقتضاب غير ان ابتسامته كانت دائما أسبق من تحيته ... ولقد نشرت ذات عدد قصة بعنوان " الساقيه " ، وكانت شهور قد انقضت منذ نشرت القصة عندما التقى بى مصادفه وكان يغادر مكتبه ، مالبث ان استوقفنى متسائلا :

" انت اللى كتبت قصة الساقيه ؟! "

" ايوه ! "

" دى قصة ممتازة ، إمتى حاتطلع أول مجموعه ليك ؟! "

رقص قلبى فرحا ، ماكدت أجيبه عن سؤاله حتى كان قد انشغل عن الجواب بحديث مع آخر ، ثم انصرف تاركاً إياى فرحاً مغيظاً فى نفس الوقت!

رحت أضرب أخماسا فى أسداس وأنا فى طريقى الى المجلس الأعلى لرعايه الآداب والفنون بالزمالك... كان القصر الذى يحتله هذا المجلس يشغى فى تلك الأيام بالأدباء والمثقفين وكتابه القصة والشعراء الذين جمعهم يوسف السباعى من جميع المصالح الحكومية وأسند اليهم وظائف فى المجلس الذى انشئ لرعايتهم ... ما إن تعبر الحديقة الصغيرة الى حيث ذلك الدرج الذى يوصلك الى الدور الأول ، حتى تلتقى بالضرورة بهذا الاديب أو ذاك ... غير انك اذا مانفذت من الباب الى حيث البهو الواسع ،

طالعك على الفور وجه أستاذنا الراحل توفيق الحكيم في مكتبه الواقع عند أقصى يسار الداخل ... كان الحكيم يجلس في مقعد بعينه ، إما متأملاً ، أو مناقشا ، أو كاتبا ... فاذا كان في حالته الأخيرة ، فعليك ان تحذر وانت تتقدم منه ، لأنه ، فوراً ، سوف يخفى مايكتب بيده أو بورقه ... فاذا ما اتجهت نحو السلم المؤدي الى الطابق العلوى ، التقيت بشاعر أو قصاص أو أديب ، والكل منهمك في عمل أو مناقشة أو التحضير لندوة أو محاضرة ... عنما دلفت الى مكتب السكرتير طالعني وجه حسين رزق بنظرات دهشة ومستنكرة في نفس الوقت ، كان السباعي رحمة الله عليه يحب حسين رزق حبا شديداً ، قال لي ذات مرة انه يعتبره مثل ابنه تماماً ... وكان حسين ، من أجل هذا ، يعتبر الرجل ملكيه خاصة ليس لمخلوق الحق في الاقتراب منه الا عن طريقه ... وعلى كل ، فعندما سألت الشاب في ذلك الصباح عن " يوسف بيه " ، سألني عما أريده ، وعندما أخبرته انه هو الذى يطلب رؤيتي ، قال انه غير موجود ، ثم أردف انه لايعرف مكانه -! ! ! ! -- ولم هناك بد من الانصراف ... غير انى ماكدت أصل الى السلم المؤدى الى الطابق الأول ، حتى أحسست بمن وضع يده فوق كتفي في ود ... التفت ، فاذا بالقصاص الراحل أمين يوسف غراب يميل على قائلا في همس:

" يوسف بيه في المؤتمر الأفريقى الأسيوى ، خد تاكسي والحقه هناك قبل مايروح حته ثانيه ! ! "

كانت هذه بادرة رقيقة من الراحل الذى لم اكن قد التقيت به ولا مرة ... كل ما هنالك انه رآني مرة أو مرتين في ندوات نادى القصة فعرف أني قصاص وربما ، اقول ربما فأنا لاأعرف ، يكون قد قرأ لي قصة هنا أو هناك!

ولقد عملت بنصيحة الرجل !

كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أدخل فيها الى هذا القصر القائم على النيل في الروضة... وفي السكرتاريه الدائمة لمؤتمر الشعوب الافريقيه الأسيويه . كان الجو مماثلاً تماماً للجو في المجلس الأعلى من حيث النشاط والحركة ... مع اختلاف جوهري ، هو ان الوجوه هنا كانت في غالبيتها العظمى ، وجوها آسيويه وأفريقيه ... ولم يكن صعبا ان أصل الى مكتب السكرتير ، ولأن حسين رزق كان لايزال في المجلس الأعلى ، فلقد التقيت في المكتب بفتاة جميلة ورشيقه تبدو للوهلة الأولى " بنت ناس " ... ولقد قدر لهذه الفتاة ان تكون صديقتي فيما بعد ، كانت تعمل مترجمة فورية في السكرتارية الدائمة ، ثم عملت بعد ذلك كمذيعة في التليفزيون وتخصصت في الموسيقى .

كانت هذه هي حمديه حمدي مذيعة التليفزيون المعروفه، ورئيسة القناة الثانية في تليفزيون القاهرة وقت كتابة هذه السطور .

على عكس حسين رزق – طبعا – استقبلتني هذه الفتاة بابتسامه...

" افندم "

رحبت بي حمديه ، وعندما طلبت لقاء يوسف السباعي ، سألتني عن اسمي، فذكرته لها واضفت محذراً :

" شوقي يا أنسه ، أنا بلغني ان هو اللي طالب يشوفني ! "

في بساطة آسرة أشارت الى مقعد أمام مكتبها قائله :

" طب اتفضل ! "

اختفت حمديه لثوان ، لكني لم أجلس ، كنت متوتراً اكاد أعود أدراجي،

كان لقاء حسين رزق بي محبطاً تماماً، ولولا ان حامل الرسالة لي كان راجي عنايت بالتحديد ، لما ذهبت ولما عرضت نفسي لمثل هذه المواقف !

" اتفضل يااستاذ صالح ! "

انتبهت على صوت حمديه وكانت تقف الآن بالباب المؤدي الى مكتب يوسف السباعي ، غسلت ابتسامتها الرقيقة كثيرا من توتري فتقدمت كي أدلف الى الغرفة التي كانت مخصصة للسكرتير العام!

كانت هذه هي المرة الأولى التي التقي فيها بيوسف السباعي وجهاً لوجه وعلى انفراد ... كانت الغرفة التي دلفت اليها واسعة مثل بهو أو شرفه تطل على حديقة ... كانت مستديرة ، ذات نوافذ عاليه زينت بزجاج ملون يعكس ضوء الشمس من الخارج مع ظلال الشجر كي يضفي على الغرفة جواً ساحراً ، كانت المكتب بسيطا وكذلك الأثاث وان كانت الأناقة هي السمة الغالبة عليه ؟... فوجئت بالرجل يخرج من خلف مكتبه مرحباً ماداً يده نحوي متسائلا :

" انت فين يااستاذ ؟! "

صافحني بحرارة وقادني الى مقعد أمام مكتبه ... بدا لي شاباً وسيماً صحيح البنيه مشرق الوجه يختلط الغضب فوق ملامحه بابتسامة لم يستطع أن يداريها ... عاد الى مقعده وهو يعدد لي اسماء من سألهم عني، وكانت منهم اسماء قريبه مني ، وعندما علم أن احدا منهم لم يبلغني بسؤاله سوى الصديق راجي عنايت قال :

" انا كنت واثق ان راجي هو اللي حايبلغك ! "

بدا لي الأمر غريبا كل الغرابة ... انفرجت أساريره وكنت الآن موقنا أن

غضب الرجل سببه أني لم ألب نداءه رغم تعدده ، احتوتني الدهشه حقا فما الذي يريده مني وماالذي يغضبه ؟! .

" عملت ايه ؟! "

هكذا سألني فارتبكت ، سألته بدوري :

" في ايه يايوسف بيه ؟! "

زمجر ، وإنا أعني الكلمه ، زمجر :

" لقيت شغل ؟! "

" مادورتش لسه ! "

قلتها باسماً وكأني أداعبه ، فاذا به يضغط زر الجرس وهو يردد :

" انا كنت متأكد من كده ، انا كنت واثق من ده ! "

فتح الباب وظهرت حمدية :

" افندم ! "

" نادى لي صلاح ! "

لم أكن اعرف من هو صلاح هنا ... غير ان الذي اعرفه يقينا وحتى اليوم، ان هذا الرجل الذي لاقى في حياته هجوماً لم يحظ به أديب ، كان يحمل في صدره ، قلبا يسع الدنيا كلها ...

وعندما جاء " صلاح " ، كانت مفاجأة .

وكان الذي حدث بعد ذلك مفاجأة اكبر .

وكانت الشهور الثلاثه التي قضيتها مع هذا الرجل ، تحمل لي ما لم اكن احلم به من تجارب !

٣

في حياة كل منا لحظات من الصعب ان تنسى ، تمر السنوات ، عديدة أو معدودة ، لكنها لاتبارح المخيله ... فهي تصعد من مكمنها إلى الوعي والادراك مع كل حدث مشابه أو مضاد ، قد تكون مثل مظلة في يوم لافح و أو اتون في يوم قائظ !

في ذلك اليوم الذي استقبلني فيه يوسف السباعي ، وطلب من " الآنسه " حمديه حمدي أن ترسل له صلاح ، نظر الي ، عقب انصراف حمديه ، في حنان حقيقي وهو يسأل :

" ناوي تعمل ايه ؟! .

كالعادة ، امتلأت جبهتي بحبات العرق رغم برودة الجو ... ذلك أني أحسست – لأول مرة منذ ان اغلقت مجله الرسالة الجديدة – اني " خالي شغل " ، سرعان ماأشعلت سيجارة ولابد أن توتري كان واضحاً للرجل الذي قال في غضب :

" انا مش قلت ان باب مكتبي مفتوح ؟! "

لم أجد جوابا ... عاد يقول :

" يعني حضرتك من غير شغل من أول الشهر والنهاردة أربعتاشر ؟!"

قبل أن أرد جاءتني المفاجأة ، فلقد فتح الباب ودخل " صلاح " الذى كان هو النجم السينمائى الشاب – وقتها – صلاح ذو الفقار .

" تعالى ياصلاح ! "

كان أبو الصلح رحمة الله عليه باسم الثغر بشوش الوجه وكان يشغل ، فى السكرتارية الدائمة للمؤتمر الافريقى الأسيوى، منصب رئيس القسم الاقتصادى ... تقدم من المكتب ، نظر الى ، أحنى رأسه فى تحية رقيقه ، نهضت اليه مصافحاً اياه ، فإذا السباعى يقول :

" ده الاستاذ صالح مرسى ، أديب وكاتب قصة ، يعنى فنان زيك !"

" اهلا وسهلاً ! "

«أعمل له دلوقت قرار تعيين بنفس مرتبه فى الرساله الجديدة ومن أول الشهر ! »

هم صلاح بالحديث وهو يشير الى النتيجة الموضوعه فوق مكتب الرجل الذى قال:

" انا ماليش دعوة باللوائح والقوانين بتاعتكم ، ده يتعين من يوم واحد! »

ابتسم صلاح رافعاً يديه فى استسلام وهو يقول :

" أمرى الى الله ! "

عاد السباعى يقول :

" ولعلمك ، لاتوقيع حضور ولاانصراف ... أنا متأكد انه مش حايقعد معانا أكثر من شهرين ثلاثه لحد مايلاقى شغل فى أى مجلة أو جرنان ... يعنى حايبجى لك يوم ويوم لأ ، ماتسألوش هو ماجاش ليه "

قال هذا ثم التفت نحوى قائلا :

" مش معنى كده انك تزوغ على طول ! "

ابتسمت ممتنا ، فعاد الرجل يحدث صلاح :

" شوف له مكتب كويس ، ده بكره حايبقى أديب مشهور وحايكتب عنك، ومن قدم السبت لقى الحد قدامه ! "

ضحكنا ثلاثتنا ، وطلب مني السباعي ان أذهب مع صلاح ، ما أن نهضت حتى قال :

" حاقول لك تاني ان مكتبي مفتوح في أي وقت ! "

وعندما وصلنا الى باب الغرفة ، نادى علي صلاح ، فتوقفنا واستدرنا :

" انا قدامي ربع ساعه بالكثير ، لأن عندي اجتماع مع مستر شنكار ! "

عرفت فيما بعد أن مستر شنكار هذا هو المندوب الهندي في السكرتارية، قال صلاح متبرماً :

" يعني أيه ده بقى ؟! "

" يعني قرار التعين يكون عندى قبل كده علشان أوقعه ! "

" مش ممكن ! "

هكذا هتف صلاح محتجاً ، فقال يوسف :

" خلاص ، ابعت لي الاستمارة قبل ما تملاها ، احط توقيعي وبعد كده تحط البيانات ! "

نظر الى صلاح مبتسماً ، وقال :

" شفتش ديكتاتورية بالشكل ده ؟! "

وهكذا ، ولثلاثه أشهر قادمة ، أصبحت موظفا في السكرتاريه الدائمة للمؤتمر الافريقي الأسيوى !

□ □ □

كان من حظي ان التقي في السكرتاريه بمجموعة منتقاة من الشباب

والشابات الذين ارتبطت معهم بصداقه حميمة بحق ... وما ان انقضى أسبوع ، حتى أصبحت عضوا في تلك العائلة التي كونها السباعي ... وكان من حظي ان اشارك في المؤتمر الأول لشباب آسيا وافريقيا الذى عقد في القاهرة . وكان هذا المؤتمر الذى عقد لأسبوعين متتالين ، زاخرا بلقاءات ومناقشات بالغة الأهمية ... ولقد كان شيئا رائعاً هذا الذي عشته متطوعاً - !! - في مكتب العلاقات العامة كي أساعد الزملاء والزميلات الذين حملوا عبئا ثقيلاً بحق ... ذلك أني في حقيقة الأمر لم اكن منتميا ، كنت اكتب القصص وأنشرها في المجلات والجرائد ، لم يكن هناك ماأفعله غير ذلك ، غير ان مقرى ومستقرى كان دائماً في روز اليوسف حيث كنت بالواقع ، قد انتميت الى تلك العائله وعميدها احسان عبد القدوس ، بل اني ، اثناء انعقاد مؤتمر الشباب ، كنت أمد صباح الخير - مجله القلوب الشابه والعقول المتحررة - بالعديد من أخبار المؤتمر التي كانت تجد طريقها الى صفحات الأخبار في المجلة!

غير انى دائماً ما أتساءل : هل كان السباعي ملزماً بالبحث عني وهو لايعرفني كي يجد لي عملا؟! ... ثم إني الآن أتساءل : هل كل هذا الامتنان للرجل الذى رحل عن عالمنا ولم يعد ذا سلطةأو سلطان ، لأنه فعل معي ما فعل ؟!

الجواب القاطع يأتي بالنفي ... ذلك اني اكتشفت ان هناك من كانوا معنا في مجله الرسالة الجديدة ، ووجد لهم السباعي وظائف هنا أو هناك... وفي السكرتارية الدائمة بالتحديد ، كان هناك واحد من الأدباء الكبار الذين اختلفوا مع السباعي في كل شئ ، في الأدب والسياسة معاً ، وفوق هذا ، فلقد كان الود بينهما مفقوداً ... ولقد حدث - بعد شهرين - أن قدم هذا

الأديب استقالته لأنه لم يكن في حقيقة الأمر يصنع شيئا ، وكان مرتبه كبيراً ، وفي حوار كان لي حظ الوجود أثناءه ، راح السباعي يجادل هذا الأديب محاولاً إقناعه بعدم الاستقاله ، لكن الرجل أصر على موقفه .

" طب استنى ياأخى لما تلاقى شغل وبعدها استقيل ! "

لكن صاحبنا صمم على الاستقاله ، فودعه السباعى آسفاً وهو يقول :

" على العموم انا مش محتاج اقول لك ان مكانك هنا محفوظ اذا حبيت ترجع فى أى وقت ! "

□ □ □

كان قد مضى على وجودى فى السكرتارية قرابة شهر ونصف الشهر ... كنت اجلس فى مكتبى المشترك مع زميلة لى ، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً بقليل ، عندما فتح الباب فجأة ، واندفع منه يوسف السباعى بادي الانفعال ، ورمانى بنظرة غاضبة وهو يسألنى :

" انت اسمك الثلاثى صالح مرسى صالح ؟! "

نهضت واقفا وقد استبدت بى الدهشة ، أجبت :

" ايوه ! "

" انت كنت بتشتغل فى البحر قبل كده ؟! "

ابتسمت ، أدركت ان الرجل قد تذكر تلك العلاقه البريديه بينى وبينه قبل ان أترك عملى بالبحر ، قلت:

" تمام ! "

" احنا مش كنا أصحاب لسنتين ورا بعض ؟! "

" ده حقيقى ! "

فى انفعال صادق هتف :

" ولما هو حقيقى ، ليه ما قلتليش قبل كده ؟! "

أسقط فى يدى ، لم أكن أستطيع تلفيق سبب ... عندما لحظ الرجل ترددى ، طلب من زميلتى أن تترك الغرفة فتركتها وهى فى حاله ذهول – هكذا قالت لى فيما بعد – كان ماقاله الرجل بالنسبة اليها غريباً ، ان أيا من الأدباء والفنانين فى ذلك الوقت ، كان يسعده أشد السعادة ان يتعرف على يوسف السباعى وان يقترب منه لا ان يخفى عنه علاقه صداقه كانت بينهما ذات يوم ... ما ان غادرت الفتاه الغرفة حتى جلس الرجل على حافة مكتبها وطلب منى ان اجلس فجلست ، اشعلت سيجارة وقد استبدت بى الحيرة ، ساد الصمت لثوان قال بعدها الرجل مفسراً موقفه :

" انا من عادتى ، لما أحب ارتاح ، اطلع الجوابات اللى عندى وأقراها من تانى ... فوجئت امبارح بالليل بجواباتك ، كنت دايما باسأل نفسى ، الراجل ده اختفى فين وليه ، لكن فيهم جواب كان اسلوبه هو اسلوبك بالضبط ، ولانك كنت بتبعت الجوابات باسمك الثلاثى ، قلت أسألك !! »

أحسست بالسعادة حقاً فى تلك اللحظات ، أسعدنى ان الرجل، رغم مشغولياته ومناصبه العديدة ، لازال يحن فى اعماقه الى تلك السنوات التى كان فيها أديبا يراسل الأدباء ويراسلونه ، أحسست بالدماء تحتقن فى وجهى عندما هتف :

" أنا سألتك سؤال يا أستاذ وعاوز إجابه صريحه عليه ! "

" صريحه يايوسف بيه ؟! "

" أيوه صريحه ! "

كان ثمه مشاهد عديدة تمر بذهنى فى تلك اللحظات ، أولها جميعا ذلك المشهد الذى رأيته فى نادى القصة من ذلك الأديب اللامع الذى هاجم الرجل

في مقهى الفيشاوي ذات مساء هجوماً مفزعاً ، لكنه ، عندما التقى به، راح يكيل له قصائد مديح في نفاق يبعث على التقزز ، مضت ثوان قبل أن أقول :

" شوف يايوسف بيه ، انا كان ممكن ، من قبل ما اشتغل معاك في الرسالة الجديدة ، اني آجي لك في نادي القصة وافكرك بالحوار اللي دار بينتا ... انما ... ..."

مرة أخرى ترددت في البوح بحقيقة الأمر ، فاذا يهتف :

" إنما إيه ؟! "

" انما خفت انك ما تفتكرنيش ! "

" انت كذاب ! "

" ده صحيح ! "

" ايه الحقيقه ؟!

" الحقيقه ان حواليك منافقين كثير قوي ! "

" وايه يعني ؟! "

استفزتني إجابته فنهضت منفعلا وأنا اقول :

" انت تعرف ان أول صدمه أخدتها في القاهرة كانت بسببك ؟! "

وقف الرجل أمامي مباشرة وهو يسأل :

" انت قريت أرض النفاق ؟! "

" ماهي دي المصيبة ! "

ضحك ساخراً ، قال :

" الدنيا كده ... والناس كده ... واذا كنت متخيل اني مش فاهم وعارف مين اللي بينافقني ومين اللي بيحبني بحق وحقيقي ، تبقى غلطان!"

هتفت متحديا :

" طب ازاي بتساعد المنافقين .... فهمها لي دي ؟! "

" لأنهم بشـــــر ! "

" والا علشان بنافقونك اكثر ؟! "

بدا الحزن على وجهه طاغيا :

" إنت قليل الأدب ! "

" كتر خيرك ! "

" المنافق بينافق ياصالح لأنه محتاج ! "

" دي حجه ملهاش دليل قوي ، فيه منافقين مش محتاجين ! "

" الحاجه مش للمال بس يابني آدم ! "

" يا يوسف بيه ده فيه ناس ... ... »

ضحك ، قاطعني ، أحسست انه لايريد أن يسمع :

" انت عندك فكرة ان كل منافق بييجي يقولي على اللي بيتقال عليّ ؟!"

ضحك، مرة أخرى، وكانت ضحكته صافيه حقاً، أردف :

" دول بيفتنوا على بعض ! "

" وسيادتك مبسوط كده ؟! "

" هات لي بشر ياصالح في الدنيا ، في أي حته في الدنيا ، مافيهمش الدا، ده ! "

لم أجد لدي جواباً على ماقاله ... كان كل منا الآن يواجه الآخر في تحد... ورغم فارق السن والشهرة والمركز معاً . كان احساسي غامراً باني أقف مع صـديق ... ذات لحظة بدا لي الرجل وكـأنه اختطف من أمـامي، سرحت عيناه الى بعيد ، حتى اذا ما كانت لحظة ، زفر زفرة خلت انها تقتلع قلبه، غمغم :

" على العموم اللى انت عملته ده كويس قوى ! "

ابتسمت ، أردف فى حزن حقيقى :

" على الأقل الواحد يقدر يحس ان فيه حد بيحبه بحق وحقيق ! "

وصعد الدمع الى عينى ، أما هو فاستدار منصرفا ... قبل ان يفتح باب الغرفة استدار نحوي :

" مش عاوز حاجه ؟! "

" سلامتك يايوسف بيه ! "

قلتها من قلبي ، من أعماق قلبى ! "

□ □ □

بعد شهر واحد من هذا اللقاء ، طلبت مقابلته .

" خير ياصالح ؟! "

" انا عاوز استاذنك فى الاستقاله ! "

" لقيت شغل ! "

قالها فى بساطة آسره ... قلت :

" فى صباح الخير ! "

" أنا كنت واثق من كده ، كنت متأكد ! "

نهض من مكانه ، صافحنى ، ثم ضمنى إليه ، وعندما أطلقنى سأل :

" تليفوناتى معاك ؟! "

هززت رأسى إيجابا ، شكرته على حسن ضيافته لى ، وانصرفت ... ولم اكن ادرى ، انى سوف التقى به مرة أخرى ، بعد شهور قليلة ، كمسئول أول عن مؤسسة روز اليوسف بعد صدور قانون تنظيم الصحافة !

٤

عندما يجلس الانسان الى الورق والقلم ، يشعر أنه عار تماماً حتى من ذاته ... وأنا ، عندما جلست كي اكتب عن يوسف السباعي ، أحسست ان هذا الرجل الذى رحل عنا منذ سنوات طويلة ، والذى ذاق مرارة الهجوم عليه لسنوات بعد سنوات ، انما ظلمه هؤلاء الذين احاطوا به اكثر من الذين هاجموه ... ان أحداً من هؤلاء أو اولئك ، لم يستطع أبداً ان يضع يده على نقطه الضعف والقوة معاً فيه ... تلك النقطة التى تتلخص فى جملة من كلمتين ، هى انه كان : "أديبا ضابطاً" ... ويقينى الذى لايتزحزح ، أن مصرعه جاء نتيجة لكونه هذا الأديب الضابط ، الذى سمع الأمر فأطاعه ، وكان فى هذا مصرعه !

□ □ □

قدمت استقالتى اليه فى اليوم الرابع عشر من مايو عام ١٩٥٩ ، وأصبحت منذ ذلك التاريخ واحداً من أسره روز اليوسف ، ومحرراً فى مجله صباح الخير ... ومنذ ذلك التاريخ بدأت صباح الخير تدخل مرحلة جديدة فى حياتها ... فلقد كنا مجموعة من الشباب الذين تتأرجح فى صدورهم الرغبة فى تقديم صحافه ذات طابع خاص ... ولقد انقضى عام كامل مر - بالنسبة الى - كأنه ومضة ... ذلك انى كنت أعمل ليل نهار ، أمدتى

عملي في صباح الخير بطاقة هائلة ، ففوق عملي الروتيني في المجله ، عُهد اليّ ان أحرر أول باب للفن فيها ، على ان يشاركني فيه الفنان الكبير بهجت عثمان ، بنكاته اللاذعه ...ومع كل هذا كنت اكتب القصة وكأني مخزن لاينضب ... حتى اذا ما كان اليوم الرابع والعشرين من مايو عام ١٩٦٠ ، كنت أصعد الدرج في ذلك المبنى العتيق لروز اليوسف ، فاذا هنالك جو غريب ، كان الجميع هناك ، ومع الجميع ، كان خبر صدور تنظيم الصحافة !

وكان القرار الذي صدر بخصوص روز اليوسف ، يشمل تعيين احسان عبد القدوس كرئيس لمجلس الإدارة ، وتعيين يوسف السباعي عضواً منتدباً!

كانت مفاجأة ... وكأن القدر قد ربط بيني وبين هذا الرجل برباط لا ينفصم ... ماهي الا ساعه ، حتى كان السباعي مع احسان يعقدان اجتماعاً لكل محرري وكتاب المجله ... كان واضحاً كل الوضوح أن اختيار السباعي للدار ، تكريم لإحسان عبد القدوس ، فلقد كانا صديقين ، كما لم يكن السباعي غريبا على الدار فلقد رأس تحرير الكتاب الذهبي في أول صدوره ... وهذا ما قاله السباعي في ذلك الاجتماع الأول الذي عقد في البهو الكبير لتلك الدار العتيقه ... وكان لابد وأن تطرح المشاكل ، وأن تناقش ، وكانت أهم المشكلات على الإطلاق ، هي تعيين كل محرري الدار الذين يعملون بالقطعه ... وكان ان وافق السباعي فوراً على المبدأ ، على ان تشكل لجنه تختار هؤلاء الذين أثبتوا جدارة في الأعوام الأخيرة ... وهكذا ، لم يعد هناك حديث في روز اليوسف سوى التعيينات ، ومثل هذا الأمر ، كان يتطلب وقتا طويلا وجهداً ومناقشات ... لكن السباعي بحيويته ، وإقدامه ،

وروح الضابط فيه، انهى الأمر فى أقل من اسبوع ، وصدر قرار بتعيين عدد كبير من محررى الدار الذين كانوا يعملون بالقطعة .

فى ذلك اليوم كنت أصعد الدرج فى روز اليوسف ، عندما التقيت باثنين من الشباب كانا فى طريقهما الى مغادرة الدار ، ولما كان هذان الشابان يعملان معى فى صفحة الفن فى صباح الخير ، فلقد سألتهما عن سبب مغادرتهما للدار ، فاذا بهما - بأسى شديد - يخبرانى ان قرارات التعيين قد صدرت وان القرارت لم تشملهما !

كان الموقف غريباً ، لكنى كنت الآن أعرف يوسف السباعى فطلبت منهما أن يعودا معى .

وجدت يوسف السباعى مجتمعا مع إحسان عبد القدوس فى مكتبه ، فطلبت لقا ءهما معاً ...

وسرعان ما استقبلنى الرجلان ... فسألتهما عن السبب فى عدم تعيين هذين الشابين ، وجا ءنى رد السباعى على الفور :

" الكشوفات بتاعتهم بتقول انهم مش منتظمين ! "

" ده مش ذنبهم يايوسف بيه ! "

" أمال ذنب مين ؟! "

" ذنبى أنا ... الأخبار فى الصفحتين محدودة ، لكن شغلهم كويس ! "

نظر السباعى نحو احسان الذى قال باسماً:

"صالح هو المسئول ، وهو اللى يقرر ! "

" طب انت عاوز ايه دلوقت ؟! "

هكذا سألنى السباعى ، فقلت :

" عاوزهم يتعينوا ، وبدل ما يجيبوا اخبار وبس ، نستفيد منهم فى الموضوعات ! "

وقـد كان ...

طلب مني يوسف السباعي ان إبلغهما ان قرارات التعيين سوف تشملهما !

كان هذا هو يوسف السباعي الضابط الذى أصبح عضوا منتدبا فلم يماطل ولم يلجأ لروتين، إنما أصدر الأمر فنفذ !

... ...

... ...

فى عام ١٩٦١ كانت خمس سنوات قد انقضت منذ تركت عملى فى البحر ، ولقد عنّ لى ان أخرج فى رحلة بحرية تجوب الموانى والمحيطات ، وكان ان استطعت الحصول على دعوة من احدى شركات الملاحة للخروج في رحلة من الاسكندريه الى كندا وبالعكس ، مع المرور بعدد هائل من موانى أمريكا وأوروبا ... كانت الرحلة تستغرق أربعه أشهر ، ولم يكن من الممكن ان تصرف الدار بدل سفر لرحله طويلة كهذه ... دخلت على يوسف السباعى مكتبه ، كنت غاضبا ، وكان باسماً ... كان الأمر قد طرح واختلفت فيه الآراء ، ما ان رآني حتى هتف :

" انت مش سيبت البحر ... عاوز ترجع له ليه !؟ "

طرحت عليه وجهه نظري ، لقد عملت في البحر غير انى الآن في حاجه الى التأمل فيه ... أعجبه المنطق غير ان العقبة كانت :

" انت حاتفتح على باب مش حاقدر أقفله ... لان أي حد ممكن يطلب نفس الطلب وماأقدرش أرفض!"

" انا مش عاوز بدل سفر ! "

هكذا قلت فسألنى :

" امال عاوز ايه ؟! "

" عاوز مرتب أربع شهور مقدم ! "

ورغم العقبات ، ورغم قوانين الحسابات ، فلقد أصدر الرجل الأمر - على مسئوليته الشخصيه - بصرف المرتب ... وكانت نتيجة الرحلة ، أول كتاب بالعربية فى أدب الرحلات بالبحر ، وهو الكتاب الذى اعطيته اسم "البحر" !

بعد سنوات تركنا السباعى .

وكان الرجل من الرواد الأول فى سكنى جبل المقطم ... وفى عام ١٩٦٧ ، استأجرت مسكنا هناك ، وفوجئت ذات عصر وهو يحدثنى فى التليفون مبديا رغبته فى زيارتى مرحبا بى كجار جديد له !

كان السباعى فى ذلك الوقت يشغل من المناصب ماتنوء بحمله الجبال ، كان مشغولا ، وكنت أعرف هذا ، لكنه لم ينس أن يقوم بواجب المجاملة حيال جار جديد له فى حى كان هو أشهر من يقطنه !

فى عام ١٩٧٠ ... حدث مادفعنى الى تقديم استقالتى من مجلة صباح الخير ... ذلك عام كان الصراع فيه محتدما احتداماً رهيبا فى روز اليوسف ... وكان أكثر ما يضنى النفس ويؤلمها ، ان البعض ، فى خضم الاستعداد للمعركة ، كانوا غارقين لأذانهم فى ترتيب الأمور حسب أهدافهم ورغباتهم ، واذا كان صعودى الى السكنى فى المقطم كان رغبة منى فى الهرب من خضم المعارك المحتدمة فى القاهرة ، والنأى بنفسى عن هذه المعارك ، فلقد كانت استقالتى من صباح الخير ، تبدو لى وكأنى أتخلص فيها من ذاتى ... كانت النكسة قد تركت فى نفسى أثراً غائراً بحق ، وكنت كلما أمعنت التفكير فيما حدث ، أشعر أننا جميعا قد اشتركنا فى تلك الهزيمة التى قصمت ظهورنا .

ووجدت نفسى فى الطريق مرة أخرى ...

ووجدت نفسى رافضا لكل المحاولات التى بذلت ، حتى ممن كان الخلاف بينى وبينهم ، لإعادتى الى المجله التى قضيت فيها أحد عشر عاماً هى زهرة العمر حقاً ...

كما وجدت تعاطفا من الكثيرين الذين نظروا الى موقفى نظرة محايدة .

وراحت الأسابيع تنقضى ، انقضى شهر ونصف الشهر ، واذا بالاستاذ الكبير أحمد بهاء الدين ، شفاه الله - وكان رئيسا لمجلس ادارة دار الهلال - يطلبنى بالتليفون ... وعندما ذهبت للقائه ، وجدت فى انتظارى قراراً بالتعيين فى مجله المصور ، منذ يوم استقالتى من صباح الخير .

كان بهاء هو الذى أصدر قرار تعيينى فى صباح الخير .

وكان بهاء هو الذى أصدر قرار تعيينى فى دار الهلال ! .

غير انى ووجهت فى المصور ، ومن عائلته العريقه ، بصد ورفض تراوح فيما بين الرفض الكامل ، وفيما بين الترقب ... ذلك ان مدرسة الهلال الصحفية ، كانت تختلف اختلافا كبيراً عن مدرسة روز اليوسف ... غير أنى أدركت ، أن السبيل الوحيد لإذابة الثلوج هو العمل...

وعلى كل ، فقبل ان تمضى بضعه أشهر ، مات جمال عبد الناصر !

وبعد وفاة جمال عبد الناصر ، وتولى أنور السادات رئاسة الجمهورية ، بدأت الصراعات الدفينة تظهر على السطح ...

صراعات لازالت حتى اليوم مثاراً للخلافات فى الرأى بين الكثيرين ، غير انها فى النهاية ، وصلت الى ذروتها فى ١٥ مايو عام ١٩٧١ ، عندما قام السادات بانقلابه الشهير على من اطلق عليهم "مراكز القوى " ... وكان لابد ، والأمر كذلك ، ان تحدث نفس الهزة فى دور الصحف ومؤسساتها .

وكان القدر يخبئ لي مفاجأة أخرى .

فلقد انتقل احمد بهاء الدين الى الاهرام بناء على طلبه !

وكان الذى تولى رئاسه مجلس ادارة دار الهلال ، هو : يوسف السباعى!

هنا ، يتعين على التوقف قليلا ... فمع هجمة السادات السياسية ، كانت هناك هجمة صحفيه ضارية ... ولقد كان للسباعى - معى ومع غيرى - مواقف لاتنسى ، ورغم ان الرجل لم يذكرلى شيئا ، الا انى على يقين من انه حمانى من هجمة ارادت النيل منى ... بل على العكس ، فلقد انتهز الرجل الفرصة ذات اجتماع - وقد كان هناك أزمه شديدة أمر بها - فاذا به يلومنى مغاضبا ، وقد عرف بالأزمه فى لحظتها ، قائلا امام كل الذين أرادوا النيل منى :

" أمال لو ماكناش أصدقاء وعلى مستوى العائلات ، كنت عملت ايه؟!"

و اذا بهؤلاء الذين أرادوا النيل منى ، جميعا ، وبلا استثناء ، يحيطون بى فى حنان مزيف ، ويعرضون خدماتهم ، ويقدمون تقديرهم لشخصى الضعيف!

غير انه يبقى لهذا الرجل ، ذلك الموقف الكريم الذى لم يكن يخصنى، وان كنت قد شاركت فيه. عندما جاء السباعى كرئيس لمجلس ادارة دار الهلال ... كان الاستاذ الدكتور على الراعى قد أصبح رئيسا لتحرير الشهريات التى تضم الهلال وروايات الهلال وكتاب الهلال ... وكنت فى تلك المرحلة قد اقتربت من الرجل كثيراً ، وكان أن طلب من بهاء ، قبل أن يترك دار الهلال، ان اكون نائبا لرئيس التحرير ... كما كان الصديق الكبير راجى عنايت رئيسا لتحرير الكواكب :

بعد انقلاب السادات كنا جميعا نعلم ان النية أصبحت مبيته للتخلص

منهما ... لم يكن الأمر سراً ، ذلك ان السادات كان لابد له من التخلص من هؤلاء الذين لم يكونوا على وفاق مع سياسته ، أو هؤلاء الذين كانت تحوم الظنون حول علاقتهم بمن أسماهم مراكز القوى ... غير ان الأمر كان لابد من أن يأخذ شكلا شرعيا .

وهكذا ، ففي أول اجتماع لمجلس الإدارة الجديد ، اتخذ القرار بتعيين آخرين مكان الراعي وراجي... لم يكن القرار بالطبع قرار السباعي أو مجلس الادارة ... حتى اذا ما كان صباح دق جرس التليفون في بيتي وكان المتحدث هو يوسف السباعي :

"تعالى فوراً أنا عاوزك ! "

ما ان جلست اليه في مكتبه حتى قال :

" فيه موضوع عاوز مساعدتك فيه ! "

" اتفضل ياأستاذ يوسف ! "

" مجلس الادارة اتخذ قرار بتعيين صالح جودت في الهلال وكمال النجمي في الكواكب ! "

كان هذا منتظراً كما قلت، ولم يكن مفاجأة ولم يكن غريبا وكان الرجل يعرف ذلك يقينا ... ولقد مرت لحظات صمت لم يكن هناك ما أقوله فيها فأردف :

" انا عارف ان راجي صاحبك جداً ، وانك قريب من الراعي كمان ... وبصراحة أنا مش عاوز اجرح شعورهم فوق ان ده مش قراري لوحدي ! "

" يوسف بيه ، الاثنين عارفين ان ده حايحصل ! "

نظر اليّ ملياً فأضفت :

" وبصراحه كمان ، هم عارفين ان مالكش يد في الموضوع ! "

" تقدر تمهد لهم الأمر قبل ما أطلبهم ؟! "

ولم يستغرق الأمر طويلا ، كان الدكتور علي الراعي ، كما كان الاستاذ راجي عنايت، قد جمعا أوراقهما بالفعل وقبل ان انقل الى أى منهما رسالة الرجل الذي كان حريصا أشد مايكون الحرص على مشاعرهما !

وترك السباعي دار الهلال كي يصبح وزيراً للثقافة ... فكان حريصا على الاتصال بي بين الحين والحين، بل انه طلب مني اكثر من مرة ان اكتب سيناريو لاحدى قصصة ...

ولقد كنت في الأسكندريه عندما جاءني نبأ اغتياله .

انغمد الخبر في صدري كنصل حاد .

لقد اختلف السباعي مع الكثيرين ، وخاصم الكثيرين كما خاصمة الكثيرون ... لكنه قبل الخصام أو الخلاف وبعده ، كان انسانا يحمل في صدره قلبا من ذهب .

يحيى حقى

ألقنديل... صاحب القنديل

١

... ... حتى التقيت بأستاذنا الراحل يحيى حقى فى مصلحة الفنون لإجراء حديث صحفي معه، ذلك اللقاء الذى منحنى فيه القدر لقاء آخر مع الاستاذ نجيب محفوظ، لم أكن قد قرأت له سوى رواية " قنديل أم هاشم " في تلك الطبعة التى ظهرت فى سلسلة " اقرأ " فى أواخر الأربعينات من هذا القرن... والذى أذكره جيدا ان هذه الرواية قد تركت فى نفسى انطباعا غريباً ... ففى تلك الأيام ، لم تكن مواصفات الرواية أو القصة وقوانينها ، واضحة في ذهني ذلك الوضوح الذي يتسلح به المتمرسون وأصحاب النظرة النافذة الى الأعمال الفنية ... غير أنى اذكر اننى انتهيت منها فى جلسة واحدة ، ذلك ان عدد صفحاتها لايزيد على المائة وثلاثين صفحة من القطع الصغير ... انتهيت من الرواية ووضعتها الى جوارى وقد استغرقت فى التفكير حول مسجد السيدة زينب والقنديل واسماعيل بطل الرواية ، وكيف تجاذبه العلم والخرافه فى صراع كان جديداً تماماً علينا فى تلك السنوات ...

غير أن شيئا ما استوقفنى فى العمل ككل ، شئ لم أتبينه جيداً وان كان قد أوقعنى فى الحيرة ، حيرة دفعتنى الى قراءتها مرة أخرى بعد نحو أسبوع أو اكثر قليلا ... واذا بى فى القراءة الثانية أصاب بمتعة من يستمع الى الموسيقى ، كانت السلاسة فى القصة تبدو لى مثل معجزة حقاً ، واذا

كان يوسف إدريس – بعد يحيى حقى بكثير – قد استطاع أن يفرض العامية على أسلوب القص فرضاً فنياً ارتفع بها الى مستوى الفصحى، فان يحيى حقى لم يفرضها بل استعملها فى الحوار ، مع استئذان فى استعمالها فى السرد أحيانا ، إذ كان يضعها دائماً بين قوسين .

سبق يحيى حقى يوسف إدريس فى العامية ، كما سبق نجيب محفوظ فى تلك الحيرة التى كانت تمزق الشباب فيما بين الموروثات وبين الواقع والرغبة فى التطلع نحو مستقبل أفضل ، وقع اسماعيل فى الحيرة فيما بين زيت قنديل أم هاشم ومعطيات العلم الحديث ، كما وقع كمال – فى بين القصرين – فى الشك حول ضريح الحسين !

رغم هذا بقيت فى صدرى رغبة فى البحث عن شئ آخر ، شئ غريب ، شحنة غامضة تحويها الكلمات وتركيبة الجملة وطبيعة الحدث معاً ... أناقة هى؟!، فلتكن ... قدرة على امتلاك ناصية اللغة ؟! ، ربما ... حرص شديد على بناء متماسك ؟! ، قد يكون الأمر كذلك ... ولكن ، بعد كل هذا ، أو ربما قبله، كان ثمة شئ باق ، شئ خفى ودفين ، شئ كان يقينى يزداد بوجوده كلما قرأت ليحيى حقى شيئا جديد ... فما هو هذا الشئ ؟!

أكذب لو قلت إننى اكتشفت هذا اللغز الذى ظل هائماً فى رأسى سابحاً وسط ضباب كثيف وكثير من الافتراضات والتخمينات التى لم يصل أحدها الى حد اليقين .

وحتى عندما التقيت به ، ورحت أستمع اليه وهو يحدثنى عن مصلحة الفنون ، كنت – ربما باللاشعور – أحاول أن أجد جوابا لهذا السؤال الحائر فى رأسى دون جدوى ، لقد انصرف نجيب محفوظ بعدما أنهى عمله مع الرجل ، وعاد الحديث بيننا الى مجراه ، فاذا الرجل مثل أب يلقن ابنه سر الصنعة !!

ولقد استشعرت هذا بوضوح وامتننت له ، نسيت الأسئلة التي انفق
جزءاً من الليلة السابقه في تحضيرها ، وتركت نفسي لهذا الفيض المتدف
والحماس الذي دفع بالدماء الى وجه الرجل المستدير فتتشرب بشرته البيضا
بحمرة تزيد من بهاء الوجه... كان يميل بين الحين والحين نحوي عبر المكتـ
مردداً لازمته الشهيرة : " تصور !؟ " ، وراح يحكي عن حاجه شعبنا الى
الثقافة ، ليست الثقافة مجرد قراءة كتب واتقان لغة أو لغتين ، بل الثقاف
معايشه للواقع المحيط بك ، وتسلحاً بمايجب عليك أن تتسلح به من عل
وتجارب ، وما دور السينما والمسارح والكتب وفرق الباليه ودواوين الشعر
والروايات والقصص ، سوى نتائج لهذا الواقع مغموس في معطيات التاري
وإفراز العالم من حولك!

ان نتطلع الى ما وصل اليه الغرب ، أمر مطلوب كي نلحق به فلا شك انتا متخلفون لكننا نملك من وسائل التحضر ما لايخطر بالبال ، التقليد هو الخطر الذي يتهددنا حقاً، فنحن مصريون ، ولغتنا عربية ، فلتكن لنا حضارتنا العربيه إذن ، حضارة لها مذاق خاص ، وطعم يخصها وحدها !... وهذا في النهاية ، هو وظيفه مصلحة الفنون ، وظيفتها لا ان تقدم للشعب فنونا راقية فقط ، بل وتفتح الطريق أمام الأجيال الجديدة ، وتدعمها بالثقافه كي يأتي عطاؤها أقرب مايكون الى الكمال .

وكما كان لقاء الرجل لي آسراً ، كان وداعه مؤثراً ... فلقد أبى هذا العملاق القصير القامة ، الا أن يوصلني حتى باب الغرفة ، نهض من مقعده، تأبط ذراعي في ود، حتى إذا مابلغنا الباب رفع رأسه نحوي وهو يسأل:

" مش عاوز تسأل على حاجه تاني !؟ "

ووقعت في الحيرة ، ثم أدر بم أجيب ، لقد كانت حصيلتي أكثر مما

أردت، كانت الحصيلة زاداً ، لا لكتابه حديث صحفي ، بل لإطلاله على حلم مثقف في بلد حديث الاستقلال ! !

غير أني هنا ، وقبل أن استرسل في الحديث ، لا بد لي من التوقف قليلا عند حادث بعينه ، لا للاستطراد ، بل لكى أضع الحدث في مكانه ، وأرد الإحساس الى أصوله حتى يكون لكل شئ معنى .

□ □ □

في تلك الايام ، كانت الوجودية " موضة " المثقفين ، لافي مصر وحدها ، ولكن في العالم كله ... وكانت الصحافةتتابع أخبار فيلسوف الوجودية «جان بول سارتر» ، وصديقته «سيمون دي بوفوار» ، كما تتابع أخبار نجوم السينما ... وفي مصر بالذات ، كان هناك بعض من يتناولون هذه الفلسفة بشكل أو بآخر ... وكان من حظى ، أن آخر محاضرة حضرتها في كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، قبل رحيلي الى القاهرة ، للفيلسوف الراحل الدكتور محمد ثابت الفندي ، وكانت المحاضرة عن الوجودية ... تلك محاضرة لا أنساها أبداً ، فلقد وجدت نفسي ، قرابه ثلاثة ساعات، أنهل من نبع لاينضب عن هذه الفلسفة ، من كير كيجارد وحتى سارتر ... وإذا كانت حصيلتى من هذه الفلسفة قبل التحاقى بالكليه ضئيلة ، بسبب غرامي الشديد بالفلسفة اليونانية القديمة ، فان الدكتور الفندى أمدنى بحصيلة غيرت كل ماكنت أعرفه عن هذه الفلسفة الجادة التى تحمّل الانسان مسئولية تصرفه ونظرته للحياة ... وهكذا ، جئت الى القاهرة ، وأنا مشبع بفكرة صحيحة وجادة عن هذه الفلسفة .

وبعد وصولي الى القاهرة بأسبوعين أو ثلاثه ، تعرفت على اثنين من الأدباء الشبان وتوطدت بيننا صداقة سريعة أصبحت مع الأيام صداقة حميمة ... حتى إذا ما كان مساء كنا على موعد فيه ، وجدتهما في

طريقهما الى أديب لامع كانا على موعد معه ... ولما كنت حديث العهد بالقاهرة ، فلقد اعتذرت عن اصطحابهما لكنهما أصرا على ذلك ... وفى الحقيقة ، فلقد كان ترحيب هذا الاديب بى ، حميما بحق ، وكان أول ماقاله لى وهو يصافحنى ، أنه قرأ بعضا من قصصى القليلة التى كانت قد نشرت، بل إنه راح يناقشنى فى إحداها مبديا بعض الملاحظات عليها مما أسعدنى حقا !

عندما وصلنا الى بيت الرجل ، كانت هناك مجموعه أخرى من الأدباء، وكان الجدل الدائر بين الجميع ، حول الفلسفة الوجودية ، رحت أتتبع الحوار فإذا به حوار من استمعوا الى رأى من هنا أو قرأوا كلمه هناك ، حتى اذا كانت لحظة ، أوقف الأديب اللامع الحوار ، وراح يشرح لب هذه الفلسفة !

ظل الرجل يتحدث عن الوجودية قرابه نصف ساعة ، بدأها باتهام هؤلاء الذين يكتبون عنها فى الصحف وكأنهم لاعبو أكروبات فى سيرك متجول ... غير أن المذهل ، ان حديثه لم يخرج عن هذا الذى كان ينشر والذى اتهمه بالبهلوانيه ... كان حديثه بعيدا كل البعد عن تلك الفلسفة التى كنت مزوداً ـ الآن ـ بحصيله لابأس بها عنها !!

وبصرف النظر عما أحسست به فى تلك الليلة التى انصرفت فيها مبكراً، فلقد كان الدرس الذى استفدته ووعيته جيداً ، هو أن الأدب مسئولية جسيمة ، لا فى الكتابه فقط ، وانما فى الكلمه المنطوقة حتى فى سهرة كهذه ... ولاأزيد ! !

... ...

... ...

ترك لقائى الأول مع يحيى حقى فى مكتبه بمصلحه الفنون ، أثراً لم ينمح حتى الآن ، ولقد اكتشفت مع الأيام ، وبعد أن قرأت كل مانشره هذا الأديب العظيم، ان سره الدفين ، هو هذه الثقافة الشاملة التى حصلها طوال سنوات

عمره ... وانا حتى الآن ، اذا ما اردت قراءة شئ ليحيى حقى، فلابد لى ، قبل ان أفتح الكتاب ، ان أكون مستعداً تماماً لا ستقبال هذا الفيض من الأحاسيس ، وهذا العمق فى طرح الأفكار .

اكتشفت أن الرجل عندما يكتب ، يتحول من أديب الى صائغ ذى ذوق رفيع ، فهو ينتقى الكلمة المناسبة للكلمة التى تسبقها والتى تليها، تتحول الكلمات فى يده الى فصوص من الماس والعقيق والزمرد واللؤلؤ ... هو جهد مروع لو عرف الناس المعاناه التى يعانيها هذا الأديب الذى يعشق ، بعد الحقيقة، الصدق، ان توضع الكلمة فى مكانها الصحيح ، كى تعطى المدلول الدقيق للموقف أو الإحساس ... التدفق موجود ، والعطر يفوح، والعاطفة متأججة ... غير أن هذا كله ، لابد وأن ينتظمه عقد يبهر أصحاب الخبرة الرفيعة بالجواهر ، وما أندرهم ! ! ***

فى قصص يحيى حقى سوف تجد السهل الممتنع بالفعل ، مع الكلمات البسيطه تتجلى الثقافة فى أجلى صورها ، قد يتحدث عن صندوق قمامه

*** أثناء مراجعتي بروفات الكتاب صادف أن كنت استمع الى برنامج ثقافى كانت تبثه الإذاعة العربية من لندن .... كان البرنامج مسجل مع أستاذنا يحيى حقى ، ولقد إجتذبنى صوته الحنون الى حديث أجريته معه لمجلة الهلال الشهريه فى بداية رئاسة تحرير دكتور على الراعى لها – كان هذا فى عام ١٩٧٠، ونحن الآن فى عام ١٩٩٦ ، وكان الحديث مسجلا قبل وفاة يحيى حقى فى عام ١٩٧٢ – وكان الرجل يتحدث عن أزمته مع اللغة العربية ... قال للمذيعة بالحرف الواحد :

« لم تكن مشكلتى مع القصة القصيرة أو الرواية ، أبداً ... كانت مشكلتى الحقيقة مع اللغة العربية ، هذه اللغة اللغز ... اللغة العربية شديدة الثراء ، ولكم كان يضنينى أن انتقى الكلمة المناسبة كى أضعها فى المكان المناسب ! »

تقذف بى هذه القول الى ما قاله لى يحيى حقى فى بيته ، وفى حضور صديقى المصور محمد صبرى، عميد مصورى دار الهلال ... وكان وهو يتحدث معى عن اللغة ، يبدو وكأنه يعانى من صراع مرير مع هذه اللغة !

أقول هذا مستطرداً ، ولا أزيد !

تبحث فيه قطة صغيرة عن زاد ، أو يتحدث عن حي شعبي يختلط فيه الحابل بالنابل ، أو عن سلم خدم أو غرام مكوجي بخادمة ... فإذا الشخوص والأماكن تتحول في يده الى أنماط بالغة الدلالة ، تتراص الكلمات في إحكام برسم لك صورة يندر أن يصوغها أديب غيره ، والصورة تحمل في محتواها ذلك المغزى الإنساني الرفيع الذى يريد أن يوصله اليك على استحياء ، ودون فرض !

□ □ □

كان لقائي الثاني مع الاستاذ يحيى حقي مصادفة ، لكنها مصادفة أضافت الى شخصية الرجل بعداً جديداً كان له أكبر الأثر في معرفتي به .

كنت في مكتب الدكتور حسين فوزي رحمة الله عليه لإجراء حديث عن الموسيقى والفولكلور...ولقد كانت كلمة " الفلوكلور " في ذلك الوقت -١٩٥٦- من المصطلحات الجديدة التي بدأت تظهر مع مصطلحات علمية أخرى ... وكان حسين فوزي قاموساً ثقافيا يسير على قدمين ، كان رجلا واسع الاطلاع موسوعي المعرفة ، فإلى جانب كونه طبيبا ، كان واحداً من علماء البحر القلائل في مصر والشرق عموماً ، ورغم تعمقه في علوم البحار ، احتلت الموسيقى في حياته المقام الأول ، فهو من عشاقها ودارسيها المتعمقين ، كما كان كاتبا ذا مذاق خاص ... تشعر وأنت تقرأ له ، انك تقرأ لأستاذ يلقي محاضرة في أكسفورد أو كيمبردج ، لكنه يلقي محاضرته بعامية أهل حي الحسين القاهري ، ولد حسين فوزي في حارة الميضة المواجهه لميضه مسجد الحسين ، وكان حتى آخر أيام حياته ، يتحدث بلهجة أولاد البلد ... هو شئ ممتع حقاً أن تستمع لابن بلد يتحدث عن موزار أو بيتهوفن أو تشايكوفسكي فإذا هؤلاء الفنانون العظام مع أعمالهم يتسللون

الى وجدانك دون جهد تحسه أو تشعر أنك تبذله ... وعلى كل ، ففى لحظة ما ، وكان الرجل مستغرقا فى الحديث معى عن موسيقى سيد درويش ، فتح باب المكتب ، كى يدخل يحيى حقى كالإعصار هاتفاً :

" ايه يافوزى اللى انتوا بتعملوه ده ؟! "

كانت مصلحة الفنون تتبع وزارة الارشاد القومى ، وكان حسين فوزى وكيلا لهذه الوزارة ،كما كان مكتبه الواسع فى قصر عابدين ... ولقد هب حسين فوزى تاركاً مكتبه كى يلتقى مع يحيى حقى فى منتصف الغرفة الواسعة وهو يقول :

" يايحيى مش فيه قوانين بتحكمنى ؟! "

كانت هناك مشكله لم اتبينها ولم أسع الى معرفتها فلم يكن هذا الأمر يهمنى فى كثير أو قليل ... ذلك ان الصورة التى كانت أمامى ، بدت لى مناقضة تماما لصورة أخرى رأيتها فى زيارتى الأولى ليحيى حقى فى مكتبه، عندما دخل علينا الأستاذ نجيب محفوظ بكل أدبه والتزامه وحفظ المسافات بينه وبين الآخرين ... التقى الرجلان فى منتصف الغرفة وراحا يتجادلان حول تلك المشكله الادارية التى من أجلها ترك يحيى حقى مكتبه كى يناقش وكيل الوزارة فيها وجها لوجه ... وأنت، عندما يمنحك القدر فرصه لأن ترى وتسمع مثل هذا اللقاء بين اثنين من كبار مثقفى الأمة وهما يناقشان أمراً اداريا سوف يعطل أو يعرقل تلك الانطلاقه التى ارادها يحيى حقى لأحلامه فى مصلحة الفنون . فلسوف تجد ان المتعه الحقيقيه هنا، هى معرفة طبيعة الأمور فى كواليس صنع الثقافة المصرية فى مرحلة من مراحل الأمه التاريخية... كان يحيى حقى عنيداً، لم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه، وكان حسين فوزى مقيدا بما لا يملك التخلص منه، وبالرغم من

هذا فلقد استسلم أمام عناد ذلك الأديب الناشف الرأس ، عاد الى مكتبه وأمسك بالقلم استعداداً للتوقيع على اوراق كان يحيى حقى يحملها معه:

«أنا حاوافق على مسئوليتك يا يحيى !»

« ازاى يا فوزى ؟!»

«زى الناس، مش ده اللى انت عاوزه ؟!»

« وانت لازم تقف جنبى!»

ران الصمت للحظات حسم يحيى حقى الأمر بعدها بقوله:

«لو انت مطرحى، تحب منى ايه؟!»

هم حسين فوزى بالحديث عندما أردف يحيى حقى :

«لازم تتحمل المسئولية معايا، انت حاتسيبنى لوحدى للوحوش دى؟!»

ووقع حسين فوزى، وقدم الأوراق ليحيى حقى الذى ما ان تناولها حتى انفرجت أساريره وهو يلتفت نحوى:

«انا آسف يا أستاذ صالح اللى ماسلمتش عليك أول ما دخلت !»

انتفضت واقفا وانا اصافح يده الممدودة، قال:

«شايف الروتين بيعمل فينا ايه؟!»

سأله حسين فوزى دهشا وهو ينظر نحوى:

«انت تعرفه ؟!»

«اتعرفنا قبل كده، هو ما قالكش ؟!»

«قال لى ايه؟!»

«الاستاذ صالح مرسى قصاص مبشر جداً!!»

فى فرحه غريبة التفت حسين فوزى نحوى متسائلاً :

« انت بتكتب قصة ؟!»

قبل أن أجيب، قال لي يحيى حقي :

« أنا قريت قصة أم اللى قال لي عليها نجيب، القصة كويسة قوي، انما احنا لازم نقعد مع بعض ! »

قال هذا وهو يتصرف بأوراقه ... غير أنه قبل أن يفتح الباب مغادراً، التفت نحوي قائلاً :

« أنا تليفوني معاك، ابقى اتصل بي من فضلك ! »

وكانت سعادتي شديدة، وكان فخري أشد !

٣

لابد من الاعتراف بأن زيارتى لهذا الأديب اللامع الذى راح يتحدث عن الوجودية حديث من لم يقرأ عنها كلمة، قد سبب لي ما يشبه العقدة النفسية ... ذلك أن الرجل كان يتحدث عن هذه الفلسفة التى كانت رائجة فى ذلك الوقت رواجاً شديداً، والتى سقانيها الدكتور الفندى فيما بعد بمحاضراته التى كنت أحصل عليها من زملاء الكلية فى زياراتى الخاطفة إلى الإسكندرية، حديث العارف بمواطن هذه الفلسفة وأبعادها، بل والأكثر من ذلك، موقفها من الفلسفات الأخرى وموقف تلك الفلسفات منها... أصابتنى تلك الزيارة بخيبة أمل شديدة. كما أصابتى يحيى حقى - من ناحية أخرى - بذلك الإحساس المضنى بأنه لابد للأديب أن يكون ملماً بخفايا اللغة، بمعنى أن يوظف الكلمة توظيفاً دقيقا لاخفة فيه ولا تلاعب به.

ورغم طلب الرجل مني، كلما التقيت به، أن أتصل به، إلا أنى فى حقيقة الأمر، لم أفكر فى الإقدام على مثل هذه الخطوة ... كان يبدو لي مفعماً بالثقافة دون تكلف، إذا ما تحدث فى موضوع، تناوله من أبسط زواياه، وعرضه بأبسط ما يمكن من الكلمات ... وحتى إذا ما اضطر فى لحظة أن يستعمل اصطلاحاً أجنبياً، كنت أراه يعانى معاناة صادقة حتى يعثر على المرادف العربي الدقيق لهذا المصطلح ... أشعر فى يحيى حقى أن الفن هَم

مقدس، ولذلك، فهو هم ذاتي إن أردت أن تجيد فيه، وعليك أن تضمه إليك، تدفئه فى جوانحك، تغذيه بأفكارك وتستنبط ما تراه صالحاً صلاحا لا ريبة فيه ولا شك ... ولذلك، فلقد كنت كلما تمعنت فيما يقول، اكتشفت أننى أمام كنز زاخر من المعارف، فكيف أجلس إلى مثل هذا الرجل دون أن أكون مسلحاً بما يمكننى من الحوار معه؟!

وعلى جانب آخر، فلقد أفادنى عملى بمجلة الهدف إلى حد كبير، ولما كانت المجلة ثقافية، فإن من كانوا يكتبون فيها، كانوا من قمم الثقافة فى ذلك العصر، كان دكتور حسين فوزى يكتب مقالاً فى كل عدد، كما كتب فيها دكتور محمد مندور الذى مثل لى لغزاً استعصى لبعض الوقت على التفسير، ذلك أن هذا الرجل الذى كان أول من تبني جيلنا من كبار المثقفين والنقاد، كان إذا ما تحدث، جاء حديثه بسيطاً ببساطة الفلاح الذى يدردش مع أترابه تحت الجميزه فى القرية، لا مع تلامذه أو مريديه ... لكنه إذا ما كتب، أحسست أنك أمام شحنة ثقافية يتعذر على صاحبها، لفرط كثافتها، أن يحبس بعضاً منها، فتأتي كتاباته ثقيلة الوزن والمعنى ... وكان هناك أحمد رشدى صالح الذى كان جل حديثه عن الفنون الشعبية، كما كان هناك أساتذة فى الاقتصاد والسياسة والعلوم ... فإذا ما أضفنا إلى هذا، إقدامى على كتابة قصة حياة العالم المصرى الأشهر دكتور «على مشرفة»، فإن معرفة حقيقة حيوات مثل هؤلاء العظام تبدو مثل مدرسة يتعلم فيها الإنسان معنى الإصرار والطموح والعلم، وكما كانت حياة مشرفة نبراسا لمن يريد أن يحقق شيئا لوطنه، فلقد كانت قصة حياه عالمة الذرة المصرية سميرة موسى شيئاً قريبا من الخيال ... وعندما استطعت أن ألتقي بوالدها رحمة الله عليه، لم يبخل الرجل بشيء، بل فتح لى دولابها الخاص الذى لم يفتح

بعد مصرعها فى حادث مشكوك فيه فى الولايات المتحدة فى يوم ١٨ أغسطس عام ١٩٥٢ ... وإذا بى أمام قصة مذهلة لفتاة ريفية كان مقدراً لها أن تتعلم ـ وهى فى التاسعة من عمرها ـ مبادئ القراءة والكتابه فى كتاب قرية سنبو الكبرى مركز زفتى ثم تجلس فى انتظار العريس ... لولا لماحيه عريف القرية الشيخ الذى أذهله ما كانت تتمتع به هذه الفتاة من موهبة خارقة ... ولقد كانت قصة تدرجها فى المدارس، وحتى أصبحت أول معيدة في الجامعة المصرية، شيئاً يبعث على الفخر، ومعلماً من معالم كفاح المرأة المصرية كى تخرج من شرنقة الماضى إلى رحابة العصر الحديث.

هل أثار الحديث عن يحيى حقى فى نفسى كل هذه الشجون، بل هل أثار لقائى به ومعرفتى إياه فى نفسى كل هذه الطموحات إلى المعرفة، لا الأدبية فقط، وإنما المعرفة الشاملة؟!

أقولها اليوم، بعد رحيل الرجل ... نعم ؟!

هكذا كان يحيى حقى بالنسبة إلىّ، كان مثل قنديل يضئ لى طريق الفن ويكشف لى خباياه وأسراره، كان مرشداً ودليلا ومعلماً يضنى من يتعلم على يديه حقا، ويلزمه، إن كان جاداً، باتباع الطريق الصحيح وإلا ضل الطريق) ... والغريب فى الأمر، أن الرجل ـ على مدار السنوات ـ كان عند حسن الظن به، بل كان يكلف نفسه مالم يكن مطلوبا منه، لا لكى يقوم بدوره حيال جيل كان يشب بين يديه فقط، بل لكى يخدم الفن ... هكذا كان مبتغاه وهكذا ظل حتى آخر يوم فى حياته.

وهكذا راحت السنوات تمضى، انتهيت من دراستى فى كلية الآداب وأنا غارق لأذنى فى عملى بالصحافة وكتابة القصة ... ومع مرور الأيام، والاحتكاك الدائم بهذه القمم، وبرنامج القراءة الذى أخذته على نفسى

بالشدة، كنت أخطو فى عالم القصة والرواية ... هكذا كان حظى ، لاحقتنى الثقافة فى كل خطواتى، وكنت كلماأضيفت إلى معلوماتى حقيقة جديدة، أحسست بالجهل ينخر فى عقلى، وحتى اليوم، لازلت أشعر بكم ما ينقصنى من معارف!

وإنى لأتساءل اليوم : هل كان لكل هذاأثر فى قصصى؟!

أقول مرة أخرى، وبثقة من يعترف بجميل الآخرين: نعم !!

وإذا كان الحديث عن يحيى حقى مرتبطاً فى وجدانى بالثقافة، فلعلىأستاذن ـ استطرادا ـ فى طرح درس تعلمته ، فتعلمت منه الكثير !

كنت، عندما حل عام ١٩٥٨، قد أصبحت قصاصاً معروفا ـ رغم أنى لم أكن قد أصدرت كتابى الأول بعد ـ كانت القصة القصيرة فى ذلك العصر هى فاكهة الأدب ... وكان المرحوم عبد الرحمن الشرقاوى هو المشرف على باب القصة فى جريدة الشعب التى كانت تنشر قصة فى كل يوم فى صفحتها الأخيرة ... وهكذا اتفق الشرقاوى معى عن طريق فنان الكاريكاتير الكبير عبد السميع عبد الله، ومعه الأستاذ محمود سليمه سكرتير تحرير الجريدة ، أن أكتب فى الشعب قصة فى كل أسبوع ... كان معنى هذا أنى وصلت إلى مستوى متميز بين أبناء جيلى ... ولقد كتبت ذات أسبوع قصة بعنوان "الخوف"، وأرسلتها إلى الجريدة، حتى إذا ما حان موعد نشرها، فوجئت بالأستاذ سليمه يحدثنى تليفونيا، طالبا منى اختصارها ...

وركبنى الغرور ... فكيف تختصر قصة ؟!

هى ليست مقالاً وليست تحقيقا صحفيا ... لكن الأمر كان خارجاً عن إرادة الجميع، فلم يكن هناك بديل حتى تؤجل ... وكانت آلات المطبعة

ستصدر بعد ساعتين أو ثلاثة، هكذا وجدت نفسي أقف في مطابع الجريدة، غاضبا كل الغضب محتجاً كل الاحتجاج، مضطراً إلى اختصار ثلث القصة تقريباً ... ولقد اختصرت القصة مع قرار بألا أكتب للشعب مرة أخرى.

ونشرت القصة في يوم ٨ مارس عام ١٩٥٨ ، وكانت المفاجأة مذهلة!

وإذا بالقصة تصنع لغطاً شديداً في الوسط الأدبي، وإذا الكثيرون من الأدباء يثنون عليها ويتحدثون عنها ... غير أن المفاجأة التي أذهلتني حقاً، كانت عندما اتصل بي الأستاذ عبد السميع، كي يخبرني أن الدكتور لويس عوض قرأ القصة، وأعجب بها، وهو يريد أن يلقاني !!

بداية. وقبل الحديث عن لقاء لويس عوض ذلك اللقاء الغريب، فلقد وجدت نفس التساؤل:

لماذا حازت القصة كل هذا الإعجاب ؟!

ولم يكن عسيراً عليّ أن أعثر على جواب ... كان الجواب واضحاً، فلولا هذا الاختصار الذي أجريته غاضباً، لما جاءت القصة على هذا المستوى الذي رحب به الجميع، كان كل ما اختصرته، زوائد لالزوم لها، ولهذا فلقد جاءت على هذا القدر من الحبكة ... وكان هذا درسا لم أنسه حتى اليوم، فما من قصة أو فصل في رواية أو حتى مقال أكتبه، إلا وأعيد قراءته مرة ومرتين ومرات، أحذف منه، ولو كلمة واحدة أرى أن لا لزوم لها !

ولنعد إلى لقائي بالدكتور لويس عوض.

لم أكن أعرف الرجل، كما لم أكن قد التقيت به سوى مرات معدودة ... وعندما ترددت في تلبيه الدعوة، تبرع الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى، أن يصحبني في تلك الزيارة، فوافقت.

ذهبت مع حجازى إلى بيت الدكتور لويس عوض حسب الموعد المحدد

وهو الثالثة بعد الظهر... وعندما دلفنا إلى غرفه مكتبه، كان يتناول غداءه في طبق واحد وضعه أمامه على المكتب ... إلى جواره، كان يربض كلب ضئيل الحجم من نوع الوولف ... استأذن منا حتى ينتهي من غدائه، فرحت أرقب مكتبته من حولي ... كانت المكتبة تشغل الجدران الأربعة، من الأرض وحتى السقف... وكانت الجرائد والمجلات متناثرة هنا وهناك في فوضى امتدت إلى المكتب حيث تكدست المراجع والأوراق التي كان يستعين بها في كتابه سلسلة من المقالات كان ينشرها أسبوعيا في الشعب عن شكسبير... ولقد كان لويس عوض شخصية ذات قوام خاص... ما أن انتهى من طعامه، حتى حمل الطبق إلى الخارج، ثم عاد إلينا... تناول من فوق المكتب صندوق سجائر وأشعل سيجارة، ثم ما لبث أن جلس ناظراً إلى في إمعان نظرة من تفحص كائناً غريباً... لزم الصمت لثوان ثم سأل باستعلائه هذا المحبب إلينا:

"انت اللي كتبت قصة الخوف ؟!"

رددت على سؤاله بالإيجاب... ولما كانت القصة تدور أحداثها في البحر، فلقد تطوع حجازي في أن يشرح الأمر للأستاذ قائلاً أنني كنت في بداية حياتي العملية بحاراً، وأن جزءاً كبيراً من قصصي تدور أحداثه في البحر... استمع إليه لويس عوض، ثم إذا ما انتهى، امتدت يده إلى أحد أرفف المكتبه، وتناول منها عدد الجريدة التي نشرت به القصة... دفع الجريدة نحوي قائلا:

" خذ... اقرا لي القصه!"

كان الطلب غريباً، وكان أسلوبه أغرب... ذلك أن معنى إعجابه بالقصة، أنه قرأها، فما سبب طلبه ذلك؟!

ولأنى من ذلك النوع من البشر الذى يسعى إلى الحقيقة مهما كلفه الأمر، فلم أسأله، ولم أستفسر، إنما تناولت منه الجريدة ورحت أقرأ القصة أمامه... مضت السطور، واندمجت في القراءة، حتى إذا ما وصلت إلى منتصف القصة، إذا بلويس عوض ينهض من مقعده سائراً فى الغرفة وهو يردد بالإنجليزية:

"اكسلانت ... اكسلانت !"

ازدادت دهشتى وتوقفت عن القراءة ناظراً إليه... وإذا به يلتفت نحوى فيما يشبه الغضب، وكان قد توقف أثناء سيره بجوار باب الغرفة وكلبه إلى جواره، ثم سألنى بلهجة المعلم الذى يؤنب تلميذه:

"وقفت ليه؟!"

ولم أرد ... عدت إلى قراءة القصة من جديد، حتى إذا ما انتهيت منها، عاد إلى مقعده وقد كان يبدو قلقا طوال قراءتى للقصة، ثم نظر إلى مليا، وبعدها سأل:

"عارف أنا طلبت منك تقرا لى القصة ليه ؟!"

كان هذا بالتحديد هو ما أريد معرفته، ولما أجبته بالنفى قال:

"أنا كنت عاوز أعرف إذا كانت الشاعرية اللى فى القصة مقصودة ولا لأ؟!"

" ولقيت إيه يا دكتور ؟!"

"عاوز تعرف؟!"

"طبعاً!"

"أنت كاتب قصة ممتاز، لو استمريت بالشكل ده، حاتعمل حاجة !"

لذت بالصمت، ومرت لحظات قال بعدها :

"أيوه ... هاتعمل حاجه !"

وهكذا انتهى اللقاء... خرجت من بيت لويس عوض وأنا أشعر بضيق لم يغادرني حتى اليوم رغم حبي الشديد لهذا الرجل، ذلك الضيق الذي منعني من إرسال أي كتاب لي إليه، حتى كتاب الخوف نفسه !!!

***

ولقد يتساءل البعض عن السبب الذي من أجله جنحت ـ أثناء الحديث عن يحيى حقي ـ إلى هذا الاستطراد الذي طال بعض الشيء... وإذا كانت الذكريات تتادى بعضها البعض بالتداعي، فلقد رأيت أنه من المهم للغاية، أن أقارن بين أسلوبين مختلفين لأستاذين تعلمنا منهما الكثير... وإذا كان لويس عوض قد قال ما قال واعتبر الموضوع منتهيا بقوله أني قد أصنع شيئا وكأنه قد قلدني وساماً ـ الخ فإن يحيى حقي كان على النقيض تماما ... فعندما أتيحت لهذا الرجل أن يقول رأيه في عملي ... جاء قوله حاسماً، مانعاً، شاملاً، غائصاً في أعماق القصة إلى درجة كشفت لي نفسي، وعرتني من ثيابي الأدبية، لا أمامي فقط، وإنما على الملأ !!

حدث هذا بعد واقعة لويس عوض بعامين كاملين!

كان كتابي الأول يضم ثماني عشرة قصة، تدور أحداث جزء كبير منها في البحر... وكانت قصة "الخوف" بطبيعة الحال ـ واحدة من هذه القصص، لذلك... فلقد أعطيت للكتاب عنوانا هو "الخوف"!

وكما ذكرت من قبل، فلقد صدر قبل كتابي كتابان آخران لشابين من جيلي، هما الراحل فاروق منيب، وعبد الله الطوخي ... ولأننا كنا جيلا واحداً. فلقد كانت قصصنا تمثل مدارس أدبية مختلفه، ولقد كان اهتمام الوسط الأدبي بنا ملحوظاً ... من هذا الاهتمام، ندوة عقدت في نادي

القصة، وكان المتحدث فيها هو القنديل، صاحب القنديل، كان يحيى حقى!!

وجاء الرجل بعصاته الشهيرة، وخطوته الوئيدة، وجلس إلى المائدة المعدة له فى صدر المكان الذى كان مزدحماً ازدحاماً شديداً، ذلك أن الأدباء فى ذلك العصر، كانوا مهمومين بالأدب فعلا، متابعين لكل إنتاج يظهر فى السوق... وبدأ الرجل بالحديث عن مجموعة " الديك الأحمر" لفاروق منيب، وكانت المفاجأة التى أدهشتنا جميعا، أن الرجل كان قد قرأ قصص المجموعة كاملة، وكون رأيا، لا فى المجموعة ككل، ولكن فى كل قصة على حدة ... ولم يكن مجاملاً، بل كان مؤدباً، يقول ما يقول وينقد ما يراه قابلا للنقد دون أن يتعالى، أو يُشعر أحداً من الحاضرين، أنه أستاذ يتحدث عن تلاميذ لازالوا فى مقتبل تلك الحياة الشاقة للأديب ... ولقد انتقل من "الديك الأحمر" إلى "داوود الصغير" لعبد الله الطوخى ...

أكذب لو قلت أنى أذكر بالتفصيل ما قاله، لكن الذى أذكره جيداً، أن كل من فى القاعة، كانوا منصتين وكأن على رؤوسهم الطير حقاً... لا لأن يحيى حقى كان خافت الصوت فقط، بل لأن ما كان يقوله، كان نوعاً من الشرح والتفنيد والتفصيص - إن صح التعبير - لا يتكرر...

الحق أقول، أن التوتر أصابنى طوال حديث الرجل الذى استغرق ساعة وبعض الساعة... كان السؤال الذى طرح نفسه علىّ بشدة هو : هل كانت قصصى أقل فى نظره من أن يبدأ حديثه بها ... أم أن فى الأمر ما دفعه لأن يجعلها فى ختام حديثه ؟!

وعلى كل ... فلقد انتهى الحديث عن "داوود الصغير"، فتوقف الرجل عن الحديث... رشف من كأس ماء كان بجواره رشفة، ثم أشعل سيجارة مستأذنا بأنه بذل جهداً فى قراءة القصص التى وصل عددها إلى قرابة

خمسين قصة في المجموعات الثلاث... أسرعنا إلى تقديم فنجان قهوة له، وراح الجميع يتهامسون مستعرضين ما قاله الرجل... مضت الدقائق حتى احتسى الرجل فنجان قهوته، بينما كنت أنا جالساً في ركن من المكان لا أكف عن التدخين لحظة... حتى إذا ما اعتدل في جلسته، ساد الصمت تماماً، وما استأنف الحديث، حتى جاءت جملته الأولى، مثل قنبلة زلزلت كياني تماماً ... قال:

"أما صالح مرسي ...فلقد قرأت قصصه مرتين.. ذلك أني وجدت نفسي أمام أديب من نوع خاص!"

قال هذا وصمت لثوان قال بعدها:

"إننا أمام رجل يبحث عن قطة سوداء، في غرفة مظلمة!"

كانت البداية غريبة، وكان التعبير أغرب... وكان عليّ، وقلبي يخفق، أن أستمع إلى رأى الأستاذ والمعلم، فيما كتبته من قصص حتى ذلك التاريخ، الأول من يناير عام ١٩٦٠ .

وكان ما قاله عجباً!

٣

لم يكن يحيى حقى هو أول من تحدث عن تلك الكتب الثلاثة التى صدرت فى أوقات متقاربة لفاروق منيب وعبدالله الطوخى وأنا ... كان أول من تناول قصصنا بالنقد والتحليل هو الصديق الاستاذ فؤاد دواره ... وبالرغم من حدة فؤاد وتجهمه اللذين كانا دائما ، وحتى اليوم ، سمة من سمات شخصيته ، إلا أن نقده لمجموعه " الخوف " كان مفيداً لى الى حد بعيد ... ذلك أن فؤاد كان من نفس الجيل ، وفى نفس الوقت كان صديقا حميماً يتميز بعناد لايجاريه فيه أحد ... ومهما كانت الحجج والبراهين ، فهو لايتزحزح عن رأيه أبداً ، لا لأنه يركب رأسه ، ولكن لأنه لا يطلق هذا الرأى الا بعد تمحيص ودراسة ومعاناه كنت أشهدها وأعاصرها وأعايشها معه ... واذا كان فؤاد قد افادنى كثيراً كلما قرأ لى قصة منشورة ، أو كلما التقينا فى مجموعه من الأصدقاء .. وقرأت القصة عليهم ... الا أن رأيه ، عندما صدرت الكتب ، واتضحت معالم كل واحد منا مكتمله فى مجموعة قصصه، كان بالقطع أكثر فائدة ، وأكثر عمقاً ... وربما كان فؤاد دواره هو اكثر نقاد جيلنا إلماماً بمميزات كل منا وعيوبه ، لا لأننا كنا أصدقاء فقط ، ولكن لأن قصصنا كانت تمثل له هماً حقيقيا ، وواجباً رأى أن عليه أن يؤديه مهما كان الأمر ، ومهما كانت قسوته فى التناول !

اما أستاذنا الراحل الدكتور محمد مندور ، فعندما صدرت الكتب الثلاث ، فلقد أفرد لها صفحة كاملة في جريدة الجمهورية ... وإن أنسى ، فلن انسى قوله عندما تناول قصصي بانها قريبة جداً من الكاتب الفرنسي جي دي موباسان الذي يعتبر أبا للقصة القصيرة في التاريخ الأدبي كله ... وبطبيعة الحال ، فلقد اسعدني قوله هذا لكنه في نفس الوقت أدهشني ، فلم اكن قد قرأت لجي دي موباسان الا عدداً قليلا من قصصه تلك التي كانت قد نشرت في سلسلة " كتابي " ... وكان لابد لي من الاتصال به تليفونيا ، قلت له إني لاأريد ان اشكره ، لكني اريد ان اطرح عليه عدداً من الاسئلة أصبحت تمثل لي هماً حقيقيا ، وضحك الرجل ضحكة قصيرة وهو يقول في بساطة :

" طب ماتيجي ! "

كان رحمة الله عليه يسكن مع زوجته الشاعرة ملك عبد العزيز ، في حي الروضه ، وكان بيته بالنسبة الينا بيت أب نلجأ اليه ... كان قريبا منا الى حد كبير ، ولكن أقربنا إليه حقاً ، كان فؤاد دواره .

وعلى كل ... فعندما ذهبت اليه استقبلني كعادته بترحاب الفلاح الذي يرحب بضيف عزيز ... جلست إليه لا أعرف من أين أبدأ الحديث ، ولابد انه لاحظ ترددي فلقد ابتسم قائلا :

" ماتكونش ياوله متضايق من اللي كتبته عنك ؟! "

على الفور انفجر السؤال من داخلي :

" دكتور مندور ... إنت قلت ان قصصي قريبة من قصص جي دي موباسان ! "

" ايوه قلت كده ! "

" ده مش كثير عليّ ! "

استقرت الابتسامة على وجهه لثوان وهو يرقبنى بامعان ، ولقد قال لى الرجل بعد ثلاث سنوات ، وكنا فى رحلة ثقافية لازمته فيها ليل نهار لأكثر من عشرة أيام ، رحله حملتنا من القاهرة الى بور سعيد ثم الاسماعيليه ثم السويس ... قال انه - عندما طرحت عليه هذا السؤال - ظن انى أريد الاستزادة من المديح لولا تلك النظرة القلقة التى لمحها فى عينى ... وعلى كل ، فلقد اشعل يومها سيجارة وهو يقول :

" اسمع ياوله ! "

وسمعت ... مال نحوى مردفاً وكأنه يفضى الىّ بسر :

" فى بلاد بره ، الفن مالوش كبير ومالوش سن كمان ، ممكن واحد يطلع رواية واحدة يدخل بها التاريخ ويعيش عليها عمره وبعد عمره كمان ... زى الجدع اللى اسمه جو ستاف فلوبير اللى كتب مدام بوفارى ! "

كان دكتور مندور قد ترجم هذه الرواية لسلسلة " مطبوعات كتابى " قبل بضع سنوات ترجمة أدبية رفيعة بحق ، قلت له أننى قرأت الروايه ثم أضفت:

" بس فلوبير له روايات ثانيه ؟ "

" أيوه ... لكن مش فى مستوى مدام بوفارى ! "

قال هذا ولزم الصمت ريثما يجذب نفسا من سيجارته ، ثم ما لبث ان استطرد :

" ولحد النهاردة ، ماتلقاش حد بيقرا للرجل ده الا مدام بوفارى ! "

رحت اتساءل بينى وبين نفسي عما كان يقصده بهذا المثل ، فعاجلنى :

" فهمت والا عاوز تفهم كمان ؟! "

" عاوز أفهم كمان ! "

" أصل النقاد فى بلدنا فاكرين نفسهم بيفهموا أكثر من غيرهم ، علشان كده بيضنوا على الاجيال الجديدة بكلمة حلوة ! "

" يعنى ... ... "

" ما يعنيش ولا حاجه ، انت قريت قصص موباسان ؟! "

" قريت اللى اترجم منها ... ... "

قاطعنى :

" انا مش فاكرها كويس ، وده باين فى قصصك ... انت اتأثرت بيه من غير ما تحس ، بس بقى اللى لازم تحرص منه ، انك ماتقلدوش ، لازم تبقى لك شخصيتك المستقله ! "

ثمة لحظات فى عمر الانسان من المحال ان تنسى مهما مضت السنوات ... ولقد مضت ساعة وبعض الساعات لم يكف الدكتور مندور رحمة الله عليه عن الحديث او التدخين معاً ... راح يتحدث عن الفن عموماً ، وعن القصة القصيرة بشكل خاص ... قال الرجل ان الأمل فى جيلنا كبير ، ذلك ان الفرصة متاحه له كى ينشر انتاجه فى مجلات وجرائد كانت تملأ السوق ... أهم ما كان يعنيه ، انه لابد لنا من قراءة القصص القصيرة لكبار كتابها فى الغرب الذين أرسوا دعائم الفن : " ... ... الثقافة مهمه ياوله ياصالح ، واضح انك بتقرا ، بس مش كفاية ، لازم تناقش اللى بتقراه بينك وبين نفسك ، وأوعى تحس انك اقل من غيرك ، مهما كان اللى بتقرا له ده كبير واسمه زى الطبل ! "

قال هذا واطلق ضحكة قصيرة أردف بعدها :

" أصل الاستعمار عقدنا ، وخلانا نحس اننا اقل منهم ! ! ! "

خرجت من لندن وأنا أحمل في جوانحي ذلك الاحساس الثقيل بأني أحمل شيئا لا أعرفه ، شئ غامض علي أن اكتشفه ... وكنت - إذا ماجلست لكتابة قصة أو سطور فى رواية - يتمثل لى ما قاله الدكتور مندور فينتابني الارتباك مع الحيرة ، حتى ... حتى كانت محاضرة الاستاذ يحيى حقي في نادى القصة !

....

....

«اننا أمام رجل يبحث عن قطة سوداء ، في غرفة مظلمة !!»

قال يحيى حقى تلك الجملة التي قالها ، ثم بدأ الحديث عني .

قال ان اكثر ما أدهشه في قصصي ، ان تناول كل قصة كان يختلف عن التناول في القصص الأخرى ... وراح يقارن بين تناولي لقصه " الخوف " وتناولي لقصة " خناقة " ... أخذ يعدد أوجه الاختلاف بين قصه " قاع البحيرة السوداء " ، وقصة " الرجل الكبير " ... قال أخيراً ، انه اكتشف انني لا اكتب القصة فقط ، ولكني أبحث عن شكل جديد للقصة ، انني ابحث عن قطة سوداء في غرفة حالكة الظلام ، فالشكل الذي أصبو اليه قد يكون موجوداً ، لكنه أيضا قد يكون سراباً !!

قال فيما قال ... أن القصة القصيرة مثلها مثل اى فن من الفنون له قواعد ثابته وأصول لا تتغير ، قد يختلف أسلوب كاتب عن أسلوب كاتب آخر ، غير ان الأسس دائما تظل ثابته ... وهناك نماذج فريدة في تاريخ الأدب علينا أن نقرأهم وندرسهم بعنايه ، هناك أو . هنري ، وجون أوهارا في الولايات المتحدة ، وهناك أبو القصة القصيرة جي دي موباسان في فرنسا ، ثم عملاق القصة القصيرة في روسيا وهو انطون تشيكوف ... ورغم

الاختلاف الشديد بين هؤلاء العمالقة ، الا ان الأسس واحدة عند الجميع ، المقاييس الفنية لا تتغير ، ولا تختلف، ان الذي يختلف هو التناول ، أو ما يمكن ان نطلق عليه " التكنيك " !

□ □ □

لم يكن من الممكن وقد انتهت الندوة ، ان نترك يحيى حقي يمضى الى بيته ، التففنا حوله جميعا ، كان هناك صبرى موسى وفاروق منيب وبدر نشأت وعبد الرحمن فهمي وعبدالله الطوخي ومحمد سالم وفهمي حسين وعبد الفتاح رزق وصبرى العسكري... تلك كانت كوكبة من كتاب القصة القصيرة في ذلك العصر الذي ازدهر فيه الأدب إزدهاراً غير مسبوق ، وكانت بؤرة الجدل الذي امتد الى قرابة الساعة ، هي تلك الأسس ، والمقاييس التي تحدث عنها الرجل الذي لم يبخل علينا بشئ ، ولم يرد لنا سؤال ... حتى اذا ما كان لابد له من الانصراف ، اصطحبناه - صبرى موسى وعبدالله الطوخي وأنا - حتى باب الطريق... وكنا اثناء هبوطنا الدرج معه وحوله ، لا نكف عن المناقشة أو السؤال .

في البهو الموصل الى باب الطريق ، توقف الرجل ، التفت نحونا ، بدا سعيدا تماما ، قال :

" انا كان نفسي أكمل معاكم ، انما انا مرتبط بموعد ! "

قال أحدنا! .

" طب احنا عاوزين نقعد معاك قعده ثانيه ! "

" يبقى أعزمكم على العشا !! "

قال هذا وهو يحدد لنا موعد ومكان اللقاء ... وكان المكان في أحد مطاعم مصر الجديدة ، وكانت الدعوة موجهة لنا ولزوجاتنا أيضا !

□ □ □

كثيرا ما يتنابني الشوق الى الأستاذ يحيى حقى رغم رحيله عن دنيانا ، وكثيراً ما انتابني هذا الشوق قبل رحيله ...وكثيراً ما أشعر بالذنب ووخز الضمير لأنني لم أكن قريباً منه في أخريات أيامه ، رغم انني كنت أول من دون قصة حياته في مجله " الهلال " ابان رئاسه تحرير الدكتور على الراعي لها!

وكثيرا أيضا ما أشعر بالحنين الى تناول العشاء في ذلك المطعم الأوروبى الأنيق في ضاحيه مصر الجديدة ، كي أجلس الى نفس المائدة التي تحلقنا حولها في تلك الليلة الفريدة التي راح الاستاذ فيها يتحدث عن الفن في تدفق غريب ... كان في تلك الليله يبدو سعيداً سعادة غامرة وكأنه يجلس الى أولاده فعلا لا مجازاً ... أعطانا في تلك الليلة كل ما عنده ، أفاض في الحديث عن القصة القصيرة بالذات ، بدا وكأنه يلقى الينا بوصاياه ، خفق قلبي وأحسست أني قريب منه قربي الى أبي ... كان حديثه عنى في تلك الندوة ، قد ألقى بي الى خضم معركة فكرية كانت تحتدم في صدري يوماً بعد يوم... غير ان " الثقافة " بدت في تلك الليلة ، هي همه الأكبر ... تحدث عنها كثيراً ، صال وجال وسافر وأبحر وتحدث عن جيله من المثقفين ... وعندما سأله أحدنا عن أكثر أبناء جيله ثقافة قال دون تردد :

" حسين ... حسين فوزى أكثرنا ثقافة مفيش شك ! "

ثم ، ولفترة ما ، عاد يتحدث عن تلك القطه السوداء التي أبحث عنها في غرفتي المظلمة...

وفي حقيقه الأمر ، فإن ماقاله عن هذا الشكل الذى أبحث عنه لم يكن قد خطر ببالي ... غير أن شيئا آخر كان يشغلني حقاً ، شئ قريب مما قال ،

وربما ... ربما كان هذا الشئ ، هو الذى قادنى الى هذا الطريق الذى تحدث عنه !

كان نجاح قصصي الأولى كفيل بأن يصيبنى بغرور كاف لأن يقضى عليّ كفنان أو أديب أو حتى كانسان ... غير أن كثيرا من النماذج التى أحاطت بى وقتلها الغرور ، جعلتنى حريصا ، وحتى اليوم ، أشد مايكون الحرص حتى لا أقع فى شباك هذا المرض العضال ... غير أن إعجاب الناس بقصصي ، نبهني الى سؤال طرح نفسه عليّ بشدة :

فهل كان الاعجاب مرده الى القصص نفسها - كما قال يوسف إدريس فى خطابه الأخير لى - أم أن طبيعة المادة - وهى البحر - هى التى لفتت الأنظار اليّ !!

لم يكن هناك من كتب عن البحر باللغة العربية قبلى ، ولقد أطلق على بعض النقاد فى تلك السنوات لقب " أديب البحر " ، كما أطلقوا على أدبى اسم " أدب البحر " ... واذا كانت الأقدار قد وضعتنى فى موضع الريادة لمثل هذا اللون من الأدب ، فلقد دفعنى هذا الى التفكير فى أمر القصه والرواية فى الأدب العربى الحديث ...

كانت الحقيقة التى واجهتنى بالغة الغرابة ... ذلك ان قصصنا وروأياتنا تدور كلها فى القرية أو فى المدينة ، فى المصنع أو المكاتب أو البيوت أو الحقول ... ان الحياة من حولنا بالغة الرحابة ، ان هناك البحر ، والصحراء ، والطيران ، والمناجم ومعامل البحوث وحقول البترول و ... و ... وعشرات المجالات الزاخرة بالقصص والحكايات والروايات ، وهى مجالات كفيلة بأن تخرج بالأدب العربى من هذه المحارة المغلقة ، الى رحابه الكون بكل ما فيه ... ولذلك ، فلقد أصبح همى ، بعد أن كتبت رواية زقاق السيد البلطى ،

هى البحث عن مجالات جديدة لخوض التجربة الأدبيه ... فبعد عامين خضت تجربة رواية " الكذاب " ، عندما عملت بالفعل كجرسون فى مقهى شعبى فى درب الجماميز بحى السيدة زينب ... ثم كانت السجين ، تلك الرواية التى احتفى بها استاذنا الكبير توفيق الحكيم احتفاء لازلت اعتبره حتى اليوم وساماً... ثم ... ثم ربما كان هذا الاحساس هو الذى دفعنى للكتابه عن عالم التجسس والمخابرات ... و ...

وعلى كل ... فلقد ذهبت الى ذلك العشاء الذى دعانا اليه الاستاذ يحيى حقى وقد أضاء حديثه لى بعضاً من الطريق الممتد وقتها فى المستقبل المجهول ... أكثر ماركز عليه الحديث فى تلك الليله ، هو " قوام القصة القصيرة " ... رحت أستمع اليه وكل خلية فى جسدى قد تحولت الى أذن مصغية...

وانتهت تلك الليله ، وقد أضيف الى كل منا الكثير من فيض هذا الرجل العظيم !

ومرت الأسابيع .

هى أسابيع فقط كتبت بعدها قصه بعنوان " حب للبيع " ، نشرت فى روز اليوسف .

وفى نفس يوم نشرها ، دعانا الصديق فؤاد دواره الى العشاء فى بيته ، وكانت هذه من المرات القليلة التى احتفى فيها فؤاد بقصة لأى منا ... كان سعيداً حقيقة وهو يحدثنى عنها فى إعجاب لا تحفظ فيه ... غير أن المفاجأة التى أذهلتنى حقاً ، جاءت فى ضحى اليوم التالى .

كانت روز اليوسف لاتزال فى مبناها العتيق ذاك فى شارع محمد سعيد ... وكانت مكاتب المجلة - كالعادة - تشغى بالأدباء والزملاء والشعراء

والزوار والقراء ، عندما فوجئنا جميعا ، بالأستاذ يحيى حقى ، يدخل الى صالة التحرير ، عصاه فى يده ، وعيناه تبحثان عن شخص ما .

هببنا جميعا مرحبين به ، ظننا انه جاء لزيارة استاذنا الكبير احسان عبد القدوس ، غير ان الرجل ما ان توقف وقد احطنا به ، حتى نظر الى قائلا :

" انا جاى مخصوص علشان اهنيك على القصه التى نشرت امبارح فى روز اليوسف ! "

كان هذا فوق الاحتمال ، وفوق الخيال ، وفوق التصديق أيضاً ، أردف الرجل :

" تقدر تعتبر قصتك دى ، نموذج مثالى للقصة القصيرة ! "

لم تكن سعادتى لأنه امتدحنى ... لكن سعادتى الحقيقية كانت ، لأنه علمنى كيف يكون الأستاذ عملاقاً، وأستاذاً !

□ □ □

فى عام ١٩٧٠ ، تولى دكتور على الراعى رئاسه تحرير مجله الهلال الثقافية ، كنت فى تلك الأيام قد اقتربت من الرجل اقترابا أسعدنى بحق... وعندما طرحت عليه فكرة كتابة قصة حياة يحيى حقى ، رحب الرجل بشدة ... وذهبت ، وجلست اليه ثلاث جلسات احس بعدها بالإرهاق ... غير انى عندما نشرت الموضوع ، اخترت له عنوان : " ابى الذى شفانى من عقده أوديب !! "

رحم الله يحيى حقى، وبوأه فى الآخرة مكانته التى عزف فى الدنيا عن اعتلائها .

توفيق الحكيم

السهل الممتنع علينا

١

كان لابد لي من البحث طويلا عن أول لقاء لي مع أستاذنا الكبير توفيق الحكيم رحمة الله عليه .

كان لابد لي من الإسترخاء حتى تتسلل الذكريات عبر أحراش العمر المتشابكة كي أخرج من بينها نتفاً من علاقة اتيحت لي كالكنز المفتوح ، لولا ذلك العيب أو الداء الذي يعتريني أمام أي فنان أريد الاحتفاظ له في وجداني بذلك البريق الأخاذ الذي لاينطفئ مهما مضى عليه من زمن أو حقب بعيداً عن الانسان فيه ! !

ثمة اثنان في حياتنا الثقافية ، لو أننا أمعنا النظر حقاً فيما أعطيانا من ذخائر ثقافية وفنية وأدبية، لأقمنا لهما التماثيل وأنشأنا باسميهما المكتبات ... فهذان العملاقان أعطيا للأمه العربية ، لا مصر وحدها ، كنوزاً من جواهر ثمينة في زمن كثر فيه الرخيص من المعدن ... هذان العملاقان هما ، طه حسين ، وتوفيق الحكيم !

فبينما كان طه حسين جامعة ثقافية وحده ... كان توفيق الحكيم أكاديمية فنية قائمه بذاتها .

وأنا لم أعرف طه حسين ، ولم ألتق به مرة ... فقط ، حضرت له محاضرة واحدة في قاعة ايوارت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ... كنت

بطبيعة الحال قد قرأت له العديد من الكتب ، كان أولها "الأيام" – ومن منا لم يقرأ أيامه تلك السامقة ؟ ! ـ وتعلمت علي يديه من كتابه " الوان " الذي لازلت أحتفظ بتلك الطبعة الأولي منه التي صدرت في عام ١٩٤٦ ، والذي أخذني فيه الي مشارق الأرض ومغاربها في رحلة ثقافيه وفنية غاية في المتعه والفائدة ... كتاب أعود اليه بين الحين والحين كي أتزود من ذلك النبع الذي لم ينضب حتى اختاره الله الي جواره ... ذلك الفارس المغوار الذي – وهو الضرير – ركب حصانه وامتشق قلمه وراح يصول ويجول في التاريخ والحاضر معاً ، مكتشفاً القارات الثقافية ، خائضا في فيافي الثقافة عربية كانت أم غربية ، مستنبطاً ما يعن له من افكار ، مستخرجاً كنوزاً لاتزال حتى اليوم – ولسوف تظل – من آثار ثقافتنا المعاصرة ، يحج اليها السائحون في عالم الفكر!

في مساء يوم الجمعه السادس والعشرين من شهر ابريل– نيسان – عام ١٩٥٦ ، كانت المرة الأولي والأخيرة التي رأيته فيها ... جلست في قاعة ايوارت أستمع الي الرجل في محاضرته التي اختارلها موضوعاً هو : «الاتجاهات الأدبية للحضارة المعاصرة» ... كنت حديث العهد بعالم الفكر مجسداً في شخوص، ولم يكن قد انقضى شهر ونصف الشهر فقط منذ وفدت علي العاصمة من الاسكندريه...

ولازلت حتى اليوم اذكر تلك الصورة المبهرة للدكتور طه حسين بنظارته السوداء وشعره الرمادي وبشرته السمراء وهو جالس فوق المنصة ، منسابا بصوته ذاك الرخيم العميق الوئيد الخطى ، متحدثا عن أنواع الأدب ، مقسماً إياه الي أدب ارستقراطي متراخي فارغ المحتوى ، وآخر لعامة الشعب ... اعطي مثلا بإلياذة هوميروس وأوديسته كأدب شعبي متوهج

ورقيع، وانثنى إلى السرياليه - موضة الفن آنذاك في أوروبا - فانهال عليها بكلمات كالمعاول ، ووصفها بانها " تخطريف في تخطريف " - وهو الذى كان أول من قدم فرانز كافكا لقراء العربية !- ثم عرج على الأدباء الشبان - وكنت واحداً منهم رغم حداثة عهدى بتلك المحافل الأدبيه - وأخذ يهاجمهم هجوماً لارحمة فيه ... كان الرجل قد كتب قبل شهر في مجله الرساله الجديدة مقالاً هاجم فيه الأدباء الشبان واستعمالهم اللهجة العامية ، وكان يرى أن هذا ليس سوى جهل باللغه العربية وقصور في ثقافتهم ، وشبه الأدباء الشبان بمن يمسك بمسجل كي يسجل للناس أحاديثهم ثم يُسمعهم اياها ، فهو هنا لم يأت بجديد ... ذلك أن الأديب عليه ان يعطى للكتابه من ذاته وروحه ما يضيف به للناس شيئا جديداً !

ورغم ان الغالبية العظمى ممن حضروا هذه الندوة كانوا من الشباب ، ورغم هذا الهجوم الضارى فما ان انتهى الرجل من محاضرته ، حتى دوت القاعة بالتصفيق الذى دام لدقائق دون توقف .

هاأنا أخيراً في القاهرة ، استمع الى طه حسين واستفيد منه مباشرة ، رحت أرقبه في هبوطه من فوق المنصة مسترشداً بيد سكرتيره ... رحت أرقب النجم الساطع وهو يسير ومن حوله تدور الكواكب الناشئة وتتجمع ، يمطرونه بالأسئلة والاحتجاجات فاذا ابتسامته تملأ وجهه ، واذا إجاباته عليهم مثل وخز الإبر ... وحتى وصل الاستاذ الى الطريق كان الجميع من حوله ، وكنت أقف بعيدا مشدوهاً فالمشهد أمامي جليل والحدث رائع ... واذا الكواكب السيارة تتمسح في النجم المضيء أبداً في سماء الأدب ، ذلك النجم الذى كان أول من أطلق صـ ة دوت في أرجاء الأمة ، مطالبا بأن يكون التعليم كالماء والهواء !

وهاأنا أجلس كي أكتب عن توفيق الحكيم فإذا بي أبدأ بالحديث عن طه حسين ... فلماذا ؟!

أليست هذه ظاهرة جديرة بالتأمل ... انك اذا ما ذكرت هذا الجيل وعرج الحديث الى النجوم ، قلت أو قالوا : طه حسين وتوفيق الحكيم ... كانا متلازمين أبداً في الوجدان ، رغم ان العقاد كان هناك مع المازني وهيكل واحمد أمين وعشرات النجوم ، فما تلازم اثنان من الأدباء مثل تلازمهما ... فلماذا ؟!

سؤال تحتاج الإجابة عليه الى بحث ليس هنا مجاله .

وقد التقيت بتوفيق الحكيم في سن مبكرة ، كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما وقع في يدي عدد من مجلة " مجلتي " التي كان يصدرها الصحفي الكبير أحمد الصاوي محمد ... كانت المجلة نوعاً فاخراً من المجلات ، ليس فقط لأنها كانت تطبع على ورق فاخر ، وليس لأن تصميم غلافها الأحمر كان ذروة في الذوق والفن يختلف تمام الاختلاف عما عداها من المجلات الثقافية ، بل لأن اختيار الكتّاب والمقالات والقصص كان رفيعا وفاخراً أيضا ... رحت أتصفح ذلك العدد الذي وقع في يدي حتي توقفت عيناي عند مسرحيه لتوفيق الحكيم كانت تحمل اسم " رصاصة في القلب ".

في ذلك الوقت كنت بالقطع قد سمعت عن توفيق الحكيم كواحد من أبرز كتاب الجيل ، اشتهر بعصاته وحماره والبيرية العتيد فوق رأسه لا الطربوش، وكنت اذا ماوقعت عيناي على ذلك البرواز الذي كان ينشر في احدى الصحف تحت عنوان : " حماري قال لي " ... رحت ألتهم الكلمات التهاماً ... أفهم ماكتب أو لا أفهم لايعنيني ، فلقد كان يسعدني أشد السعادة تلك البساطة والسلاسة التي تجعل عينيّ تجري فوق السطور وكأنها

تنزلق فوق مسطح أملس ... رحت اقرأ ما نشر من المسرحية في " مجلتي " فاذا الأحداث تبدو لي مثل حدوته ... صديق يقع مصادفة في حب خطيبة صديقه دون أن يعرف ، هو شاب أعزب متلاف طيب القلب نقي السريرة ، بينما الخطيب طبيب مرموق كل مايعنيه هو التطلع الى الطبقة العليا والتظاهر بثراء ليس له ... حتى اذا ما اكتُشف الأمر ، انسحب من الموقف تاركا للحبيبين حياة سعيدة ... ولقد واظبت على شراء مجلتي من مصروفي الشخصي الذي كان قد انتقل من فئه الخمسة مليمات الى فئه القرش الكامل ، وأصبحت من قراء " مجلتي " رغم ان ثمنها كان ثلاثه قروش ... ولازلت حتى اليوم احتفظ بتلك الاعداد النادرة التي اقتنيتها من حر مصروفي ! !

قبل ان أغادر طنطا الى البحر ، كانت المسرحية قد تحولت الى فيلم سينمائي أنتجه ولعب بطولته محمد عبدالوهاب أمام راقية ابراهيم وسراج منير ... وأبدع عبدالوهاب في أغنيات هذا الفيلم التي أصبحت من أشهر أغانيه ... وبطبيعة الحال فقد شاهدت الفيلم ، وكنت - ولا زلت - كلما استمعت الى إحدى تلك الاغنيات في المذياع ، تمثل لي ، لا الفيلم ، ولكن الموقف في المسرحيه !

وعلى العكس من طه حسين كان توفيق الحكيم دائماً نجماً مثل نجوم السينما ، يتحدثون في الجرائد عن نوادره ، وعن بخله ، ويكتب هو عن "أشعب " أمير الطفيليين ، ويشترك مع طه حسين في كتاب " القصر المسحور " ... بيضة الديك هذا الكتاب ، فلم يشترك روائيان أو كاتبان من كتابنا في ذلك العصر في تأليف كتاب واحد سواهما ... حتى اذا ما اشتد عودي ، وعرفت طريقي الى الأدب، كان لابد وان أقرأ توفيق الحكيم ...

وكان الكتاب الذى هزنى هزاً ورجنى رجاً هو " يوميات نائب فى الأرياف" !

ولازلت حتى اليوم مندهشا من تلك المقولة التى أطلقها فى وجهى أستاذنا الكبير نجيب محفوظ فى احدى ندوات الجمعه بكازينو أوبرا عندما قال فى حماس صادق :

" عودة الروح ؟! ... عودة الروح أثرت فى جيلنا كله ، كلنا نازلين من معطف عودة الروح ! "

لازلت مندهشا وأنا اتساءل :

وماذا عن يوميات نائب فى الارياف ؟!

تلك واحدة من أعظم ما أنتجت القريحة المصرية خاصة والعربية عامة فى العصر الحديث ، ومنذ قرأتها للمرة الأولى منذ مايقرب من أربعين عاماً ، أجد نفسي فى بعض الأحيان فى شوق اليها ، هو شوق واشتياق من ذلك النوع الذى يشعر به العاشق نحو معشوقته ، شوق غريب لم أدر كنهه لفترة طويلة ، أعود اليها، فى نفس الكتاب القديم الذى ابتعته ذات يوم مع فرسان الأدب الثلاثة فى الاسكندرية... تجرى عيناى على السطور ، أية سطور فى أية صفحة ، فاذا عيناى تنزلقان فوقها ، أحاول التوقف عن القراءة فلا أستطيع ، فى بعض الأحيان كنت أبدأ القراءة من منتصف الرواية فلاأتركها حتى تنتهى ، لا لأنى أريد القراءة ، ولكن لأنى لا أستطيع التوقف عنها ... وحتى عندما قرأت عودة الروح مرة ومرة ، واستمتعت بها، لم يحدث لى أبداً ما حدث مع يوميات نائب فى الارياف .

هكذا احتفظت بتوفيق الحكيم فى وجدانى لسنوات طالت .

غير ان الذى استفزنى حقاً ، هو مقولة .. أطلقها البعض على مسرحه بقولهم إنه " مسرح ذهنى"!!

ومنذ ان صدرت مسرحية " أهل الكهف " التى قدم لها وناقشها وقرظها عميد الأدب العربي وصديقه دكتور طه حسين ، وهذه المقوله تملأ الأذهان وأعمدة النقد وكأنها أصبحت قاعدة ثابتة لايجب ان يحيد عنها أحد أبداً . ولقد قرأت أهل الكهف مرات ، وفى كل مرة كنت أتمثل خشبة المسرح والممثلين ، ممثلين من البشر وليسوا خشبا مسندة تتحرك وكأنها عرائس خشبيه أو دُمى !

أنا لست ناقداً ، ولايعنيني مايكتبه النقاد الا اذا أضافوا اليّ شيئا ، ولقد توقفت أمام هذه المقوله أضرب أخماساً فى اسداس ، وإذا كانت كلمة مسرح تعنى فى المقام الأول " الفرجة " ، اى ان يكون هناك خشبة مسرح وممثلون ومتفرجون ، فان القول بأن مسرح الحكيم مسرح ذهني ، هو نوع من العجز لم أقبله وان كان هو شخصيا قد قبل أو على الأقل سكت عنه ! !

ولذلك عندما عرضت هذه المسرحيه فوق خشبة المسرح القومى لم أجدها ... لم أجد الكامن بين سطورها من معاني وأفكار ورؤى واستنباطات ومحاولة لتفسير الفكرة خلف هذا الحدث أو ذاك ... بل رأيت ممثلين يتحركون وفق منهج بالغ الغرابة ، منهج يطالبهم أن يكونوا أفكاراً لا بشراً من لحم ودم ، وخرجت من المسرحية حائراً ثائراً ضيقا بنفسى ، ولم يكن منطقيا ان يصفق الناس جميعا دوني ، وأن يُعجب بها الناس جميعا إلاى ... ذلك اني كنت ولا زلت أرى أن أهل الكهف لو عرضت وقد تحولت شخوصها الى بشر دونما بذل الجهد فى التقعر أو التفذلك أو الاستشقاف – من الثقافة ! ! – لجاءت المسرحية على أحسن مايكون الأمر ، ولوصلت أفكار الحكيم الى الناس جميعا !

وهكذا ، قبل أن التقي بتوفيق الحكيم ، كان قد أصبح معركة فنية في صدري ورأسي ووجداني جميعا ... كنت أقرأ كل ما يكتبه ، وأقرأ كل مايُكتب عنه ... غير ان مقالاً صغيراً لفت نظري فأثار اعجابي !

كانت الأعداد التجريبية الأولى من مجلة الفجر ـ التي كانت ستصدر عن دار التحرير ١٩٥٧ ـ ثلاث ، وكان قد خصص للراحل يوسف ادريس برواز على نصف صفحة يكتب فيه رؤيته لشخصية عامة ... وكانت أول شخصية كتب عنها ، هي توفيق الحكيم !

قال يوسف ادريس في بروازه هذا ان توفيق الحكيم بدأ حياته محبباً للتمثيل ، لكنه — لسبب طبقي واجتماعي — لم يكن ممكنا ان يخوض التجربة ... ففي صدر شبابه تعرف على المسرحيين القدامي والتقى بهم وكتب لهم، لكنه احتفظ في وجدانه بتلك الرغبه الدفينة في التمثيل ، ولأنها كانت رغبة حقيقية ، فلم يكن هناك بد من ممارستها ... ولذلك ، فإن توفيق الحكيم راح يمثل في كل شئ ... انه يمثل البخل لكنه ليس بخيلاً، كما انه يمثل بارتدائه البيريه الشهير الذي كان يضعه فوق رأسه بدلاً من الطربوش كي يتحدث الناس عنه ، وهو يمثل بعصاه ويمثل بحديثه مع حماره ... إنه ، كأي ممثل ، لايستطيع إلا ان يظل دائماً تحت الأضواء ، فهو يفتعل المعارك ، ويفتعل البخل ، لكي يمارس هوايته الحقيقيه !

فهل كان توفيق الحكيم يمثل حقا ؟!

سؤال لن أجيب عليه ، ففي الذهن ، اكثر من أديب مارس التمثيل حتى يظل تحت الأضواء ، الفرق بينهم وبين توفيق الحكيم ، انه كان يمثل دون ان يكف عن الأدب ، لكنهم راحوا يمارسون التمثيل فكفوا عن الأدب !!

□ □ □

وهكذا ... ظل توفيق الحكيم معركة محتدمة في رأسي طويلا ، دون ان ألقاه مرة ...

حتى كان يوم !

كنت أجرى تحقيقاً أدبيا حول القصة الواقعية ... كانت معركة الفن للفن والفن للحياة في أوج احتدامها ... يتزعم فريق الفن للفن توفيق الحكيم ، وكان لابد لي من لقائه .

كان المقام قد استقر به في المجلس الأعلى للآداب والفنون ، وكنت كلما زرت هذا القصر الصغير في شارع حسن صبرى بالزمالك ، أشاهد توفيق الحكيم ، من بعيد ، وهو جالس في الحديقة وحده أحيانا ، أو من حوله مجموعة من الأدباء في أحيان أخرى ... من بعيد فقط كنت أراه ، أما في هذا اليوم ، فلقد كان علي ان ألتقي به وجهاً لوجه !

فهل اعتراني شئ من قلق أو توتر وأنا في طريقي اليه على غير موعد؟!

أبداً ...

وهذا هو سره العظيم !

لم تكن يوميات نائب في الأرياف أو عودة الروح أو رصاصة في القلب أو بيجماليون أو أهل الكهف أو قراءاتي لأعماله ومعرفتي بكتاباته وإنتاجه هي التي أمدتني بتلك الشجاعة وأنا في الطريق اليه ... بل كان السر يكمن في تلك السلاسة ، في ذلك السهل الممتنع علينا من أسلوبه وأفكاره ، هي التي أمدتني بإحساس غامر بالطمأنينه ، فلا يمكن لرجل هذا أسلوبه ، ان يكون مركبا أو معقداً.

ان عظمة توفيق الحكيم تكمن في أنك تقرأه ببساطة ، وتتفهمه ببساطة.

وتنفذ الى أفكاره دون جهد ، لأنه بذل الجهد وحمله عنك وهو يكتب ... ولذلك ، فلقد وصلت الى المجلس ، ونفذت من البوابة، وألقيت نظرة على الحديقة فلم أجده ، رغم ان اليوم كان مشمسا والجو دافئاً ... صعدت تلك الدرجات المعدودة الى حيث الدور الأول وفي نيتي أن أسأل عن مكتبه ... غير أني لم اكن في حاجه الى سؤال !

ذلك أني ما ان خطوت خطوات قليلة في ذلك البهو الصغير الذي تحيطه أبواب مغلقه وأبواب مفتوحه ، حتي وقع بصري علي باب في أقصي اليسار لغرفة واسعة تتوسطها مائدة اجتماعات مستطيلة ... عند قمة المائدة ، كان توفيق الحكيم هناك ، البيرية فوق رأسه ، وعصاه الي جواره ، وكان منكباً علي الكتابة !

وتوقفت في منتصف البهو !

الباب مفتوح فلا سكرتير ولاحاشية ولامخلوق ، الطريق اليه سالك فهل اقتحم عليه خلوته ؟!

ترددت .

تلفت حولي ، وكان هناك من يروح ومن يجيء ومن يصعد الدرج الي الطابق العلوي ومن يهبط عليه ولا أحد يعيرني اهتماماً ، لم يكن ممكنا ان أظل منتظراً الى مالانهاية ، ولم يكن ممكنا أيضا أن أعود أدراجي ... بعد لحظات حسمت أمري ، تقدمت من باب الغرفة ، نقرت نقرتين فرفع رأسه ملتفتا نحوي .

وكان ما حدث ، شيئاً غريباً حقاً .

٢

" صباح الخير ياتوفيق بيه ! "

هكذا قلت عندما رفع رأسه نحوى ، فاذا به ، قبل أن يرد التحية ، يستدير نحو أوراقه ، ويغطيها فى حرص من يخشى من الآخرين أن يسرقوها أو يخطفوها أو يقرأوا ما فيها ... لم أكن قد تقدمت خطوة،كنت في مكاني هذا البعيد عنه بخطوات عند الباب ، صدمتنى حركته وأحسست بالإهانه بالغة ، رد عليّ التحية فاحتبست الكلمات فى حلقى وحرنتْ ورفضتْ الخروج ، طال الصمت فبدت على وجهه الدهشة ، وقال :

" أفندم ! "

قلت وأنا اتمنى أن يرفض :

" انا كنت باطمع انى أعمل مع سيادتك حوار ! "

" حوالين ايه ؟! "

ترددت قليلا فلقد كان هناك أكثر من موضوع وأكثر من سؤال ، تلعثمت وأنا أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعنى، أخيراً ، استطعت أن اكبح جماح غضبى وأقول :

" حوالين القضايا الأدبيه المثارة دلوقت ! "

" زى أيه ؟! "

بدا لى السؤال طارداً باعثا على الريبة ، استفزنى الموقف فترقحت – ان صح التعبير – وأنا أقول :

" حوالين الفن للفن والفن للحياة ! "

قبل أن يرد أردفت :

" وحوالين رأى سيادتك فى القصة الحديثة واستخدام العامية فى الحوار أو السرد ! "

هم بالحديث فأضفت :

" وحوالين الأدباء الشبان واذا كان فيهم حد مبشر والا لأ ! "

لزم الصمت وراح يرمقنى بنظرة من وقع فى الحيرة فقلت :

" وحوالين المجلس الأعلى للآداب والفنون ودوره بالنسبة للحياة الثقافية!"

لم يحر جوابا ، وبدا على ملامحه مشروع ابتسامة ، كنت أشعر بالجرح عميقاً ... هذا الرجل قرأته وأحببته وترك أدبه بصمات لاتنسكر على أدبى وفكرى ، هذا الرجل جئت اليه بقلب مفعم بالمحبة والتقدير ولم أجئ سارقاً أو ناشلا لقصة أو مسرحية أو جملة يكتبها ... فكيف يفعل ما فعل وكأنى نشال يسرق الكحل من العين ، كيف يدارى ما كان يكتب وكأنى أملك عينا صقر جاء كى ينقض على أفراخه من الكلمات فيأكلها أو يكتبها ... عندما طال الصمت قليلا أدركت ان الرفض مصيرى فهممت بالانصراف واذا به يقول ضاحكا :

" انت بالشكل ده عاوز كتاب مش حديث ! "

رطبت ضحكته هجير الغضب في صدري ، وكان في جملته ثناء مستور فقلت :

" أنا مش عاوز حديث ياتوفيق بيه ! "

" امال عاوز ايه ؟! "

" عاوز أعمل حوار مع سيادتك ! "

بدت على وجهه علامات دهشة ، وعندما هم بالحديث هتفت :

" خصوصاً ... ..."

قلتها ولزمت الصمت فاعتدل في جلسته ، مال الى الوراء دون أن تغادر يده الورقة التي غطى بهاماكتب ، سأل :

" خصوصاً إيه ؟! "

" خصوصاً انك استعملت العامية في يوميات نائب في الأرياف وفى عوده الروح ، وأن اليوميات بالتحديد أدب واقعي من أجل الحياة مش فن للفن بس ! "

" انت قريتهم ؟! "

" واتعلمت منهم ! "

" تبقى ما اتعلمتش حاجة ! ! "

" لأ ، اتعلمت ان العامية بتاعة سيادتك تحتمل الفصحي كمان ، لكن لو اننا عملنا نوع من الاختيار أو المفاضلة ، العامية حاتفوز لأن الكلمات ماتتفعش فصحى مصنوعة ! "

" طب ما تقعد ! "

" مش لما سيادتك تدعوني ! "

" اتفضل ! "

قالها وهو يبتسم ، فخطوت نحو المقعد التالى للمقعد المجاور ، بعيداً قليلا ، وجلست .

....

....

لأهل الاسكندرية الأصلاء ، ملامح خاصة بهم ، تلك الملامح التى لاتخطئها العين وسط آلاف البشر ... تلكما العينان الواسعتان الجاحظتان فى غير قبح ، تحيطهما هالة داكنه مثل اطار يجمّل ويبعث الدفء فى النظرة ، ثم هناك هذا الأنف الكبير فى تناسق ، الواسع الفتحتين وكأن صاحبهما يريد أن يتنفس هواء الدنيا فى شهيق واحد ، ينفث الكلمات اذا ما تحدث فى بساطة مفخمة ، تعزف حروفها شفتان مليئتان أو رقيقتان فى سجيية تحيل النطق الى نغم فى قلب الجُمل، لكنه .. لاتخطئها اذن مهما تعددت الأصوات أوآلات العزف ... فاذا ما نزلنا من الوجه الى اليدين ، طالعتنا تلك الأصابع الطويلة ذات الأظافر المستطيلة ، فاذا الكف تحمل خمس عصيان لمايسترو يضبط اللفظ مع الحركة فى ايقاع لاتشاز فيه !

هكذا رأيت توفيق الحكيم فى لقائنا الأول هذا ، وهكذا رأيته فى لقائنا الأخير !

ورغم أنه ولد فى احدى قرى البحيرة ، ولم تحتل الاسكندرية فى أدبه أو فى حياته مكانه تذكر ، اللهم الا جلسته الصيفية الشهيرة فى مقهى بترو الذى زال ... الا انى استطيع الجزم بأن الجذور السحيقة للحكيم جاءت من هذه المدينة !

فى ذلك الصباح بمكتبه بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، وعندما استقر بى المقام ، سألنى:

" انت أسمك ايه ؟! "

"صالح مرسى ! "

" عاوز الحوار لمجلة ايه ؟! "

" الهدف ! "

" بتاعة حمروش ؟! "

" الاستاذ حمروش رئيس التحرير فعلا ! "

لم يكن قد صدر من الهدف حتى ذلك اليوم الذى جلست فيه الى توفيق الحكيم سوى عدد أو عددان ... ولقد كان هذا العدد – دون شك – ينبئ عن طبيعة المجلة الثقافية ، غير أنه فاجأنى بسؤاله مرة أخرى :

" عاوز حوار ولا حديث ؟! "

" حوار ! "

" يبقى مش للنشر ! "

" وانا موافق ! "

قلتها دون تردد ، وجمعت أوراقى التى كنت قد جهزتها ، وبدأ الحوار !

....

....

لقد مضى اليوم حوالى أربعون عاما على هذا الحوار الذى لم أسجل منه كلمة ... وأنا اليوم ، عندما أستعيد تلك الجلسة ، التى تيقنت فيما بعد أنها سقطت من ذاكره الحكيم تماماً ، أتساءل : هل كان الأمر حواراً بحق ... أم أنه كان مجموعة من الاسئلة الحائرة فى ذهن طالب علم يجلس الى أستاذ ؟!

كانت القضايا الأدبية فى تلك السنوات محتدمة احتداماً عنيفاً ، وكانت

الأجيال تتبادل الاتهامات في عنف لايلين ، فبينما كان الكبار يتهمون الأجيال الجديدة بالسطحية وقله الثقافة وشح المواهب ... كانت الأجيال الحديثة تتهم الرواد بأنهم سدود تقف في طريق زحفها ، ولابد من اجتيازها أو حتى القفز من فوقها !

وفي تلك الجلسة ، رحت أطرح على الأستاذ ما كان يعن لي من اسئلة . كما اني كنت أجادل بما أومن به حيال الفن والحياة ، فكان يجيب ويستجيب في بساطة اذهلتني ... حتى اذا ما كان سؤال -للأسف أنا لا اذكر كنه هذا السؤال الآن ولا القضية التي كان يدور حولها – رأيته يصمت، ثم يسأل :

" انت متأكد انك مش حاتنشر الكلام ده ؟! "

مرة أخرى شعرت بالإهانه فلذت بالصمت ، تذكرت لحظة أن رآني فأخفى ما كان يكتب ، والذي كان حتى تلك اللحظة ، لا زال يخفيه تحت ورقة بيضاء ، رقدت فوقها كفه وكأنه يخشى عليها من الاختطاف ... صمت الرجل في انتظار جوابي فقلت :

" أنا وعدت ياتوفيق بيه ! "

" ووعد الحر دين عليه ، مش كده ! "

قالها ببساطة من لا يوجه اتهاماً ، وانما بأسلوب من يُذكر لا أكثر ، أدركت الآن ان الرجل لم يقصد الى هذا الاحساس الذي داهمني ، لم يقصد الإهانة بأي معنى من المعاني ، كما أدركت فيما بعد ، عندما اقتربت منه قليلا ، ان " الحرص " جزء من تكوينه الشخصي ، وهو حرص كان يصل في بعض الأحيان ، الى نوادر يتندر بها اصدقاؤه والصحفيون معاً !

صفت نفسي فجأة – ربما لأني أردت لها ان تصفو – وابتسمت وأنا

أؤكد للرجل أن كلمة مما يدور بيننا لن تجد طريقها لا للنشر فقط ، وإنما لآذان الآخرين ... قلت وأنا أميل نحوه وقد ذاب بعض الجليد أن كل ما في الأمر أني أريد أن أعرف ما لم أعرفه ، فكيف أسلك طريقي دون دليل ؟!

....

....

ولا زلت حتى اليوم أذكر تلك اللحظات التي كنت أغادر فيها المجلس الأعلى لرعايه الآداب والفنون ، كي أيم يساراً الى حيث طريق الكورنيش والنيل في الزمالك ، ثم أقطع الطريق الى مجلة الهدف – في الدقي – سائراً على قدمي ... وطوال مسيرتي تلك ، لم يخامرني شك في أن الطريق أمامي لا يزال طويلا طويلا ، كان حواري مع الرجل يختلف عن تلك الحوارات التي كنت قد بدأت الاستماع اليها والمشاركة فيها مع الأدباء الشبان ... كان الفارق مخيفاً وشاسعاً ، كما كان اختلاف التجربة وتأثيرها كفيلا بأن يشعر من كان مثلي بالعجز ، أو ... أو يدفعه الى التحصيل كي يواكب هؤلاء الذين سبقوه وترهبنوا في محراب الثقافة والأدب والفن حارمين أنفسهم من كل متعة ، سوى تلك المتعة السرمدية للبحث عن الحقيقة !.

وعلى كل ... فلقد انقضت سنوات طويلة ، قبل أن ألتقي به مرة أخرى!

* * *

مثلي مثل أي قارئ له ، رحت أتتبع توفيق الحكيم وكتاباته ... من «الصفقة الى السلطان الحائر الى شهرزاد الى شمس النهار – وقد قدمها جميعاً المسرح القومي – الى التعادلية، تلك المحاولة للتفلسف والبحث عن

طريق آمن بين تلك المذاهب المتلاطمة التي كانت تجتاح الكرة الأرضية في بداية النصف الثاني من القرن العشرين ... ولقد دهشت يوم حذا توفيق الحكيم حذو محمد عبدالوهاب ... فعندما طغت موسيقى الشباب في تلك السنوات ممثلة في كمال الطويل وبليغ حمدي ومحمد الموجي ، أبى عبدالوهاب أن يفوته قطار التجديد ، فكتب موسيقاه الجديدة حتى يظل في دائرة الضوء ... هذا رأي لايقلل من قيمة عبدالوهاب ، كما ان كتابه توفيق الحكيم لمسرحية " ياطالع الشجرة " ، لم تقلل من قيمته وهو يساير تلك الموجه الحديثة التي كانت تجتاح العالم ، وهي التي أطلقنا عليها بالعربية مسرح " العبث " إو " اللامعقول " !

كان جيل الشباب من المسرحيين قد عاد من بعثاته لدراسة المسرح في الخارج ... سعد اردش وكرم مطاوع من ايطاليا ، وجلال الشرقاوي من فرنسا بعد أن هجر بعثته الى الاتحاد السوفيتي ... وكان رائدا هذا المسرح الحديث ، في العالم ، هما يوجين يونسكو ، وصمويل بيكيت !

في تلك الأيام ، كانت مؤسسة المسرح في أوج توهجها ... فإلى جانب المسرح القومي والمسرح الحديث والمسرح الكوميدي ومسرح العرائس وقطاع الفنون الشعبية ... أنشئ مسرح الجيب لتقديم مثل هذه المسرحيات العبثيه الجديدة ... أو - على الأصح وبوجه عام - التجارب المسرحيه الجديدة ... وكان افتتاح هذا المسرح بمسرحيه " لعبة النهاية " لصمويل بيكيت والتي أخرجها سعد اردش ، ثم مسرحيه الكراسي ليوجين يونسكو وقد أخرجها محمد عبد العزيز ... ثم قدمت بعدها دراسه عن مسرح تشيكوف ، ثم كانت المسرحيه الرابعه هي " ياطالع الشجرة " لتوفيق الحكيم !

كانت المسرحيه قد أثارت ، فور صدورها في كتاب ، الكثير من الجدل في الأوساط الفنية والأدبية ... ولقد كتب توفيق الحكيم - مراوغاً كعادته

– في مقدمته لهذه المسرحية يقول : انه اكتشف ان الفنان الشعبي المصرى قد سبق كتّاب أوربا الى هذا النوع من الفنّ الشعبى أو اللامعقول عندما غنى تلك الأغنيه الشعبية الشهيرة :

ياطالع الشجرة .
هات لى معاك بقرة .
تحلب وتدينى .
بالمعلقة الصينى .

وأنه كلما سمع هذه الأغنية ، كان يحاول أن يستشف ما وراء الكلمات، فكيف تتسلق بقرة شجرة وكيف تُحلب بملعقة ؟!... ومن هنا ، جا ءت هذه المسرحية التى قدمها مسرح الجيب فى الحديقة الفرعونيه بحديقة الاندلس ، ولعب بطولتها نجمان من أعظم نجوم فن التمثيل فى مصر ، هما الراحلان نجمة ابراهيم وصلاح منصور ، مع الشبان جلال الشرقاوى وابراهيم سكر وسهير المرشدى التى كانت لاتزال طالبة فى السنه الثانية بمعهد الفنون المسرحية .

ولعلى أستأذن فى التوقف قليلا ، كى أسرد حادثه قصها علىّ صديق العمر الفنان الكبير سعد أردش ، وهى واقعة تشير بوضوح صارخ ، الى طبيعة توفيق الحكيم وشخصيته معاً .

كان من عادته ألا يحضر عرضاً لإحدى مسرحياته ، ورغم النجاح الشديد الذى لاقته مسرحية ياطالع الشجرة ، إلا أنه لم يشذ عن عادته ، عرضت المسرحية اذن ، وسجلت تلفزيونيا – أبيض وأسود – وانتهى عرضها ... وبعد أسابيع عرضت المسرحية فى التليفزيون ... وفى صبيحة اليوم التالى ، تلقى سعد أردش من الحكيم

مكالمة هاتفيه طلب منه فيها ان يزوره فى مكتبه فى الأهرام ، ولبى سعد دعوة الرجل !

قال لي سعد أردش – ولقد راجعته في هذه الواقعة أثناء كتابة هذه السطور – ان توفيق الحكيم ما ان انفرد به حتى قال :

" ياأخي حاجه غريبة ... أنا لما كتبت المسرحية دى ، كنت فاكر نفسى باكتب عبث أو لامعقول، لكن لما شفتها فى التليفزيون ، اكتشفت ان انا برضه توفيق الحكيم من غير غموض ولاعبث!!!"

ولقد تذكرت ، لحظة أن قص عليّ سعد هذه الواقعة ، ذلك الاحساس الذى انتابنى يوم ان شاهدت مسرحية " أهل الكهف " ، عندما وجدت الممثلين يعرضون افكاراً وليس شخوصاً من دم ولحم !

ولكن ... هذا هو توفيق الحكيم ، يبدو لك مُقَنّعاً ، وهو في الحقيقة شديد السفور !

□ □ □

مضت السنوات ، وجرت مياه كثيرة تحت جسور نهر النيل ، عندما وصلتنى منه ذات يوم ، رسالة بالغة الغرابة ، تبعث على الفخر حقاً ، لكنها تدفع الى الخوف أيضا !

٣

في بعض الأحيان ، يعتصر الانسان ذاكرته حول شخص أو حادث ، دون ان تجود عليه الذاكرة بشئ ، تظل مغلقة مظلمة معتمة مهما حاول معها ... ورغم يقينه بأن في الذاكرة مخزوناً من أحداث ، فانه يخرج دائما من تلك المحاولات صفر اليدين ... وفي أحيان أخرى ، تتفتح الذاكره ، بلا مناسبة، وتهطل الأحداث كالسيل لاتتوقف ، واذا الحياة زاخرة بما يفيد وما أفاد!

وهذا ما حدث عندما صاحت بي الصديقة فوزيه سلامة عبر الأثير ، وكنت قد أزمعت التوقف عند ذكرياتي عن الراحل يوسف السباعي قائلة :

" انت عرفت توفيق الحكيم ؟! "

" طبعا ! "

" وعرفت صلاح جاهين ؟! "

" الله يرحمه ، كان صديق من نوع خاص ! "

" وعاوز تتوقف هنا ليه ؟! "

واذا الذاكرة تتفتح كزهرة جاءها الربيع ، فراحت تفصح عن ألوانها وأريجها معاً .

هل أحببت توفيق الحكيم ؟!

[redacted]

سؤال ليس في حاجه الى جواب ، لم أكن قريبا منه ذلك القرب الذى يعطينى الحق في الحديث عنه كثيراً ، فلقد ألزمت نفسي ، كما قلت ، بمسافة معينة بيني وبين رجال أكننت لهم فى قلبى إكباراً من نوع خاص ، فبقى في النفس ذلك الاحساس الذي يالوفاء والولاء معاً ... ذلك ان الانسان كلما تقدمت به السن ، وكلما أضيفت الى معارفه معارف وتجاربه تجارب ، انتبه الى ما لم يكن انتبه اليه في خضم محاولته المستميته لاثبات الوجود في صدر الشباب .

ولقد بررت بوعدي لأستاذنا الراحل فلم أبح بكلمة مما دار بيني وبينه من حوار لأحد ... ورغم كثرة الكواكب التى كانت تحيط به ، وتفاخر بالقرب منه ، فلقد كان هو عندى اكبر من الملاحقه أو الملاصقة أو التفاخر ، كان الرجل ، يا الله ... كان الرجل راهبا في محراب الفن فعلا وقولاً ... ان أحداً لايذكر لتوفيق الحكيم حياة خاصة ... لا اشاعة، ولا قصة حب سوى ما سطرة الرجل في عصفور من الشرق عن فتاة المسرح في باريس ... حتى زواجه بعد طول عزوبة ، حدث فى صمت ودون جلبة ... وفي حياته ، رغم كثرة ما قيل عنه وكثرة ما كان ينشر ، لن تجد معركة سوى المعارك الأدبية... ، ولا خلاف الا حول الفن ، ولا حياة الا للفن !

وهكذا كان نجيب محفوظ .

لقد أعطى هذان الرجلان للفن كل حياتهما ، فما سعى أحدهما الى منصب ، وما جرى وراء كسب أو مكسب ... بل إن كلا منهما كان يرفض المناصب ، بل يرفض المال كي ينكفئ على فنه انكفاء المتبتل ، فوضع أحدهما النواة الأولى للمسرح العربي الحديث ، وزرع الآخر ، البذرة التي أصبحت اليوم وارفة فى الرواية العربية الحديثة !

فى العدد الأول من مجلة الهدف - مايو ١٩٥٦ - نُشر برواز صغير بعنوان " شخصية الفنان : وكان التوقيع لتوفيق الحكيم ... فماذا قال الرجل عن هذه الشخصية ؟!

" ان الفنان أو الأديب يظل يبحث عن ذاته وشخصيته الى أن يجدها ، فاذا هى تملكه بعد ذلك إلى الأبد ، وتطبع كل ما يلمسه بذلك الطابع الذى لايزول ولايتحول ، واذا هو يعرف بطابعه لا فيما ينشئ فقط ، بل فيما يحاكى أيضا ... ولو أننا تأملنا الأدب العربى ، لوجدنا من شعرائه الأكابر من تعمد محاكاة غيره أو تقليده أو معارضته فى بعض قصائده ، فاذا هو على الرغم من ارادة المحاكاة ، يخرج فنا مبتكراً مختوماً بطابعه هو لا بطابع من حاكاه ... ذلك ان الشخصية الفنية بعد أن تتكون ، يصبح لها من القوة ما يجذب اليها كل شئ ، ويخضع لأشعتها كل فكرة أو صورة أو موضوع ، فكل ما تتناوله يُصبغ فى الحال بلونها ... فالفنان أو الأديب يبتكر وهو يريد أن يقلد ... والفنان الذى لم يستقبل شخصيته بعد ، يقلد وهو يريد أن يبتكر ! »

هل هناك ما هو أشمل من هذا المعنى الصافى الذى قدمه لنا الحكيم فى بضعة أسطر ، أليست هذه هى تجربته الشخصية فى ولوج محراب الفن المقدس ؟!

ثم ... ان علينا ان نقرأ للحكيم كما ينبغى ان يُقرأ حقاً ، واذا كنت أرى فيه السهل الممتنع علينا ، فليس فيما أقول مبالغة ،

وإذا ماعاد القارئ الى تلك السطور كي يقرأها بعناية اكثر ، فلسوف يكتشف ان عمق المعنى في السطر الأخير منها ، والذى جاء بسلاسة أخاذة ، يهز الوجدان حقاً !

... ...

... ...

جال بخاطرى كل هذا وأنا استعرض تلك السنوات التي انقضت ، منذ أن التقيت بتوفيق الحكيم في المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ذلك اللقاء الأول ، حتى كان اللقاء الثاني الذى جاء بدعوة منه فهل انقضت تلك السنوات دون أن أراه ؟!

لعلي اليوم اعترف بسر لم أبح به لأحد من قبل ... بداية ، كان تأثير ذلك الحوار الذي دار بيني وبينه عليّ عظيما ... ودون لف أو دوران أو خجل ، وجدت نفسي أمامه مثل فرخ مبتل بأمطار من المعرفة كان عليّ أن أخوض تجربة الإلمام بها ... غير أنه – على الوجه الآخر – لم أكن ، ولم أرد أن اكون، راهبا في محراب الفن ... ذلك ان الحياة بالنسبة اليّ ، كانت المدرسة الأولى والعظمى التي تعلمت منها ... اكتشفت مبكراً ، ان الفن بالنسبة اليّ ليس هدفا في حد ذاته ، لكنه وسيلة انقل بها للناس ما أريد أن أبلغهم اياه ... هكذا كنت دائماً ، وربما كان لسنواتي في البحر وأنا في مقتبل العمر تأثيرها الشديد عليّ ... كان البحر يمدني كل يوم بجديد أدهش له وأفرح ، كما كانت حياتي في القاهرة ، خاصة في تلك السنوات الأولى ، اكتشاف مستمر لشخصيات طالما عشتها بخيالي وأنا أقرأ لهم ، أو أشاهد أفلامهم ومسرحياتهم ... فوق هذا وذاك ، كان عليّ أن احصل

مايجعلني قادراً على مواكبه ما يحدث حولي ، أو ما قد حدث وفاتني قطار معرفته !

وإذا كانت ندوة نجيب محفوظ قد أتاحت لي الكثير مما كنت أرغب في معرفته بالنسبة للأدباء،وإذا كانت شخصية الاستاذ قد اجتذبتني ، لا كأستاذ تأثرت به وتعلمت منه فقط ، ولكن كانسان يتعامل مع الآخرين بأسلوب خاص تفرد به ... اذا كان الأمر كذلك ، فان توفيق الحكيم لم تكن له ندوة، وان كانت له أماكن معينة يجلس فيها !

وفي الاسكندرية ، وفي مقهى بترو هذا الذي اندثر ، كان توفيق الحكيم يقضي الصباح طوال شهور الصيف مع مجموعة من أصدقائه ، منهم – على وجه التحديد – الراحل ابراهيم فرج ، الوزير الوفدي السابق !

وفي صيف الاسكندرية ، دائماً ماكنت أسعى الى ذلك المقهى ، كي أنتحي جانبا وأرقب الرجل وهو جالس إلى اصدقائه ، لساعات طويلة كنت أرقبه وهو يناقش وهويجادل وهو يحاور ... ثم ، وهو وحده يتأمل !

هل كان للكلمة التي كتبها يوسف ادريس عنه في مجلة الفجر ، والتي قال فيها انه يمثل ، تأثير عليّ ، مما دفعني الى هذا التصرف ؟!

ربما ... ولكن ، ماالذي كنت أسعى اليه بالضبط ؟! ... هذا ما لا أعرفه الى اليوم ! !

وعلى كل ، فلقد التقيت به ذات مرة لقاءً خاطفاً ... كان هذا عندما بلغ استاذنا نجيب محفوظ الخمسين من عمره ، وقرر الأدباء إقامة حفل لهذه المناسبة .

كنت قد أصبحت أديبا معروفا ، وكان قد صدر لي حتى ذلك الوقت كتابان ، هما مجموعة قصص " الخوف " ، ورواية «زقاق السيد البلطي»

[redacted]

... وكانت روايه «الكذاب» تنشر مسلسلة في مجلة صباح الخير ... ولست أذكر بالضبط المكان الذى أقيم فيه هذا الاحتفال ، وان كنت موقنا أنه يقع فى ميدان التحرير أو بالقرب منه ... وبطبيعة الحال كان زحف الأدباء على الحفل شديداً ، وعندما ذهبت في الموعد ، كنت وحدى ، صافحت نجيب محفوظ مهنئا إياه بعيد مولده ، وعندما أردت ان أضمه الى صدرى ، كان هو أسبق منى فلقد احتوانى بين ذراعيه فى حنو غير مسبوق ... فى تلك اللحظة كان توفيق الحكيم يقف الى جواره ، كان الرجل بادي السعادة حقاً ، كانت سعادته مشرقة علي وجهه إشراقاً طبيعيا لا مجاملة فيه ولا افتعال ... كان واضحا أشد الوضوح أن الرجل لايذكرني ولايذكر اللقاء الذى حدث بيننا وقد مرت عليه سنوات خمس ، ولم أرد ان أثقل عليه ، ولكن ... عندما هممت بالانصراف ، سدد سبابته نحوى سائلا :

" انت صالح مرسي ... مش كده ؟!"

هاهو الرجل يتذكر أخيراً ، فرحت ، تهللت ، مددت يدى مصافحاً :

" ازى حضرتك ياتوفيق بيه ! "

" أنا عرفتك من الصور اللى بيرسمها لك هبه عنايت فى روايه الكذاب! "

كان الفنان الكبير هبه عنايت هو الذى يرسم رواية الكذاب ، ولأن للروايه أصل وتجربة قمت بها فعلا ، فلقد أبى هذا الفنان المبدع ، الا ان يأخذنى كنموذج لرسومه ... وعلى كل الاحوال ، فما ان قال توفيق الحكيم هذا حتى اصابنى إحباط شديد ،لكنه سرعان ما قال وكأنه يشفينى مما أصابنى محدثاً نجيب محفوظ مشيراً إلى أنه قرأ أيضا زقاق السيد البلطى:

" الزقاق الصغير ده يانجيب ، مش كده ؟! "

قال نجيب مداعبا :

" بكره يكبر ويبقى عنده خمسين سنه ! ... "

وانطلقنا ضاحكين ، وانسحبت سعيداً ، لقد قرأ الرجل روايتي ، ترى ، مارأيه فيها ؟!

انسحبت جانبا ، ورحت أرقب الأدباء والفنانين الذين تقاطروا على المكان... كان الحفل مفعماً بالسعادة والفرحة حقاً ، وكانت الوجوه ، وجوه الكبار والمشاهير تملأ المكان ، غير ان عيناى التصقتا باثنين لم تبرحهما حتى برحت المكان ، هما : ام كلثوم ، وتوفيق الحكيم !

كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها أم كلثوم عن قرب ... ولقد كانت شخصية هذه السيدة اكتشافاً مذهلاً بالنسبة اليّ ... كانت.... ، فى كل خطوة ، وفي كل لفتة ، وفى كل كلمة ، بنت بلد مصرية خفيفة الظل حاضرة الذهن فى غير افتعال ، وكانت قفشاتها تترى كالبالونات الملونة ، وجدت نفسي أبتسم على الدوام ، دون أن يكون هناك سبب للابتسام سوى وجودها ، وذلك الإشعاع الذى ينبعث منها فيطوى الآخرين.

ومن كل هذا الحفل ، من كل الكلمات التى ألقيت ، والتهانى التى أزجيت ، والفرحة التي شملت الجميع ... يبقى موقف واحد ، لمس شغاف قلبى ...

فعندما حانت لحظة إطفاء الشموع فى الكعكة الكبيرة التى احتلت المائدة . هتف توفيق الحكيم :

" استنوا شويه من فضلكم ! "

ران الصمت على الجميع ، وخطا توفيق الحكيم نحو مائدة ليست بعيدة ، حمل صندوقاً ، مغلفاً بشريط ملون ... كانت هذه هو

هدية الأستاذ لتلميذه وصديقه ... قال الرجل وهو يقدم الهدية لنجيب محفوظ :

" خذ يا نجيب ... كل سنه وانت طيب ! "

آه لو رأيتم وجه نجيب محفوظ وقتها ، آه لو أنكم عشتم تلك اللحظات التى عشناها ، تناول نجيب الهدية ، وهم بوضعها جانبا بعد أن شكر أستاذه وصديقه ، فهتف الحكيم :

" مش حاتفتحها ؟! "

وتعالت الصيحات من كل جانب :

"افتحها يانجيب ، افتحها ياأستاذ ، عاوزين نشوف الهدية ! "

وفتح نجيب محفوظ الهدية ، وإذا هى طبق كبير من الفضة الخالصة ، وصفقنا جميعا ، وقال الحكيم:

" الهدية دى أنا اشتريتها من حر مالى ! "

واجتاحتنا جميعا عاصفه من الضحك ! !

... ...

... ...

لابد لى من الاعتراف - مرة أخرى - ان للناقد الكبير فؤاد دوارة فضلاً كبيراً على جيلنا كله ، ورغم الصداقة الحميمة التى تربطنى بفؤاد ، إلا اننا لم نتفق على شىء إلا فيما ندر ... فى تلك الأيام ، بعد نكسة ١٩٦٧ كان فؤاد يستكمل تلك الرسالة التى كان يستعد لنيل الماجستير بها عن مسرح توفيق الحكيم ... واقترب فؤاد من الحكيم اقترابا شديداً ، وكان - كلما التقينا - يحكى لى ، كما ألح أنا فى السؤال ، عما كان يدور بينهما من حوارات ... وكنت أيامها قد انتهيت من كتابة رواية «السجين» ...

وكانت كتابة هذه الرواية تحديا منى لنفسى ، حتى اذا ما انتهيت منها ، دفعتها للنشر مسلسلة فى مجلة صباح الخير ... وكنت قد علمت من فؤاد ، أن لتوفيق الحكيم ندوة شديدة الخصوصية ، يعقدها كل يوم أربعاء فى مكتبة بمبنى الأهرام القديم بشارع مظلوم ... كانت الندوة تضم ، عدا صاحبها ، ثلاثة فقط هم :

دكتورة عائشة عبد الرحمن ، دكتور حسين فوزى ، وفؤاد دوارة!

كان فؤاد فخوراً بهذه الندوة سعيداً بها ... وكنا ، اذا ما جلسنا - هو وأنا - يندفع فى الحديث عما كان يدور فى الندوة من حوار ومناقشات ... شىء غريب هذا الذى كان يحكيه فؤاد ، كنت أشعر ان ثمة أموراً قدسية تتداول بين هؤلاء الأربعة ، قضايا فنية ، وقضايا سياسية ، وقضايا أدبية ... وكم كان يسعدنى ، وفؤاد يحكى عن قضية من القضايا ، أن أختلف معه ، أو اختلف مع رأى أبداه الحكيم ، فإذا النار تشتعل ، واذا معركة حامية الوطيس تنشب بينى وبينه تتبادل فيها الكلمات كالحجارة ... وبالتأكيد ، كان فؤاد من ناحيته ، وبطبيعته الحادة ، يغضب أشد الغضب اذا ما اختلفت مع رأى ساقه الاستاذ ، أوالدكتور حسين أو الدكتورة بنت الشاطىء ... ولقد ظل الأمر كذلك لشهور ، وكنت أنا غارقا فى نشر السجين التى كان يرسمها الفنان الكبير جورج البهجورى ... ولقد كان رئيس التحرير صباح الخير فى ذلك الوقت ، هو الشاعرو الرسام والممثل الراحل صلاح جاهين ... ولقد وجدت فصول الرواية التى كانت تنشر ، ترحيبا عن قرأوا هذه الفصول ، بل ، لقدلاقت اعجابا واستحسانا أسعدنى بحق ... وفيما أنا غارق فيما أنا فيه ، طلبنى فؤاد ذات يوم هاتفيا ... وكان صوته ينم عن صرامة شديدة ... وبلا مقدمات قال :

« الراجل عاوزك تحضر الندوة معانا »

« راجل مين يا فؤاد ؟! »

نهرني قائلاً :

« يعني أيه راجل مين ، توفيق الحكيم طبعاً ! »

« مش فاهم !! »

ولم أكن قد فهمت فعلاً ، كانت المفاجأة بالنسبة اليّ غير متوقعة ، غير أن فؤاد شرح لي الأمر في ضيق قائلاً ان الندوة الأخيرة كانت زاخرة بالحديث عن الأدباء الشبان ، وان الحديث عندما عرج على رواياتي وقصصي ، اذا بالرجل يمتدحني ، ويطلب من فؤاد ، ان يعرض عليّ الانضمام اليهم !

كانت المفاجأة كبيرة!

كانت رائعة !

وكانت في نفس الوقت مخيفة !!

٤

ما ان عرض عليّ فؤاد دوارة حضور تلك الندوة الخاصة للأستاذ توفيق الحكيم ، حتى أصابنى نوع من التوجس غريب ... لم يكن فؤاد يأخذ رأيى وهو يفضى إلى بالنبأ ، كان يرى أن ما يعرضه عليّ أمراً لابد من تنفيذه دون مناقشة، وشرفاً من الصعب الاعتذار عنه.. فمن أكون أمام توفيق الحكيم وحسين فوزى وبنت الشاطىء؟!

ولقد كان الرجل على حق فيما ذهب إليه، ذلك أن أى أديب فى مثل عمرى وتجربتى وقامتى الأدبية فى ذلك الوقت، لم يكن ليطمع فى الانضمام إلى مثل هذه الندوة، ولقد وافقت بطبيعة الحال، وشكرت فؤاد ، وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها ، وغرقت فى التفكير.

كان السؤال الذى طرح نفسه علىّ بشدة هو: لماذا ؟!!

لماذا طلب توفيق الحكيم، وهو من هو، ممن كان مثلى، فوق أنه لا يعرفه ولم يلتق به، ولم يختبر ثقافته أو أدبه، أن ينضم إلى مثل هذه الندوة ؟!!

لم يكن الأمر إحساساً بالنقص بأى معنى من المعانى.. ذلك أنى ـ كفنان وأديب ـ كنت أقتنع بقدر لا بأس به من الغرور، أو ـ لو تواضعنا ـ قلنا أنه من الثقة بالنفس، يجعلنى قادراً على مجاراة أية أمور تناقش فى

ندوة مثل هذه، خاصة، وأنى كنت على دراية بالكثير مما كان يدور فيها عن طريق الصديق فؤاد دوارة.

بداية... لم تكن علاقتى بالفلسفة قد انقطعت منذ حصلت على الليسانس.

كانت الفلسفة هى غذائى الروحى والفكرى على مدار سنوات، وكانت دراستى فى الكلية قد منهجت معلوماتى وأمدتنى بالكثير مما كان ينقصنى ... ثم، كنت قد وجدت فيما ألفه وترجمه أساتذة الفلسفة، معيناً لا ينضب من المعارف... وبشكل خاص، كانت مؤلفات وترجمات الدكتور عبد الرحمن بدوى، تمثل لى منبعاً لا ينضب، وعلى وجه التحديد كانت هناك تلك السلسة من الكتب التى أعطاها الراحل عنوان "خلاصة الفكر الأوربى"، والتى بدأت بأعلام الفلسفة اليونانية القديمة ... وقد وجدت فيها - إلى جانب العرض الشيق للفلسفات المتعاقبة - نوعاً من التأريخ للفكر الإنسانى على مر العصور... هذا علاوة على شغفى الشديد بالفلسفة الإسلامية، وعلاقتها بالفلسفة اليونانية، ولعلى أعترف، أن فضل مكتبات سور الأزبكية التى كانت فى تلك الأيام من معالم القاهرة، علىّ لا ينكر ، ليس فقط لرخص ثمن الكتب فيها ، ولكن أيضا بالنسبة لبعض الكتب النادرة التى لم تكن متوفره فى الأسواق وقتها ... فإذا ما أضفت إلى كل هذا، مشروع الألف كتاب، وذلك الكم الهائل من الروايات العالمية التى ترجمت فيه وعرضت بأسعار تكاد تكون رمزية، ولقد صدرت فيه، على سبيل المثال، ترجمه للأعمال الكاملة لدستويفسكى والتى قام بها المثقف العربى الكبير دكتور سامى الدروبى، ثم سلسلة المسرح العالمى، ثم سلسلة مسرحيات عالمية، وسلسلة أعلام العرب... فلقد كانت تلك حقبة من الرواج

الثقافى أضافت إلىّ الكثير، بل الكثير جداً مما كنت فى حاجه إليه... وفوق كل هذا فلقد كان الإنتاج الأدبي والمسرحي الحديث، قد أصبح فى متناول اليد...

وإذا كانت الحياة هى هدفى واحترافى، فإن الأدب والفن كان الأكسوچين الذى يمد فى عمرى ويبقينى حياً ..فعلى وجه آخر، كانت صداقتى التى توطدت بالفنانين الكبيرين سعد أردش وجلال الشرقاوى، مع ما بينهما من خلاف فنى، الكثير من علوم المسرح وتقنياته، أقول علوم، ولا أقول فقط كنص أو عرض... وإنى أذكر، أن أحدهما لم يكن يبدأ بروفات مسرحية من مسرحياته، إلا إذا كنت حاضراً وكأنى عضو فى الفريق... وهكذا، عملياً، أضفت إلى ثقافتى الكثير عن المسرح بوجه خاص رغم أنى لم أخض تجربة الكتابه للمسرح سوى مرة واحدة كان نصيبها الفشل الذريع!!

فوق هذا وذاك، فجرت الصداقة بينى وبين الأستاذ والمثقف الكبير راجى عنايت، الكثير مما كان يعتمل فى نفسى... ذلك أن راجى بالتحديد، نوع من المثقفين يندر أن تجد له مثيلاً وسط مثقفينا المعاصرين، إنه ـ من وجهة نظرى ـ المقابل الموضوعى للدكتور حسين فوزى فى جيلنا ..إن راجى عنايت ـ مثلا ـ هو أول من كشف لنا عن هذا العالم السحرى لما يعرف بالبارا سيكلوجى، والذى أمدنا من خلال عشرين كتابا، بغرائب الكون والظواهر الطبيعية والإنسانية حقا... وكان هو أول من اهتم بالمستقبليات فى السنوات العشر الأخيرة، ولقد كانت ثقافة راجى الموسوعية، خير معين لى على اقتحام عوالم جديدة لابد للأديب أو الفنان أن يلم على الأقل بخطوطها العريضة!

لم يكن ترددى فى الذهاب إلى ندوة توفيق الحكيم إحساساً بالنقص

إذن، لكنه كان نوعاً من خشية الالتقاء بنجوم قد يحرقني وهجهم الثقافي والفني !

ولقد طال ترددي، فلم أذهب في الأسبوع الأول ... وكان نصيبي ثورة عارمة من فؤاد دواره... واتهاماً بقلة الذوق وقلة الأدب فلقد كان الجميع في انتظاري حسب وعدي... ولقد تلقيت ثورة فؤاد ـ على غير العادة ـ بهدوء ودون ثورة مضادة، ووعدته بالذهاب في الأربعاء التالي... غير أني أحجمت عن الذهاب أيضا، وربما ـ وحتى اليوم وقد انقضى قرابة ربع قرن من الزمان ـ لا أعرف سر هذا التردد الغريب من ناحيتي، وعلى كل الأحوال، ففي الأربعاء الثالث، مررت على فؤاد قبل الموعد بنصف ساعة، وذهبنا معاً!

* * *

ها أنا أخطو إلى المحراب لأول مرة.

كان الثلاثة هناك، دكتوره عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ ـ والدكتور حسين فوزي، والنجم الساطع خلف مكتبه، والذي ما ان رآني، حتى رحب بي ترحيبا حاراً، أسعدني، وأخجلني في نفس الوقت.

كنت أعرف الدكتور حسين فوزي وكان يعرفني... فبعد ذلك الحديث الأول الذي أخذته منه عن الموسيقى في مكتبه بقصر عابدين، والذي دخل علينا فيه أستاذنا الراحل يحيى حقي، كانت لي معه لقاءات عدة، بعضها للاستزادة من معارفه، وبعضها للحصول على حوار أو حديث... أما الدكتوره بنت الشاطئ، فلقد كانت هذه المرة الأولى التي ألتقي بها فيها... ولقد أدهشني ترحيبها الحار وأربكني أيضا، غير أني قلت، أنه ربما كان الحديث عني في الندوة قد أمدها بهذا الإحساس الذاتي والذي جعلها

تستقبل تلميذا من تلامذتها بحرارة وحتى ولو لم تكن قد التقت به من قبل.

ما أن استقر بى المقام، حتى ضغط الحكيم على زر جرس دخل بعده ساعى مكتبه.

"تشرب إيه؟!"

"قهوة سادة!"

هكذا سأل وهكذا أجبت وإذا به يقول للرجل :

"تجيب فنجان قهوة سادة للأستاذ صالح على حسابى مش على حساب الأهرام!"

كانت التحيه كريمه بحق... ذلك أنه كان معروفا، أن الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل، كان قد أصدر قراراً - يوم أن انضم الحكيم إلى أسرة الأهرام - بأن تكون كل طلباته، وطلبات زواره أيضا من البوفية على حساب الجريدة ... ويوم أن أصدر هيكل هذا القرار، سرى فى الوسط الصحفى والأدبى سريان النار فى الهشيم... عرفناه جميعنا، واستحسناه جميعا، وضحكنا لتلك اللفتة البارعة من رجل عرف دائما كيف يتعامل مع العمالقة!

ولقد يظن البعض أن توفيق الحكيم قال ما قاله دون أن يدفع ثمن القهوة، وهو إن كان قد فعل، فلم يكن لأحد أن يسأله... ولكن ، ما أن دخل الجرسون ووضع فنجان القهوة أمامى، حتى أخرج الرجل من جيبه، خمسة عشر مليما ، أى قرش ونصف، هما ثمن فنجان القهوة فى تلك الأيام، ودفعه للجرسون قائلا لى:

"ده زياده فى التكريم يا صالح!"

وكانت هذه التحية وساما لا زلت أعتز به حتى اليوم، رغم أنى لم أقص ما حدث على أحد!

□ □ □

كنت أتساءل قبل الذهاب إلى الندوة، إن كان توفيق الحكيم سوف يتذكرنى ويتذكر حوارنا معاً فى مكتبه بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون؟!... لقد أيقنت يوم عيد ميلاد نجيب محفوظ أنه لا يذكر، غير أن نوعاً من الشك، أو قل هو نوع من الأمل!، ظل يداعبنى بأنه سوف يتذكر. لكن هذا لم يحدث، ورغم ما لقيته بعد ذلك مما اعتبرته تكريما من الرجل لشخصى، إلا أنى لم أحاول، بل ربما لم أفكر، فى تذكيره بما كان!!

وعندما دخلت مع فؤاد إلى مكتبه، كان الحوار الدائر بين الثلاثه، يدور حول قضية بدت لى غريبة، وكنت أسمعها لأول مرة!

ذلك أن التاريخ يذكر، أن وليم شكسبير ـ ذلك الشاعر والكاتب المسرحى الأكبر فى تاريخ المسرح العالمى كله ـ لم يكن واحداً فى ذلك العصر الذى يحمل نفس الإسم... فلقد كان هناك وليم شكسبير آخر، وكان أيضا كاتبا وشاعراً وممثلاً مسرحياً... وكان السؤال المطروح هو : أيهما شكسبير صاحب هذه المسرحيات؟!

وماذا لو اكتشف العالم أنه كان طوال أربعة قرون يحتفل بشكسبير الآخر وليس شكسبير الحقيقى؟!... ماذا لو اكتشف العالم أن المؤلف الحقيقى لهذه المسرحيات الخالدة، هو هذا الذى طواه التاريخ؟!

ها أنا أقع فى براثن مالا أعرف وما لا أدرس!!

نهض الحكيم كى يلتقط من المكتبه جزءاً من دائرة المعارف البريطانيه، وراح يقلب الصفحات حتى عثر على تلك الصفحات التى تتحدث عن المؤلفين اللذين يحملان نفس الاسم!

ولقد أدلى كل منهم برأيه، واحتدمت المناقشة بينهم، وكان أكثرهم حماساً لمعرفة الحقيقة هو توفيق الحكيم... ولم يكن أمامى سوى أن ألوذ بالصمت، ذلك أن المعلومة كانت بالنسبة إلى جديدة كل الجدة، فوق أن ذلك التلاقح بالأفكار كان يبدو لى ممتعاً إلى أقصى حد... ولقد صال الدكتور حسين فوزى وجال، راح يتحدث عن تلك المرحلة التاريخية التى فيها ظهر شكسبير، وعن احتمالات الخلط، وطبيعة ذلك العصر، وطبيعة التأليف المسرحى فى تلك الأيام، وكان من رأيه أن صاحب المسرحيات هو من نسبت إليه وليس الآخر... أما توفيق الحكيم، فلقد كان الشك يداعبه، بل كان يؤرقه!

بعد فترة من الزمان التفت الأستاذ نحوى فجأة وسأل:

"وانت إيه رأيك؟!"

وكان رأيى أنه لا يعنينى أن يكون المؤلف هذا أو ذاك، المهم أننا نملك ثروة من المسرحيات أصبحت جزءاً من المسرح العالمى، بل أساساً له، وليس المسرح البريطانى فقط.

ساد الصمت لثوان فلقفنى بعدها فؤاد بسؤال:

"يعنى إيه؟!"

قلت إن من الصعب أن نصل إلى شكسبير الحقيقى طالما أن هذا الشك موجود، ولست أعتقد أن أول من اهتم بهذا الأمر، هى ندوتنا هذه، ولابد أن هناك العشرات وربما المئات الذين درسوا مسرح شكسبير وحياته، ولابد أنهم اهتموا بهذا الموضوع... ولابد أن الرأى قد استقر، ولو لراحة البال، على أن شكسبير هذا هو الذى كتب تلك المسرحيات وليس الآخر، وبالرغم من كل هذا، قبله وبعده، فلقد مات كل منهما، وبقيت الأعمال!!

هنا ابتسمت الدكتوره بنت الشاطئ وهي تقول:

"أنت تعرف أنك كنت أول واحد فى مصر حايحصل على جايزه الدولة التشجيعيه؟!"

كان السؤال مفاجئاً، كما أن الانتقال من موضوع لآخر كان غريباً، وعلى كل الأحوال، فلقد ذبت خجلا من هذه السيدة، كما ذبت امتنانا لها!

سألها توفيق الحكيم:

"إيه الحكايه يا دكتوره؟!"

وبدأت السيدة بنت الشاطئ تحكى ما كنت قد عرفته من الناقد الكبير عبد القادر القط!

فقبل أكثر من عشرسنوات من تلك الجلسه، أنشئت جائزتا الدولة التقديرية والتشجيعية.. لم يكن قد صدر لى وقتها سوى كتاب واحد هو مجموعه قصص "الخوف"... وبطبيعة الحال، فلقد تقدم لنيل جائزه الدولة التشجيعية عدد وافر من الأدباء الشبان... ولما كنت من هؤلاء الذين لا يرون فى الفن مسابقات أو مفاضلات، ولما كنت أيضا غير مقتنع بأن يتقدم الأديب بإنتاجه كي يعرض على لجنة، بل كان إيماني أن اللجنة، ممثلة فى سكرتارية مهمتها حصر ما أنتج وتقديمه إلى اللجنة كي تختار منه من يستحق الجائزة... فلم أتقدم بكتابي!

حتى حدث أن التقيت ذات يوم مصادفة بالراحل يوسف السباعي، وكان ـ كعادته ـ أن سألني عن أحوالي وعما إذا كنت في حاجه إلى شئ... ولما شكرته وهممت بالانصراف، حتى سألني:

"أنت قدمت فى جايزة الدولة التشجيعية والا لأ؟!"

ولما أن عرف أني لم أتقدم، دهش متسائلا:

"ليه؟!"

ولم أجد ما أجيبه به، تلعثمت، وإذا به يقول:

"انت عارف ان النهاردة آخر يوم للتقديم ؟!"

لم يكن الأمر يعنينى ولم أكن أعرف... وقبل أن أجيب قال لى ناهراً:

"تروح تجيب تلات نسخ من كتابك وتقدمه قبل الساعه اتنين!"

"يايوسف بيه أصل ...."

قاطعنى:

"من غير مناقشة، قدامك ساعة واحدة تروح تجيب الكتب وتديها لحسين رزق!"

كان حسين رزق ـ سكرتيره ـ يقف قريباً منا، فالتفت نحوه قائلاً:

"يا حسين ... ما تروّحش قبل ما يروح صالح يجيب لك تلات نسخ من كتابه وتقدمها للجنه!"

قال هذا وهو يركب سيارته بجوار السائق كما هى عادته دون أن يترك لى فرصه لشرح وجهه نظرى أو حتى للاعتذار... وهكذا وجدت نفسى فى موقف لابد لى من التنفيذ!

وقد حدث، بعد ساعة كنت أقدم لحسين رزق النسخ الثلاث!

ومرت الأيام، وأعلنت النتائج، ولم أفز بجائزة الدولة التشجيعية !

لم أهتم كثيراً، بل لم يشغل بالى هذا الأمر، إلى أن التقيت ذات مساء، على مقهى عبد الله في ميدان الجيزة، وهو المقهى الذى كان يلتقى فيه الأدباء، بالناقد الكبير الدكتور عبد القادر القط... ولقد وجدت الرجل ثائراً، فلقد استقبلنى هاتفاً:

"أنت اللى كان لازم تحصل على الجائزة، دى كانت من حقك!"

دهشت... فلقد كان دكتور القط عضوا فى اللجنة التى منحت الجائزة... وعندما سألت الرجل عن السبب... جاءتنى الإجابة، وكانت عجباً!!

٥

عندما انتهيت من كتابة هذا الفصل، وأعدت قراءته كما هى العادة، ترددت كثيراً فى دفعه إلى المجلة، ترددت كثيراً وطويلاً ... فلقد وجدته مثل جملة اعتراضية فى السياق العام لما أرويه عن أستاذنا الرائع توفيق الحكيم... وكان أن قررت أن ألقى به فى سلة المهملات، غير أن هاجساً ألم بى... أليس هذا بعضاً منى؟! ...ألم يكن هذا جزءاً من تكوينى وأنا جالس فى تلك الصومعة التى كانت مكتباً لفنان عظيم فى مبنى الأهرام القديم... و ... وبعد تردد طال، وأخذ مع النفس ورد قررت، أن أترك الفصل على حاله... فليعذرنى القارئ لهذا الاستطراد، ويتحمل سخافاتى مرة... فلقد تحملت الكثير من أجله أثناء كتابتى لهذه الذكريات!!

□ □ □

كانت قهوة عبدالله بميدان الجيزة، فى أواخر الخمسينات والسنوات الأولى من الستينات، هى أشهر ملتقى للأدباء فى ذلك الوقت... ولقد كان يؤمها صفوة من الأدباء والنقاد والفنانين أيضاً... كان أشهرهم وأكثرهم مواظبة على الحضور هو الناقد الراحل الأستاذ أنور المعداوى... ولقد كان المعداوى رحمة الله عليه، يمثل فى هذا المقهى المركز الثقافى الأدبى، فهو دائماً هناك ، لا يتخلف عن الحضور إلا لمرض أو لسبب قاهر ، بينما كان هناك أيضاً

الدكتور عبد القادر القط، الأستاذ الجامعي والناقد المعروف برقته وعذوبة لفظه وحديثه وحرصه على تشجيع الأجيال الجديدة من الأدباء والأخذ بيدهم في حنان قلما تجده لدى ناقد آخر... كما كان من رواد المقهى الكاتب الساخر والمتفرد بأسلوبه محمود السعدني ، والفنان الأصيل حقاً وفعلاً زكريا الحجاوي .... غير أن الغالبية العظمى من رواد المقهى من الأدباء الشبان الذين كانوا يسعون إلى الاعتراف بهم عن طريق هؤلاء الذين يملكون رؤية أدبية ومنهاجاً فنياً مؤثراً وواضحاً!

ولقد عرفت طريقي إلى قهوة عبدالله، التي كانت قريبة من بيتي، حيث كنت أسكن بالدور الأخير من إحدى العمارات الشاهقة أمام حديقة الحيوان، عندما كنت على موعد مع الأديب الراحل دكتور يوسف إدريس... وكان مشهداً طبيعياً أن تجد مجموعة من الأدباء وقد تحلقوا حول أنور المعداوي أو دكتور القط وقد احتدمت المناقشة بينهم حول المذاهب الأدبيه المختلفة، أو حول قصة أو رواية نشرت حديثاً لأديب شهير أو حتى أديب لا زال يحبو على بداية الطريق... ترتفع الأصوات وتحتدم المناقشه وسط ضجيج الميدان وصياح الجرسون على القهوة أو الشاي أو الحلبة أو الشيشة التي يعشقها الدكتور القط على وجه التحديد... كما كان من المشاهد الطبيعيه جداً، أن ترى أنور المعداوي ـ رحمة الله عليه ـ وهو يستمع إلى قصة يقرأها عليه أديب شاب، أو وهو يدلي برأيه إلى هذا أو ذاك من الأدباء في مجموعة قصص صدرت له أو رواية!

وفي الحقيقة، فلقد كانت متعتي كلما ذهبت إلى هذا المقهى، هي الجلوس وسط هذا الحشد، كي أرقب ما يحدث حولي ـ كنت دائماً ما أشعر أنني أما. واقع تاريخي سوف يهمله التاريخ فيما هو قادم من أيام... ذلك كان

إحساساً دائماً ـ ولا زال ـ أننا رغم تاريخنا المحفور فوق الأحجار لآلاف السنين أكثر شعوب الأرض إهمالاً لتاريخهم الحديث... كنت أستمتع أيما متعة وأنا أشاهد المعداوى وهو ينقد في عنف ـ ربما لم يجاره فى هذا العنف سوى فؤاد دواره !! ـ قصة أو روايه أو قصيدة لأديب أو شاعر دون يحيد أو يجامل... بينما صاحب العمل يجلس إليه منتفضاً بالغضب أو الأمل!!

باختصار... كانت قهوة عبد الله، وجهاً آخر من الوجوه الأدبية فى مصر في تلك الأيام، وجه مختلف عن تلك الندوة العاجية البرج في مكتب توفيق الحكيم حيث كنت أجلس، وغير ندوة نجيب محفوظ التى كانت فى ذروة ازدهارها فى تلك الأيام بكازينو أوبرا... وغير ذلك اللقاء الاستعراضي في بيت دكتور رشاد رشدي ودكتورة لطيفة الزيات فى بيتهما الذي لم يكن يبعد عن بيتي إلا بخطوات... غير تلك الندوة التي كانت تعقد أسبوعيا في نادى القصة بشارع قصر العيني، غير اجتماعات ولقاءات «الأمناء» ـ تلامذه الشيخ أمين الخولي زوج السيدة بنت الشاطئ، والذين كانوا يضعون بعد أسمائهم إذا ما كتبوا مقالات أو قصص أو قصائد، تعبيراً كان شائعاً في تلك الأيام هو «من الأمناء» نسبة إلى هذا الشيخ الجليل... كل هؤلاء كانوا إلى جانب جماعة أبو للو الشعرية التي أسسها دكتور أحمد زكي أبو شادي... ذلك عصر كان زاخراً بالمعارف والمناقشات والحماس والنظريات والصراع الفكرى في أرفع صوره ودرجاته أيضا... ولقد يتذكر الإنسان اليوم ذلك العصر، ويتأمل هذا الحشد الرائع من الجماعات الأدبية ذات الاتجاهات المختلفة، ويتساءل : أين ذهب كل هذا ؟!... وأين نحن الآن منه؟!... فلا يجد سوى الحسرة جواباً على تساؤله!

في هذا المقهى كان لقائي مع دكتور عبد القادر القط عضو اللجنة

المانحه لجائزه الدولة التشجيعية بالمجلس الأعلى للآداب والفنون... وكان ما كان من قوله لى بأنى كنت الأحق بأول جائزة تشجيعية للدولة فى الأدب!

وفى حقيقة الأمر، فلقد سعدت ودهشت فى نفس الوقت... سعدت حقا لأنى لم أكن فى انتظار الفوز بهذه الجائزة، بل ـــ ربما صفاقة منى ـ لم يكن يعنينى أن أفوز بها... ذلك أنى أكتب لأنى لا أستطيع الا أن أكتب ، فأنا لا أكتب كى أحصل على جائزة، ولا سعيا وراء شهرة أو اسم، فهذا بالتحديد ،لا يدخل في دائرة اهتمامى... وإذا كان على أن أستطرد مستأذنا، فلربما أثارت الذكرى بعضا من الذكريات، فإنى أذكر أن الأستاذ عبد الوهاب قتايه، المذيع المصرى الذى عمل لسنوات طويلة فى تلفزيون أبو ظبى، قد سألنى وهو يسجل معى برنامجاً تلفزيونيا يحمل اسم "لآلىء عربيه." وكان هذا فى عام ١٩٨٦: "لماذا كان أدبك أشهر منك؟!"

وبقدر ما كان السؤال ذكيا ولماحاً، بقدر ما كان مدهشاً... كانت هذه حقيقه، ما كدت أهم بالرد حتى انبرى الرجل إلىّ فى حماس: "أن الناس تعرف زقاق السيد البلطى وتتحدث عنها، لكنهم لا يذكرون اسم الكاتب، كذلك الأمر بالنسبة لرواية وفيلم الكذاب !" ... قال هذا ثم توقف قليلاً ليضيف : "وحتى فيلم الصعود إلى الهاوية، ومع كل الشهرة التى نالها، وآخر جملة فيه التى أصبحت مثلا يتردد فى الشارع المصرى : هى دى مصر يا عبلة!... والذى يعتبر علامة جديدة فى تاريخ السينما المصرية، يتحدث الناس عنه وعن أبطاله فى حماس شديد، لكن أحداً لا يذكر مبدعه ومؤلفه ... فلماذا ؟!... لماذا ؟!"

لقد تركت كتابة هذه السطور وعدت إلى مشاهدة شريط هذا البرنامج التليفزيونى، والذى سجل أثناء كتابتى لرواية ـ لا المسلسل ـ رأفت

الهجان، فإذا بى أشاهد هذا المذيع الوقور المنضبط، وقد أخذه الحماس مع الدهشة ... وابتسمت، بل، الحق أقول ، شعرت بالرضا تماماً!

قلت لعبد الوهاب قتايه، وكنت صادقاً كل الصدق والله شهيد على ما أقول وأكتب:

" إن اسمى لا يعنى بالنسبة إلى شيئا ، إن ما يعنينى فى المقام الأول، هو أن يصل إلى الناس ما أريد أن أقول... ذلك أنى مقتنع أشد الاقتناع، أن الكاتب الحقيقى هو من يملك فكراً يريد أن يوصله إلى الناس، لا أن يوصل إليهم اسمه .. وعلى سبيل المثال فإن أحداً لا يعرف كم المعاناة المخيفة التى عانيتها أثناء كتابتى لفيلم الصعود إلى الهاوية... ولقد وصل الأمر إلى حد المأساة الشخصية، والتضحية التى لا يمكن لأحد أن يتصور مداها... لا لشئ، إلا لأنى أدركت أن الناس لا تعرف ما كنت لا أعرفه أنا أيضا ، وأنه من الجرم التخلى عن هدف سام مثل هذا مهما كانت المعاناة أو العذاب... وكان أن تحملت كى يصل الفيلم إلى الناس، وقد حدث !!"

لقد كان ما قلته صحيحا كله، ولم يكن صعبا أن أضع اسمى فى مكانه اللائق مع كل الذين شاركوا فى الفيلم . كان هذا سهلاً للغاية فالأساليب معروفة والدروب ميسرة... غير أنى لفرط ما عانيت من متاعب، لم أسع إلى هذا بأى شكل من الأشكال، بل قد يدهش البعض إذا ما قلت، أنى لم أشاهد فيلم الصعود إلى الهاوية، إلا بعد عرضه بخمس سنوات كاملة، وكان هذا فى عرضه الثانى ـ لا الأول ـ بالتلفزيون المصرى!

□ □ □

هل أثار حديثى عن الدكتور القط على قهوة عبد الله، وأنا لا أزال فى

مقتبل حياتي الأدبية، كل هذه الذكريات؟!... وعلى كل الأحوال، فماذا قال دكتور عبد القادر القط؟!

قال لي الرجل أن لجنه الجائزه التشجيعية أجمعت كلها على أن مجموعه قصص "الخوف" لصالح مرسي، هي الأحق بجائزة الدولة التشجيعيه، كل اللجنه بلا استثنا،، عدا رئيسها!!

ولقد كانت اللجنه برئاسه الأستاذ والعلامة الكبير: عباس محمود العقاد! ... ولكي نضع النقاط فوق الحروف، ونضع الأمور في نصابها أنفسنا استشهادا !! ، فإن الأستاذ الراحل عباس محمود العقاد، كان له موقف ثابت من كل جديد... كان - على سبيل المثال - رافضا للشعر الحديث... وكانت معاركه ونقده الحاد والجارح للشعراء الجدد - وعلى رأسهم الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور - يملأ الساحة الأدبية، وبالتالي، فلقد كان رفضه، وربما عداؤه، للعامية في الحوار أو السرد بالنسبة للقصة أو الرواية، رفضاً مبنياً على موقف مبدئي ومنطقي في نفس الوقت... حقا، لقد ذهب العقاد وبقي الشعر الحديث، بل وتطور وقطع أشواطا وفراسخ هائلة في التعبير عن الوجدان الإنساني، كما أن العامية بقيت وأثبتت الأيام أنها تصلح للأداء الأدبي كالفصحى تماماً... لكن يبقى أن العقاد لو بقي على قيد الحياة، لما تغيرت نظرته للأدب، ولا للشعر الحديث، ولا للعامية!

قال لي الدكتور عبد القادر القط أن العقاد هو الوحيد الذي وقف ضد حصولي على الجائزة، رغم اعترافه بالمستوى الجيد لقصصي، ولأدائي كقصاص، وكانت حجته في ذلك هو أن استخدامي للعامية في الحوار، يخرج القصص من دائرة الأدب، فالعامية ليست أدباً، ولا تصلح لأن تكون!

ولقد تصدى للأستاذ اثنان: دكتور عبد القادر القط ، ودكتورة بنت الشاطئ.

الغريب في الأمر، أني لم أسأل الرجل ليلتها وهو يقص علي ما حدث، ومبسم الشيشة بين شفتيه على رصيف قهوة عبد الله بميدان الجيزة، عن بقية إعضاء اللجنة ولا عن موقفهم... وأنا حتى اليوم لم أسأل... ذلك أني لم أنظر للأمر على أنه مشكلة تخصني، فلم يكن العقاد يعرفني، إنه لم يرني ولم ألتق به مرة ، وإنما كان موقفه المبدئي من العامية... وإني لأذكر تلك المقدمة التي كتبها أستاذنا الراحل دكتور طه حسين للكتاب الثاني ليوسف إدريس الذي يحمل عنوان "جمهورية فرحات" وموقفه الرافض للعامية... غير أن موقف طه حسين كان مختلفاً، كان الرجل رافضاً للعامية حقاً، لكنه أيضاً كان حاضناً للفن في شتى صوره، بدليل أنه كتب تلك المقدمة التي سجل فيها اعتراضه على العامية ، لمجموعة قصص ورواية ضمها هذا الكتاب، وكانت القصص والرواية جميعا ، تزخر بتعبيرات يوسف إدريس العامية، واستخدامه العبقري لها!..

وعلى كل الأحوال، فلم يفلح موقف دكتورة عائشة عبد الرحمن ودكتور عبد القادر القط ودفاعهما المستميت عن كتابي، في زحزحة العقاد عن موقفه!

وضاعت مني الجائزة!

فلم أتقدم بعدها لنيل جائزة ، أية جائزة!

□ □ □

هكذا قصت دكتورة بنت الشاطئ قصة الجائزة وما حدث في اللجنة في تلك الجلسة التي ضمتني مع الأستاذ توفيق الحكيم ودكتور حسين فوزي

والصديق فؤاد دواره... كنت أعرف ما كانت تحكيه، لكني لزمت الصمت.. فماذا أقول!!!

كان العقاد قد رحل عن عالمنا... وكنت أشعر بشكل غامض بالذنب حياله، فلقد جاء عليّ وقت أحسست فيه أني أكرهه بالرغم من اقتناعي بموقفه المبدئي... ولقد كان هذا إحساساً رخيصاً بكل المعاني، وكنت أشعر بالخجل بيني وبين نفسي، لأني كرهت رجلاً لمجرد أنه اختلف معي في الرأى... وإذا كانت هذه الأحاسيس شائعة في عالمنا العربي، فما هذا إلا نوع من التخلف الوجداني، وعدم القدرة على الاستبصار والاستشفاف للمستقبل الذي يحمل في رحمه الحقيقة التي سوف تفرض نفسها على الجميع!!

كانت النكسة قد غيرت فيّ الكثير... وإني، عندما أقرأ للبعض ما يزعمون أن النكسة فعلته بهم أشعر بالرثاء لهم،لأنهم لم يدركوا حقيقة ما حدث.. إن الألم هو البوتقة التي يتكون فيها المستقبل العظيم مهما كان هناك من عثرات.. لقد كنت أيامها أشعر بأني أفيق من كوابيس فرضت نفسها على بحكم التردد أو العادة أو سمّها ما شئت.. كنت قد أدركت حقيقة موقف العقاد، لا منّي فأنا بالنسبة إليه كنت مجهولاً لا يعني شيئا... لكنه المبدأ الذي دفعه إلى موقفه هذا.

عندما انتهت الدكتوره عائشه عبد الرحمن من حكايتها، فوجئت بسؤال لم يخطر لي ببال، فلقد التفت الأستاذ توفيق الحكيم نحوي متسائلا:

"انت خلصت من رواية السجين ولا لسه بتكتب فيها ؟!"

الحق أقول، ودون أدنى قدر من المبالغة، لقد فزعت!

كانت روايه السجين تنشر في مجله صباح الخير في تلك الأيام

مسلسلة... ولم يخطر ببالى أن أستاذا فى قامة توفيق الحكيم، من الممكن أن يكون قد قرأ فيها كلمة... فأنا نفسى لا أقرأ الروايات مسلسلة... ثم، ثم إن للسجين معى قصة غريبة، قصة كان عضوا فيها الشاعر الراحل صلاح جاهين والذى كان رئيساً لتحرير صباح الخير فى ذلك الوقت...

وعلى كل فلقد أجبت:

"أنا سلمت الروايه كاملة لصلاح يا توفيق بيه!"

مال توفيق الحكيم على مكتبه مسدداً إلىّ نظرة غر يبه وهو يقول:

" يعنى خلصت منها؟!"

"ايوه يا توفيق بك !"

"أنت عارف انت عامل إيه فى السجين؟!"

وكان ما سمعته من الرجل عجباً بكل ما تحمل الكلمة من معنى!

[redacted]

٤

ما أن سألنى الأستاذ توفيق الحكيم عن رواية السجين التي كانت تنشر مسلسلة في مجلة صباح الخير ذلك الوقت، حتى تداعت الذكريات الى ذهني بالرغم مني.

ذلك أن ثمة ظاهرة غريبة واكبت كتابتي لهذه الرواية.. كنت بعد نكسة ١٩٦٧ ، قد كفرت بالأدب كوسيلة لتنبيه الناس أو حثهم على الفعل الإيجابي، ورحت أردد أننا نكتب لمن لا يقرأ، وأننا شعب تصل نسبة الأميه فيه إلى قرابة الثمانين في المائة... كان كل شئ من حولي ينهار... غير أني لم أفعل ما فعله البعض منا، لم أتقوقع ولم أغلق عليّ بابي وأنعزل عن الناس، كان قراري هو النزول إلى الناس مباشرة، ومخاطبة هؤلاء الذين لا يقرأون لأنهم لم يتعلموا، أولأنهم لا يملكون ثمن مجلة أو كتاب... ولذلك، فلقد اندفعت بكل ما أملك من موهبة وقدرات إلى العمل الإذاعي والتلفزيوني... كان لابد وأن تصل كلمتي إلى الناس، وبهذا الإحساس المضني كتبت مسلسلاً إذاعيا بعنوان "الحوت"، وجد صدى رهيبا وسط الناس، كان المسلسل يحكي بشكل رمزي طبعا، قصة العلاقه بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر الذى كان وقتها قد انتحر... ولقد لعبت بطولة هذا المسلسل نخبة من الفنانين العظام الذين تحمسوا حماساً شديداً

لأداء أدوارهم... كان فيهم محمود مرسى الذى لعب دور البطولة، إلى جانب سعد أردش وجلال الشرقاوى وزوز ونبيل وعبد الرحيم الزرقانى وسهير المرشدى ومديحه حمدي... وكان نداء المسلسل، فى بدايه التيتر هو : "الحوت... قصة قريه داهمها الخراب فجأة"... ووصل نجاح المسلسل إلى حد أن الصديق محمد عروق، وكان مديراً لصوت العرب وقتها، كما كان مديراً لمكتب وزير الداخليه وأمين أمانة التنظيم فى الاتحاد الاشتراكى، الراحل شعراوى جمعه ... التقى بى ذات مرة معاتبا:

"يبقى معقول تقول أربع مرات فى اليوم : قصة قرية داهمها الخراب فجأة؟!"

"وهى لسه ماخربتش يا عروق؟!"

كان هذا هو جوابى، فإذا به يقول :

"على العموم الراجل متأثر منك قوى!"

ولست أدرى حتى اليوم عمن يكون هذا الرجل... هل هو جمال عبد الناصر، أم أنه وزير الداخلية شعراوى جمعه، والذى كان عروق أقرب مساعديه إليه.

إلى جانب الحوت كان هناك مسلسل آخر أذيع من صوت العرب بعنوان "قاتل يبحث عن نفسه!" يحكي قصة وكيل نيابة ارتكب جريمة قتل فى نفس المنطقة التى يعمل بها، وكان عليه أن يحقق فى الحادث الذى ارتكبه، وأن يكتشف القاتل!

وبطبيعة الحال، فإن المعنى لم يخف على أحد، ولقد أثار المسلسل لغطاً شديداً... غير أنى لم أتوقف [illegible] بث سهرة تليفزيونية بعنوان "ناس بتحب"، وآخرى بعنوان "محاكمة [illegible] البحيرى"... وسرحان البحيرى هو

بطل روايه "ميرامار" لنجيب محفوظ، ذلك البطل الانتهازى الذى انتحر عندما انكشف امره... ولقد ألفت شخصية سرحان البحيرى من جديد، قلت إن الانتهازى لا ينتحر، لكنه يوقع غيره فيما ارتكب هو من جرم... وهذا ما حدث فى تلك السهرة، فلقد رقى سرحان البحيرى من مدير إلى رئيس مجلس إدارة، مما أثار غضب الكثيرين وكان منهم وزير الداخلية الراحل "شعراوى جمعه"، الذى انتهز فرصه ظهوره فى برنامج تلفزيوني بعنوان "شريط تسجيل"، كى يهاجمنى بالاسم هجوماً عنيفا استضاف فيه نجيب محفوظ، من أجل هذه السهرة بالذات!

وفى حقيقة الأمر كنت راضيا تماماً عما أكتبه، ذلك أن رد الفعل الشعبى لهذه المسلسلات وصل إلى ما فوق تصوري... غيرى أن هذه الأعمال، لم تعجب بعض نقاد الأدب الذين رأوا فيما أصنع، ما يصنعه بالتحديد الترزية الذين يكتبون لافتات تحمل مع أسمائهم، كلمتى "تاجر وترزى"!!

كان التشبيه قاسياً قسوة شديدة... غير أني لم آبه له ليقيني أن مثل هؤلاء، يتحدثون عما فعلته بهم النكسة وهم جلوس خلف مكاتبهم لا يصنعون شيئاً... غير أن هذا النقد كان دافعاً إلى التفكير... فلقد أحسست فجأة أنى كمن حكم عليه بالسجن قبل أن يولد... لقد ولدت فى دولة محتلة، الوطن نفسه سجين، وكنت سجين تقاليد وعادات بالية تحد من رغبة أي إنسان في الانطلاق والتحرر، وشببت في البحر حيث القوانين صارمة فكنت سجينا في السفينة، وعندما تحررت من البحر وتحرر الوطن كنت سجين أفكار يعتبر الخروج عنها نوعاً من الخروج إلى فضاء بلا هواء أتنفسه... وما كادت تمر سنوات حتى وقعت الكارثه وحلت النكسة . وإذا

بى مرة أخرى فى وطن سُجن باحتلال جزء من أرضه. عندما أردت الصراخ بما آمنت به، وضعنى البعض فى سجن الإسفاف فأصبحت تاجراً للأفكار وترزياً للفن!

كانت تلك مرحلة سخيفة بحق، وكان طبيعيا أن أجلس إلى المكتب، وأكتب روايه "السجين"!

ولأنى أردت الرد على هؤلاء الذين اتهمونى بالتجارة وتفصيل الأحداث، فلقد كان حتما على أن أتحدى بكتابة الرواية بأسلوب رآه البعض، مثلما رآه أستاذنا توفيق الحكيم، نوعاً رفيعا من الأدب... لكن الغريب، أنى عندما دفعت بالرواية إلى الصديق الراحل صلاح جاهين، وكان وقتها رئيساً لتحرير صباح الخير، حتى وجدته فى صباح اليوم التالى يسألنى فى دهشة، وقد قرأ الرواية، على حد قوله فى جلسة واحدة:

"أنت تعرف كفر الزيات منين؟!"

إن بطل السجين لا اسم له. تقرأ الرواية حتى تنتهى منها، فلا تعرف اسم هذا الطفل الممزق فيما بين سجن الوطن، وسجن الأب، وسجن التقاليد والعادات... فالرواية كلها، ليست سوى مونولوج فى داخل طفل لا يتعدى العاشرة من عمره إلا ببضعة أشهر... كما أن المدينة التى اخترتها فى ذهنى كنموذج لهذا السجن المتعدد الزنازين، كانت بالفعل كفر الزيات التى ولدت فيها وغادرتها وأنا فى الثانية عشرة من عمرى، غير أنى لم أكن قد ذكرت اسمها على الإطلاق... ولذلك فلقد أدهشنى سؤال صلاح جاهين، فسألته متغابياً:

"إشمعنى كفر الزيات ؟!"

قال:

"ما اعرفش، أنا رحت كفر الزيات مرة واحدة فى حياتى ، لكن من أول سطر فى الرواية، لقيتنى فيها ... انت كنت بتكتب عنها فعلاً؟!"

تذكرت كل هذا وأنا جالس إلى الأستاذ توفيق الحكيم ودكتور حسين فوزى ودكتوره بنت الشاطئ والصديق فؤاد دواره... وعندما سألنى الرجل سؤاله هذا: "أنت عارف انت عامل إيه فى السجين؟!"... لم أجد ما أرد به عليه غير أن سألته وقد ألمت بى الدهشة :

"هو سيادتك قريت اللى اتنشر منها ؟!"

اعتدل توفيق الحكيم فى جلسته وهو يقول:

"أنا مش ممكن أقرا روايات مسلسلة، حتى روايات نجيب مش باقراها إلا لما تطلع فى كتاب !"

التفت بعد ذلك نحو دكتور حسين فوزى واستطرد:

"عارف يا حسين ، أنا كنت فى ليلة مش جاينى نوم، لقيت مجلة صباح الخير جنبى، مسكت المجله وقلت أقرا حاجه أنام عليها... لقيت الفصل الأول من السجين بتاعة صالح مرسى، قلت آدى أديب كويس لما أشوف هو بيقول إيه... ولما خلصت الفصل، النوم طار من عينى، واستغربت!"

التفت نحوى بعد ذلك متسائلا:

"هى فاضل فيها كام فصل ؟!"

"ثلاثة!"

هز راسه فى ارتياح من انزاح عبء من فوق صدره، ثم أردف :

"أنا بقيت يا ستنى صباح الخير كل أسبوع، وفى كل أسبوع، بابقى خايف الا تشط كده ولا كده !"

كان حديث هذا الأستاذ باعثا على الدهشة حقا، ولكنى لم أفهم بالضبط

[redacted]

ما الذى كان يقصده بالشطط، ولابد أن ملامحى وشت بحيرتى تلك، فإذا به يسألنى:

"أنت قريت چيمس جويس ؟!"

"ما اكدبش عليك يا توفيق بيه ، أنا قريت له كام فصل فى رواية نسيت اسمها وما قدرتش أكمل! "

"قريت الأصل والا الترجمة ؟"

هتفت :

"إذا كانت الترجمة صعبة بالشكل ده، يبقى الأصل شكله إيه؟!"

"مية فى المية الترجمة وحشة !"

هكذا قال الرجل فلذت بالصمت، وانبرى دكتور حسين فوزى يتحدث عن الترجمات الرديئه، وعن نتائج تلك الترجمات "الطيّارى" – على حد تعبيره – التى تصدر بها غالبية مشروع الألف كتاب... ثم عرج إلى الحديث عن الترجمة المثالية التى قام بها المثقف العربى الكبير دكتور سامى الدروبى لأعمال ديستويفسكى الكاملة... وما كاد الرجل أن ينتهى من حديثه حتى وجه توفيق الحكيم حديثه إلىّ قائلا:

"لازم تقرا جويس... دأنت مطور أسلوبه فى السجين !!"

صعقت ، هتفت وقد داخلنى الخوف من أن يكون حديثه اتهاما مغلفا بالتقليد :

"بس أنا ما قريتوش حقيقى يا توفيق بيه!"

"أنا عارف ده كويس، ما هو انت لو كنت قريته، يمكن ماكنتش كتبت السجين!"

مرة أخرى شدنا الحديث إلى تأثير الأدباء على بعضهم البعض، وكيف أن

الفنان قد يتأثر بفنان آخر فليس فى هذا عيب... لكنه، إذا ما كان فنانا حقيقيا، سوف يفرز فنا خاصاً به حتى إن أراد التقليد، ذلك أن التقليد يختفى فى ظلال الإبداع الجديد... قال لى توفيق الحكيم، إن تلك الفصول القليلة التى قرأتها لجيمس جويس، تركت بالتأكيد فى نفسى أثراً دفعنى إلى كتابة السجين بهذا الأسلوب الذى يرى فيه تطويرا لأسلوب هذا الأديب الكبير!

قبل أن أنصرف فى ذلك اليوم، قال لى وهو يصافحنى :

"خلى بالك من نفسك!"

هممت بأن أشكر له اهتمامه، فإذا به يردف:

"الفنان الحقيقى هو اللى يعرف قيمة نفسه ويحافظ عليها!"

ولقد يسأل سائل: هل واظبت على حضور تلك الندوة الخاصة بعد ذلك ولقد يدهش، إذا ما عرف الجواب... وهو أن هذه كانت المرة الأولى والأخيرة!

أما السبب : فلا أعرفه !

□ □ □

أن نسيت فلن أنسى تلك الواقعة التى تعرضت لها وأنا أكتب عن نجيب محفوظ فى بداية هذه الرحلة من الذكريات، والتى وقعت فى مقهى بترو بالإسكندرية فى صيف عام ١٩٧٠، عندما ثار الأستاذان علىّ لأنى كتبت قصة حياة الفنانة تحية كاريوكا، وأطلقت على ما كتبت اسم "كاريوكا"... لا أنسى قول الحكيم:

"على عينى وراسى... كاريوكا فنانه عظيمة... لكن انت فنان كبير، اسأل نجيب يقول لك رأينا فيك إيه؟!"

وكان هذا تقريظاً لم أطمح إليه، حتى فى الخيال!!

غير أن ثمة لقاء انفردت به فيه، كان اللقاء مصادفه، وكان الحوار غريبا!

ففى أواخر ١٩٦٩، كنت فى زياره لصديق فى الأهرام، كانت هذه هى المرة الأولى التى أدخل فيها مبنى الأهرام الجديد، وعندما هممت بالانصراف، سألنى صديقى إن كنت أرغب فى المرورعلى توفيق الحكيم فى مكتبه، ولقد رحبت بطبيعة الحال ... كنت قد أعدت قراءة روايته الشهيرة "بنك القلق" التى كانت قد صدرت فى عام ١٩٦٦ على ما أذكر...

والتى قد أطلق عليها ـ مراوغا ـ اسم "مسروايه"، ذلك أنه خلط فيها بين تكتيك الرواية والمسرحية، بينما كان هو ـ فى واقع الأمر ـ يكتب عن جهاز المخابرات وتلك التجاوزات التى أثارت الكثير من اللغط حتى وصل الأمر ـ كما عرفت فيما بعد ـ إلى الرئيس عبد الناصر شخصياً.

عندما دخلت مكتب توفيق الحكيم، وجدته محاطا بعدد لا بأس به من الأدباء والمثقفين... ما أن رآنى حتى رحب بى ترحيبه ذاك الحار، وكان الوقت متأخراً، كما كان هو يهم بالانصراف... وعندما عرض عليه البعض أن يقوم بتوصيله إلى بيته ، نظر إلى وقال :

"أنا ماقعدتش مع صالح كفاية!"

ثم التفت نحوى حاسماً الأمر:

"أنت معاك عربيه والاحا تمشينى لحد البيت؟!"

ما أن ركبنا السيارة حتى قلت:

"توفيق بيه ..أنا قريت بنك القلق تانى الأسبوع اللى فات!"

فى حدة غير منتظرة قال:

"لو كانوا سمعوا الكلام ماكانش حصل اللى حصل!"

كان الرجل يشير إلى النكسة، وإلى الأزمه التي نشبت بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر الذي سانده صلاح نصر رئيس المخابرات وقتها، والتي كشفت محاكمته عن العديد من الممارسات التي تعدى بعضها الحدود... غير أني سألته:

"لكن بتوع المخابرات ما احتجوش عليك وقتها ؟"

"مابحتجوا يا أخي، يحتجوا زي ما هم عاوزين بس يقروا، ويفهموا!"

التفت نحوه باسماً، فإذا به يقول:

"بص قدامك إحنا مش ناقصين... قولي لي، إيه آخر روايه كتبتها؟!"

ولم أكن قد كتبت شيئا فلذت بالصمت، وإذا به يقول :

"ماتسيبش نفسك، واكتب... اكتب حتى ولو كان اللي حاتكتبه مايتنشرش النهارده، حايجي عليه يوم ويتنشر!"

عندما توقفت بالسيارة أمام بيته، وهبطت كي أوصله حتى الباب، قال وهو يصافحني:

"الكتابه قدر... ارضى بقدرك وماتنتظرش غير وجع القلب !"

وضحك ، وتركني...

رحم الله توفيق الحكيم، فلقد ظل يكتب حتى وهو جالس في فراشه في انتظار ملاك الموت!!

الاعمال الكاملة لصالح مرسى

١- الخوف	مجموعة قصص عن البحر	ثلاث طبعات
٢- زقاق السيد البلطى	رواية عن البحر	سبع طبعات
٣- الكذاب	رواية	ثمان طبعات
٤- السجين	رواية	خمس طبعات
٥- خطاب الى رجل ميت	مجموعة قصص عن البحر	أربع طبعات
٦- البحر	من أدب الرحلات	خمس طبعات
٧- المهاجرون	رواية	سبع طبعات
٨- البحار مُندى	رواية	سبع طبعات
٩- حب للبيع	مجموعة قصص	أربع طبعات
١٠ - الصعود الى الهاوية	مجموعة قصص من أعمال المخابرات	خمس عشر طبعة
١١ - دموع فى عيون وقحة	إحدى عمليات المخابرات	خمس طبعات
١٢ - الحفار	إحدى عمليات المخابرات	خمس عشر طبعة
١٣ - رأفت الهجان	رواية من أعمال المخابرات	خمس وعشرون طب

١٤ ـ سامية فهمى	رواية من أعمال المخابرات	عشر طبعات
١٥ ـ نساء فى قطار الجاسوسية «جزء أول»	من أعمال المخابرات الاجنبية	سبع طبعات
١٦ ـ رحلات السندباد البرى	رواية	طبعتان
١٧ ـ ليلى مراد	قصة حياة المطربة الراحلة	طبعة أولى
١٨ـ أقوى طفل في العالم		طبعة أولى
١٩ ـ هم وأنا		طبعة أولى
٢٠ ـ نساء في قطار الجاسوسية		طبعة أولى
٢١ـ قاتلة باردة الاعصاب		طبعة أولى

فهرس الكتاب

الافتتاحية ٧
نجيب محفوظ ١٧
يوسف إدريس ٩١
يوسف السباعى ٧١
يحيى حقى ١١
توفيق الحكيم ٤٣

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
تليفون ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

هم وأنا

[illegible]

To: www.al-mostafa.com